تأليف
د. نبيل راغب

أعلام التنوير المعاصر

هيئة مصرية عامة للكتاب

أعلام التنوير المعاصر

- توفيق الحكيم
- د. زكى نجيب محمود
- أمينة السعيد
- أحمد بهاء الدين
- نعمان عاشور
- د. حسين فوزى
- د. لويس عوض
- عبد الرحمن الشرقاوى
- د. نعمات فؤاد
- د. فؤاد زكريا

تأليف

د. نبيل راغب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

● الاخراج الفنى : عمر حماد

هذا الكتاب

فى اعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧ ادعت قوى التخلف الثقافى والفكرى ان هذه الهزيمة كانت نتيجة مباشرة للثقافة التى ساندتها ثورة يوليو ١٩٥٢ والتى سادت عقد الستينيات على وجه الخصوص ، وتجلت فى كل مناحى حياتنا الثقافية مثل نشر الكتب ، وعرض المسرحيات ، وانتاج الأفلام ، وقوافل الثقافة الجماهيرية ، وارسال البعثات العلمية الى الخارج ، وانشاء اكاديمية الفنون ، وبروز فنون الأوبرا والبالية لأول مرة ، وازدهار الفنون الشعبية ٠٠٠٠ الخ ٠ كذلك حرص الراديو والتليفزيون على تقديم الثقافة العامة والمتخصصة ضمن برامجهما كزاد يومى لكل الناس ٠

وجدت قوى التخلف الثقافى والفكرى فى نكسة ١٩٦٧ فرصة عمرها للانتقام مما لقيته على يد الثورة ، ولاستعادة مواقعها الضائعة ، فشرعت على الفور فى التحرك تحت جنح الظلام الذى اعتادته ، حتى لا تكشف هويتها من اول وهلة ، بالاضافة الى ان الدولة كانت قد كرست كل طاقاتها وجهودها لازالة آثار العدوان ٠ وبدات قوى التخلف فى استعادة حيويتها والانقضاض على النهضة الثقافية التى انارت الأذهان والقلوب ليس فى مصر فحسب بل فى العالم العربى اجمع ٠ وبدانا فى تلك الأيام نسمع نغمات خافتة لكن واضحة تلمح من طرف خفى بأن مصابيح الثقافة التى اضاءت الستينيات على وجه التحديد كانت المقدمة الطبيعية للنكسة ، لأنها نهضت على ما سمى بالأفكار المستوردة والاتجاهات الدخيلة والمندسة فى تراثنا ٠

وظلت هذه القوى فى زحفها الحريص الخفى المدعم من قوى الرجعية المتربصة فى المنطقة بمصر لضربها فى مقتل حتى تتخلى عن زعامتها التاريخية بعد انطفاء شعلة التقدم الحضارى التى رفعتها عالية منذ مطالع القرن التاسع عشر • وكان حريق أوبرا القاهرة عام ١٩٧١ بمثابة البداية الرمزية أو الاعلان الواضح الذى قالت من خلاله هذه القوى : نحن هنا !

لكن مصر الحضارة والتاريخ لم تستسلم بطبيعتها لقوى الظلام كى تجتاحها بهذه البساطة ، وواصلت مصابيحها اصرارها على الاشعاع فى كل الاتجاهات الممكنة برغم الخفافيش التى انطلقت حولها تحاول اطفاءها • فقد شرعت قوى الاظلام فى توجيه ضرباتها الواحدة بعد الأخرى، وأصبحت التهم الرخيصة تكال لكل من يعترض طريقها ، ومع ذلك صمد المفكرون والمثقفون الأصلاء ، ونبهوا الى خطورة ما يجرى ، وكان فى مقدمتهم المصابيح التى ضمها هذا الكتاب • لكن مشكلتهم تمثلت فى اختلاف سبلهم وتنوعها وتبددها برغم وحدة هدفهم الذى تمثل فى الدفاع المستميت عن الكيان الثقافى والحضارى لأمتنا • ولذلك كانت جهودهم متناثرة متفرقة وليست مؤثرة بقدر تأثير قوى التخلف التى اتحدت فى الوسائل والغايات على حد السواء ، لشعورها أن فرصة العمر قد واتتها أخيرا وعليها ان تعمل فى اصرار بل وعنف كى تهتبلها •

كنت ارقب جهود هؤلاء الاعلام عن قرب احيانا وعن بعد احيانا اخرى ، وكان أشد ما يحز فى نفسى انهم يخسرون جولة بعد اخرى وموقعا بعد آخر • وهذه الخسائر المتتابعة لا تعنى سوى طغيان مد التخلف الثقافى بحيث يمكن ان يغرقنا فى النهاية ، وان نعود الى عصر ما قبل رفاعة الطهطاوى حين انطفأ نور العقل والوجدان •

هنا بزغت فكرة هذا الكتاب الذى يحاول تلمس بقع الضوء المتناثرة الآن حتى نستخلص منه درسا قد يساعدنا على تجنب الطرق المسدودة المظلمة التى دخلناها فى تلك الفترة التى بلغت قمتها المأسوية فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ وانتهت بحادث المنصة الدموى فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ • كانت الصورة ممزقة لدرجة مرعبة • لقد حط اليأس والاحباط على كاهل المثقفين والمفكرين المستنيرين لدرجة ان بعضهم شد رحاله الى دول عربية شقيقة ، وبعضهم التزم الصمت شاعرا بعدم جدوى ما يكتب او ما يقول ، وبعضهم وجه نشاطه الصحفى والثقافى الى المجلات والصحف العربية ، وبعضهم ظل فى موقعه صامدا يكتب وينادى ويصرخ ولكن لا حياة لمن تنادى ، لكن وسط كل هذا الركام ايقنت المصابيح التى يحتويها هذا

الكتاب الى الاستسلام لقوى التخلف والظلام لا يعنى سوى ترك الساحة خلوية خالية لها بحيث تصول وتجول حتى تصبح لها السيادة المطلقة على مقدرات امتنا ، ولذلك واصلت الاشعاع مبهرا احيانا ، وخافتا فى احيان كثيرة ، لكنها لم تتخل عن مواقعها على جانبى طريق التقدم الحضارى ، خاصة وان القضية الآن لم تعد مجرد مواجهة قوى التخلف الثقافى ، بل تفرعت وتنوعت مستقطبة معها بطبيعة الأمر قوى التخلف الاجتماعى والاقتصادى • فلم تكن قوى التخلف الثقافى سوى طليعة قوى التخلف الأخرى •

وبرغم كل ذلك لم يغمر احساس اليأس والاحباط رواد الفكر المستنير ، ولم يشعر احدهم بانه دون كيشوت ، يحارب طواحين الهواء ، ذلك ان الطواحين هذه المرة مردة وعمالقة حقيقيون يدوسون فى طريقهم كل عناصر التنوير والتثقيف • فلم تكن الكتابة ضد التيار الجارف مثل الآذان فى مالطة باية حال من الأحوال •

من هنا كان هذا الكتاب الذى يحاول التنظير للكتاب والمفكرون الاصلاء من خلال رصد وتحليل المثل والمبادىء التى تمسكوا بها والدوافع والأسباب التى ساعدتهم على ذلك • ومن هنا ايضا كانت السياحة الفكرية والثقافية الممتعة والمثيرة مع توفيق الحكيم ، وحسين فوزى ، وزكى نجيب محمود ، ولويس عوض ، وامينة السعيد ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وأحمد بهاء الدين ، ونعمان عاشور ، وفؤاد زكريا ، ونعمات فؤاد • وقد ركزنا فى هذه السياحة على الجوهر الفكرى الكامن فى كتاباتهم المبلورة لانجازاتهم الثقافية ولمفاهيمهم الحضارية التى استقيناها من عدة مصادر منها الزيارات الشخصية ، والمكالمات التليفونية ، واللقاءات الفكرية ، والمجادلات ، والمناظرات ، والندوات ، والمحاضرات ، والمقالات الصحفية المتناثرة هنا وهناك ولم يتم جمعها ومنهجتها ، وكذلك الدراسات العلمية والأعمال الفنية والأدبية •

من هذه المصادر قمنا بتكثيف منهج كل منهم دون التدخل فيه ، او اخضاعه لمنظور مسبق او لرؤيا مقحمة ، حتى لا يحدث اى تحريف او

انحراف عن الخط الفكرى الذى ارتضاه كل منهم لنفسه . ولم يقتصر الأمر على هذا بل حاولنا قدر الامكان استخدام نفس الكلمات والاصطلاحات والتعبيرات التى يستخدمها كل منهم عند الكلام عنه فى الفصل الخاص به ، حتى يمكن تكثيف فكره للقارىء شكلا ومضمونا دون اى حاجز بينهما .

وكانت الظاهرة المثيرة للدهشة والاعجاب فى آن واحد ، اننا اكتشفنا فى نهاية الدراسة أنهم جميعا يعزفون سيمفونية فكرية وحضارية واحدة على الرغم من أننا لم نفرض عليهم منظورا محددا ومسبقا كما قلنا ، وعلى الرغم من أنهم تناولوا جوانب متعددة ومتنوعة ومختلفة لقضايا التنوير الفكرى ، فمنهم من ركز على الجانب الثقافى النظرى ، ومنهم من بلور الثقافة كسلوك عملى ويومى للأفراد . ومنهم من نادى بتحرير المرأة واخراجها من عصر الحريم الذى أوشك على الاطباق عليها مرة أخرى ، ومنهم من طالب بمواكبة الحضارة الغربية والاستفادة بكل ايجابياتها الخلاقة ، ومنهم من سعى الى استخراج كنوز التراث لاستخدامها كقوة دافعة كانت السبب الرئيسى من قبل فى ازدهار الحضارة العربية وانتشارها ، ومنهم من رفع لواء التفكير العلمى الموضوعى بصفته الشرط الضرورى لأى تطور حضارى ، ومنهم من وضع يده على الثغرات والسلبيات والأمراض التى تعوق مسيرتنا الحضارية ، ومنهم من علم الجيل معنى الحوار الديمقراطى وقيمة الرأى الآخر ودوره فى توليد رأى ثالث يمثل الاستراتيجية القومية للأمة ، ومنهم من حلل المفهوم الصحيح للانفتاح الاقتصادى على اساس أنه انتاج وعمالة وليس مجرد استيراد للكماليات التافهة ، ومنهم من أوضح العقبات التى اعترضت مسيرة الفن الجاد من كتاب ، ومسرح ، وسينما ، وراديو ، وتليفزيون . ومنهم من رسم خريطة شاملة ودقيقة لحياتنا الثقافية بكل تضاريسها ونتوءاتها وهزاتها وزلازلها ، ومنهم من نادى بوحدة المعرفة الانسانية ، وانه لا انفصال بين علم وأدب أو بين مضمون وشكل ... الخ . من هذه النغمات والألحان التى قد تبدو متنافرة مشتتة لأول وهلة ، لكنها سرعان ما تندمج فى سيمفونية مبهرة ، حاول هذا الكتاب ان يسجل المدونة الموسيقية لها حتى يمكن للأجيال القادمة ان تعزفها أو تستخدم اساليبها وادواتها فى ارساء قواعد لعصر قادم من التنوير يجدد الأمجاد الريادية

التى رسخ رفاعة الطهطاوى جذورها فى تربة الثقافة المصرية والعربية الأصيلة .

ولا يعنى هذا ان هذه المصابيح العشرة هى وحدها التى قامت بمهمة التنوير الثقافى والفكرى ، بل هناك عشرات وعشرات غيرها . لكن اختيارنا قام على اساس انهم يمثلون اغلب الاتجاهات السائدة فى حقل التنوير الثقافى والفكرى. ومع ذلك فنحن نتمنى أن يحفز هذا الكتاب كتابا آخرين كى يقدموا لنا مصابيح اخرى تؤكد ان شعلة الحضارة والثقافة لم تخب برغم كل رياح التخلف الثقافى .

ان الهدف الرئيسى من هذا الكتاب تجميع بقع الضوء المتناثرة سواء تلك التى لمعت فى عقد السبعينيات ، او تلك التى تألقت وابهرت من قبله بطول سنى الثورة ، بحيث تتحول الى شمس ساطعة يراها الجميع ، ولا تستطيع الخفافيش أن تطمس نورها الذى يعشى أبصارها . فقد لاحظنا ان بعض هؤلاء الأعلام انهمك فى ممارسة الكتابة الصحفية بدواماتها اليومية ، والبعض الآخر تخللت كتاباته لحظات صمت أو سكون ، ولم يهتم كثيرا بالتنظير لفكره وتقديمه الى القراء على شكل رؤيا محددة او نظرية متبلورة او موقف مكثف . وفى حمية الكتابة الصحفية والضغوط اليومية فقد لا يلتفت القارىء الى المنهج الفكرى الذى يحكم هذه التطبيقات العملية والممارسات المتجددة مع تيار الحياة .

ولذلك حاولنا فى كل فصل من فصول هذا الكتاب تقديم أو تحديد منظور كل منهم أو رؤياه او موقفه تجاه مجتمعه وعصره . ولا شك ان القارىء عندما يلم بهذا المنظور او الرؤيا أو الموقف ، فانه يستطيع ان يلمس بسهولة الفكر الكامن فى الانجازات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لكل علم منهم ، وذلك مهما تنوعت اجتهاداتهم . ونحن الآن فى أشد الحاجة الى مثل هذه الاجتهادات التى تستشرف آفاق المستقبل وتتلمس ملامحه ، ذلك أن المستقبل هو دائما الشغل الشاغل لكل مصابيح الثقافة والحضارة .

نبيل راغب

● توفيق الحكيم

توفيق الحكيم من كبار المفكرين العرب الذين يملكون القدرة المتجددة على اثارة الجدل والنقاش القومي حول القضايا التي تؤثر في الفكر العربي المعاصر سواء بالسلب أو بالايجاب . وعلى الرغم من أنه الآن يؤكد لكل من يقابله أن جعبته فرغت من القضايا ، وأنه لم يعد لديه ما يقال . وأن دوره انتهى ولم يتبق له سوى انتظار النهاية ، ففي اعتقادي أن تأكيده هذا يمكن أن ينتمي الى تأكيداته السابقة المرتبطة ببخله وعداوته للمرأة وغير ذلك من الطرائف التي ابتدعها حول شخصيته ذات الجوانب المتعددة . ذلك أن عطاءه لا يزال متجددا ، وفكره صافيا متبلورا ، وقدرته على متابعة الفكر العالمي المعاصر قد لا تتاتى للأجيال التي تلته من المفكرين والأدباء . ولذلك فان اللقاء الفكري معه متعة متجددة حتى لو كان ضنينا بأقواله في هذا المجال .

يرى توفيق الحكيم أن أزمة الفكر العربي تكمن أساسا في الانفصال بين الأقوال والأعمال . فالكلام له عندنا دائما كل القيمة ، أما العمل فلا يسأل عنه أحد . ان الشكل هو الذي يعنينا ويخلب منا اللب ، أما الجوهر فلا نكاد نلتفت اليه . وبذلك تنقلب الوسيلة عندنا دائما الى غاية . بل اننا اذا وجدنا حياتنا وقد خلت من الشعارات والألفاظ الرنانة، فاننا سرعان ما نستكشف في الأفق كلمات أخرى ، أو نخترع موضوعا جديدا للتصايح ، يشغلنا من جديد عن المضي الجدي في حركة النهوض المنشود . ولذلك فالعلة ـ في نظر الحكيم ـ أن روح العمل وعبقرية الخلق ثمار لم تلق بعد بذورها في أرض منطقتنا العربية ، على الرغم من

ان حاجتنا شديدة الى هذا الصنف من رجال العمل ، الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شيء في الوجود · ويتساءل الحكيم :

« من المسئول عن موت روح العمل المنتج في هذه الأمة ؟ أهم رءوسها الذين عودوها سياسة الكلام ؟ أم هي الأمة نفسها التي لا تحب ولا تحتمل بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟! » ·

وعلى الرغم من ان الحكيم ألقى هذا السؤال عام ١٩٣٧ في مساجلاته مع منصور فهمي ـ أي ما يقرب من نصف قرن ـ فان أصداء هذا السؤال لا تزال تتردد اليوم وكأننا سمعناه بالأمس القريب · وهذا في حد ذاته يشكل ظاهرة خطيرة لا تعني سوى أننا لا نتقدم ولا نتطور بل نتخلف · لأن « محلك سر » لا تعني الثبات وانما التخلف بحكم حركة الزمن · واذا أخذنا الثقافة ـ على سبيل المثال ـ هل نستطيع القول بأن هناك خطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة في حياتنا ؟ والى أي مدى ننحو نحو الحضارات القائمة ؟ أو أننا سنبقى حيارى في حدائق المعرفة ، لا ندرى ماذا نأخذ وماذا ندع ؟

هكذا يرد الحكيم على التساؤلات بتساؤلات من عنده · لكنه لا يقصد بهذا اثارة المزيد من الحيرة والبلبلة ، بل يهدف الى القاء أضواء كاشفة على السلبيات التي تعتور حياتنا الفكرية والثقافية والتي أصبحنا نعايشها كما لو كانت من الحقائق المفروغ منها والتي لا تحتمل اى جدل. ومن المستحيل التخلص منها أو حتى مجرد زحزحتها ·

ان الفكر الحضارى الناضج يحتمل الاختلاف في الرأى ، بل يحبذه لأنه الوسيلة المثلى لتطوير مساره نحو الأفضل · وعلى الرغم من أننا نتشدق كثيرا بحكمنا وأمثالنا المفضلة مثل : « الاختلاف في الرأى لا يفسد للود قضية » ، فاننا ـ كعادتنا ـ نقنع بهذا على مستوى الكلام فقط ، أما على مستوى الفعل فاننا لا نعرف سوى الغلو والاغراق في الخصومات. فاذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شيء وتحطم كل شيء· ان في كل بلد راق حدودا مقدسة تقف عندها الخصومة وأسلحة لا يلجأ اليها أبناء الوطن الواحد ، فاقحام الدين مثلا في ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم في أى شعب ديمقراطى متحضر ·

واذا سألنا الحكيم عن مفهومه للديمقراطية سنجد أن السياسة هي مجرد جزء بسيط منه ، لأن الديمقراطية هي روح المساواة والاخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع · وان كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها الى عناصر أو طوائف انما هي طعنة مسمومة تصل مباشرة الى قلب الأمة وصميم الديمقراطية ، كذلك ينبغى أن نتذكر دائما أن الخصم في المبدأ

هو مواطن قبل اى شيء وقبل كل شيء ، وأن خصومة المبادىء ليست معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى ترجى منهم فى وقت من الأوقات ، فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرجه الى الأبد من ميدان النفع العام وانما الفرض الذى يسعى اليه الجميع هو خدمة الوطن وحده ٠

ولذلك يطالب الحكيم بأن تكون الخصومة فى حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع ، وليعتقد كل فى خصمه أن عجزه يوما عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك فى يوم آخر ، فلتكن اذن السهام المصوبة من طرف الى طرف فى غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف ، فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين ، انما المصلحة هى فى أن تتداول السواعد ادارة العجلة ، وأن تتهيأ لكل يد الفرصة لخدمة البلاد ٠

هذا الكلام الذى يقوله الحكيم اليوم سبق أن سجله فى كتابه « تحت شمس الفكر » عام ١٩٣٨ ٠ وهذا ان دل على شيء فانه يدل على الحلقة المفرغة والدوامة القاتلة التى يعيش فيها الفكر العربى المعاصر ٠ فعلى الرغم من أن هذا الكلام يصل الى حد البدهيات الثقافية والحضارية، وايماننا به يضعه على مستوى المقدسات ، فاننا نكتفى به كشعارات براقة جميلة تحلى به خطبنا وأحاديثنا وأعمالنا الأدبية ، أما اذا خرجنا الى ميدان الواقع فاننا نتصرف تصرفا مختلفا بل ومتناقضا مع هذا الفكر الحضارى على طول الخط ٠ وهذا لا يعنى سوى أننا مصابون بالشيزوفرانيا القومية، عندما نتكلم ونتجادل نلبس شخصية عذبة رقيقة حساسة ، وعندما نفعل ونعمل نتحول الى طاقات عمياء همجية تسعى الى تدمير الآخرين ثم تدمير نفسها فى النهاية ٠

اننا نظن أن موقعنا فى قلب العالم المعاصر يجعلنا مؤثرين فى مصائره ، لكننا فى الواقع نعيش عزلة ذهنية فكرية ثقافية حضارية من نوع مدمر ٠ فنحن لم نتصل بعد بالعالم المتحضر اتصالا يشعره بوجودنا، ويشعرنا باننا جزء منه ، واذا واجهنا الحقيقة المرة فسوف لا نجد لأنفسنا مكانا حتى الآن على خريطة الفكر الانسانى المتحضر ٠ انما نحن أشباح يعيشون على هامش الحضارة ٠ فنحن لم نقدم للعالم ما يدله على مساهمتنا فى التقدم الانسانى ، لأن الفكرة الانسانية نفسها بعيدة عن عقولنا ووجداننا ، اذ لا نفكر الا فى أنفسنا وفى حياتنا الصغيرة ، وما نحيط بها من عوائد بالية ومعتقدات قديمة وتقاليد عتيقة ٠ ان العالم المتحضر لا يهمه أن يعرف عنا شيئا الا بالقدر الذى يستطيع به أن يسخرنا لحسابه تسخيرا ماديا وكفى ٠ ويصر الحكيم على قوله :

« ان ما رأيته من اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالى العتيق هذا الاستنكار العنيف وتكالب الناس حتى شباب الجيل الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح القبيلة الجامدة ·· كل هذا ادهشنى واحزننى ودلنى على أن عقليتنا فى ذاتها لم تزل تميل الى العزلة الفكرية والحضارية والثقافية ، وأن جراثيم « البربرية » ما زالت متاصلة فى نفوسنا ، وان أمامنا وقتا طويلا قبل أن نهضم الأفكار الانسانية فى ذاتها ، ونصبح أهلا للانضمام الى موكب الأمم المتحضرة » ·

وعلى مدى نصف قرن وقع الحكيم ضحية سوء فهم من عدد لايستهان به من المفكرين والمثقفين العرب · فاذا كان قد أطال الكلام عن روح مصر وتراث مصر ، فما ذلك عن رغبة فى حبس تفكيرنا فى حدود اقليمية ضيقة ، انما كان يرمى الى غاية أبعد وارحب · كانت غايته دعم الثقافة العربية ككل . والعمل على انهاضها ، لتقف الى جانب الحضارة الغربية قوية غنية · وهذا الغنى لن يأتى الا اذا عطف كل قطر من الأقطار العربية فى أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها ، حتى اذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللالىء القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك ، وقدم الى الانسانية باسم « الثقافة العربية » أو « الفكر العربى » ·

لكن الحكيم يأسف لان بعض المفكرين العرب أنفسهم يشكون ويشككون فى حقيقة وجود « الثقافة العربية » · أولئك هم الذين بهرتهم انتصارات الثقافة الغربية المسيطرة الآن على العالم . فأعمتهم أشعتها الساطعة ، وأقعدتهم وأسجدتهم يسبحون بمجدها ، ويفركون أعينهم التى لا ترى شيئا غير هذا النور الكثير ·· ان ذلك ـ فى نظر الحكيم ـ هو العمى ، والعقم ، والكسل ·

كذلك لا يقر الحكيم تلك الفئة الأخرى من العرب ، الذين يظنون أن التحمس للثقافة العربية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية يصعرون خدودهم ويصيحون بالفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب ! وذلك أيضا هو العمى ، والعقم ، والكسل !

ان احياء الثقافة العربية لا يكون الا بنهوض العرب أنفسهم الى العمل الجاد المثمر ، فيبدأون أولا بالجرى واللحاق بما وصلت اليه الثقافة الغربية التى أضافت اليوم كثيرا الى ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى · فثقافة الغرب ـ خصوصا فى العصر الحديث ـ لا تهمل شيئا أنتجه العقل البشرى فى أى عصر من العصور ، وفى أى بقعة من البقاع . فالأوروبيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية شوبنهور ونيتشه ،

وحتى من الثقافة العربية والشعر العربي جوته وهايني . ولكنهم طبعوه بطابع فنهم وتفكيرهم ، ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن ان يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم ، فالأوروبيون دائما يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه في قالبهم .

ان دول الغرب على ثروتها وغناها الثقافي اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى . ان الفكر البشرى ليس له حدود « دولية » ، انما هنالك المزاج الخاص ، والطبيعة الخاصة التى تكيف تلك الثروة المباحة التى تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة . ان الحضارة الغربية فى الحقيقة لم تخلق بيديها خلقا كل هذه القوالب المعروفة فى آدابها وفنونها ، ولا كل النظريات الشائعة فى فلسفتها وعلمها ، فان كثيرا من هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق فى حالته الأولية ، لكن الأوروبيين زادوا عليه ، وأضافوا اليه ، وأخرجوه ممهورا بامضائهم . ومطليا بشخصيتهم . وهذا فى الواقع عمل كل حضارة من الحضارات . ولا نستثنى من ذلك الحضارة الاسلامية نفسها فىعصورها الزاهرة ، فما هى الا جماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة . صبها الاسلام فى قالبه ، وجعل منها لونا خاصا .

ولذلك فان الثقافة العربية لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن الثقافة العالمية ، ولا أن تغمض عينها عن هذه الثروة الهائلة . ومن هنا يطالب الحكيم العرب بان يقوموا بهذه المهمة الحضارية التى تصهر الأصالة مع المعاصرة فى بوتقة لا تعرف الانفصام . فليس ثمة تعارض بينهما بل هما يشكلان وجهى عملة الحضارة المعاصرة . يقول الحكيم : « فلنمد أيدينا اذن غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد ، فنأخذ كل شيء ، ونهضم كل شيء . ثم نعرج على روحنا القديم ، كل فى بلده . فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ، اذ لا ريب أن كل بلد من البلاد العربية فيه مناجم للفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكرى وفهمه الذهنى ، لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز العرب مثل العرب ، اذ لابد أن تكون محاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعة ، لا تكشفها غير طبيعة العربى وغرائزه ، وتجاريب حكمته المتراكمة فى أعماق نفسه ، على مدى آلاف السنين ! » .

ولا يزال الحكيم يأمل أن يتم لنا ذلك لنستطيع ان نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص . عندئذ سيكون فى مقدورنا أن نضيف الى الثقافة العالمية ثقافة لا تختلف عنها فى مبلغ ثروتها ومادتها ، وانما تتميز عنها فقط فى الطابع والطبيعة والروح . انها ثقافة حية نامية

جميلة ، عليها خاتم شخصيتنا العربية ، يراها العالم ، فكأنه يرى شيئا جديدا مستقلا ، قد أدينا رسالتنا الى هذا العالم ، وأمكننا أن نساير الفكر الانسانى ، وان نسهم بفكرنا وجهدنا فى بنائه العظيم ، وأن نظفر أخيرا باحترام متقفى العالم المعاصر ومفكريه ·

والحكيم ليس عنده أدنى خوف على الشخصية العربية من ان نطمس فى أثناء تعاملها مع الحضارة العالمية المعاصرة · فان ما يسميه « بالروح الشرقى » أو « الروح العربى » يتجلى بطريقة متبلورة فى طابعنا الفكرى ، وطريقه نظرنا الى الأشياء ، وتقاليدنا واحساسنا بالجمال الذهنى ، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء ، كل ذلك ينم عن عقلية خاصة ، وعبقرية مستقلة ، لا ينبغى أن تتخلل وتتزايل تحت طغيان موجة أقوى · فاذا نادينا بالوحدة العربية فانما ذلك لندع كتلة « الروح العربى » أو « الشرقى » فى مواجهة كتلة « الروح الغربى » ·

والروح لا يعنى سوى الحياة · ولذلك يرفض الحكيم الأسئلة التى توجه اليه حول احياء ثقافتنا العربية القديمة ! لأن الثقافات والحضارات لا تموت ، ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى ! فالثقافة العربية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الغربية القائمة ضمن ما امتصته وهضمته . فمادة الثقافة لا تنعدم . ولكنها تحول الى ثقافة جديدة ، وتدخل فى تركيب حضارة جديدة ، فالقول باحياء الثقافة العربية القديمة ، قول ليس له معنى فى واقع الأمر · فالحضارات انما تقوم على الحضارات ، وهيكل الحضارة القائمة انما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة : فلو فرضنا المستحيل ، وأردنا أن نرجع الى ثقافة قديمة بعينها وحالتها الغابرة فلن نجد فيها غير شىء أولى الى جانب ثقافة العصر الحاضر !

أما اذا كان المقصود من كلمة الاحياء ، لا احياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها ، وانما احياء المجد الغابر والمكانة والازدهار الذى لفت الأنظار الى الثقافة العربية القديمة فى عصرها فهذا شىء آخر ، وهذا أمر ممكن لو عملنا واجتهدنا فى سبيل احداث نهضة ثقافية ، يشعر بهزتها العالم المتحضر ! ووسائلنا فى هذا واضحة ومحددة وهى هضم كل ثقافة موجودة قديمة أو حديثة واخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا العربية ·

ولعل الوسيلة الفعالة لتوليد ثقافتنا العربية الجديدة ، تتمثل فى الطريق الذى اتبعته كل حضارة من الحضارات المعروفة ويعنى به الحكيم : القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق ، ولا يغنى التلخيص أو الاشارة أو

العرض عن الترجمة ، فنحن بازاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن عصر النهضة الذى تلا القرون الوسطى فى أوروبا قام على حركة ترجمة المؤلفات الاغريقية واستيعاب انجازات الحضارة العربية فى أوجها ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة فى عصورها الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الشرقية الحديثة ، الهندية والفارسية والاغريقية ، كذلك نهضة الثقافة العربية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة أمهات المؤلفات العالمية المعتمدة فى الفروع المختلفة . وهذه المؤلفات من السهل معرفتها ، فما من أمة متحضرة ، وما من لغة حية الا اتحدت فى كتب خالدة معينة بالذات ، لابد أن تعرف فى لغتها وفى كل لغة حية .

ففى فرع الأدب مثلا لا نجد اليوم لغة حية ولا أمة متحضرة ، لم تنقل الى لغتها كل أعمال هوميروس وسوفوكليس وشكسبير وموليير وجوته وغيرهم . وفى الفلسفة والعلوم والفنون أسـماء كهذه يضيق بتوفيق الحكيم المقام عن تعدادها فى هذا اللقاء الفكرى السريع . وهى على كل حال معروفة لكل مثقف . ولكن المهم هو اجماع الرأى فى العالم العربى المعاصر على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة . ويرى الحكيم أننا مهما أنفقنا من أموال فى هـذا السبيل ، فان ربحنا سيكون عظيما ، لأننـا سنرسى عليه كل أساس نهضتنا الفكرية التى قد يسجلها التاريخ كنهضة للفكر العربى ، لا تقل فى أهميتها عن نهضة الفكر الغربى التى جاءت فى أعقاب القرون الوسطى .

والحضارة لا تعد عالمية الا اذا بسطت جناحيها على العالم المحيط بها ، فتؤثر فى مجرى الأفكار فى كل شعب وقارة ، وتغير من طابع الأساليب المختلفة ، وتطبعها بروحها الخاص الذى جاءت به ، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والاغريقية الرومانية والمسيحية والاسلامية...الخ . ومن الملاحظ أن كل هذه الحضارات اعتمدت أساسا على عبقرية العقل الانسـانى . ولذلك كان العقل العربى بكل علميته وموضـوعيته رائدا للحضارة العربية فى أوجها . ويوم تخلى العرب عن العقل مرشدا ومنهجا لهم ، كان هذا ايذانا بغروب شمس الحضارة العربية .

واليوم الحضـارة العالمية هى الحضـارة الغربية ، ولعلها أشـد الحضارات نفوذا فى الشعوب على اختلاف ألوانها . ولعل هذا يرجع الى تسخيرها العلم والطبيعة فى تيسير سبل الاتصال مما لم يعهده العـالم من قبل ، فالسفن البخـارية والقطارات السريعة والطـائرات والراديو والسينما والتليفزيون والأقمار الصناعية ـ كلها وسائل عجيبة فعالة فى سرعة نشر الحضارة الغربية وبث أفكارها . فكيف لأمة من الأمم أن تعيش بمعزل عنها أو أن تتجاهلها .

لذلك كان من الطبيعي للأمة العربية ـ وخاصة أن معظم بلادها تطل على البحر المتوسط ـ أن تتأثر ـ الى حد كبير بالحضارة التي تهيمن اليوم ، لا على البحر المتوسط وحده ، بل على بحار الأرض · فالقول بأن الفكر العربي الحديث تأثر بالفكر الأوروبي هو البديهة بعينها وينبغي لهذا الفكر أن يستوعب الحضارة الموجودة الحية ، اذا أراد أن يحيا ، وان ينتشر ، وان يفهم ويعترف به في الأرض عامة ·

من هذا المنطلق يقول الحكيم لأدباء العربية المعاصرين : لا تخشوا مطلقا من انصهار أفكاركم في بوتقة الأشكال الأوروبية ، على شرط أن يكون طابع هذه الأفكار وروحها عربيا خالصا ، وأن يحس القارىء الاوروبي ازاء أعمالكم أنه أمام نفس غير نفسه ، وشخصية غير شخصيته، وان كان الشكل ليس غريبا عليه ، لأن الشكل ليس ملكا لأحد : انه ملك الحضارة ، والحضارة وليدة الحضارات التي سبقتها ·

واذا انتقلنا الى مؤلفات توفيق الحكيم التي تبلور مفهومه للفكر العربي بصفة خاصة ، فسنجد أن كتابه « التعادلية » ١٩٥٥ يطمح الى تقديم ما يمكن وصفه بأنه منهجه في الحياة والفكر والفن · وهو يكره الفكر الذي يبنى على مذهب ، ولكن لا بأس عنده أن يبنى المذهب على الفكر · فالمذهب نتيجة للفكر وليس العكس · ذلك أن الفكر هو الكاشف الحر عن أسرار الكون · وهذه الحرية في الاحساس والشعور والبحث والتفكير كانت وسيلته الأولى في تصور وضع الانسان في الكون ثم وضعه في المجتمع · وهو التصور الذي برز سواء في أعماله الأدبية العديدة أو كتاباته الفلسفية والنقدية ·

وبتطبيق ما جاء في تعادلية توفيق الحكيم على قضايا العقل العربي سندرك أن مشكلته الأساسية تتمثل في عدم التعادل أو التوازن بين الفكر والشعور · واذا كان هذا التعادل ضروريا لحياة الفرد فانه ضروري لحياة الشعب بنفس القدر · فالانسان من حيث هو كائن مادي يعيش بالتنفس الذي يعتبر حركة تعادل بين الشهيق والزفير ، فاذا اختل هذا التعادل ، بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغي ، طاغيا على الزفير ، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغي جائرا على الشهيق ، وقفت حياة الانسان ·

فاذا تركنا التركيب المادي الى التركيب الروحي ، وجدنا القانون نفسه · فالتركيب الروحي للانسان له هو أيضا شهيقه وزفيره فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور · أو بعبارة أخرى : العقل والقلب · والحياة العقلية السليمة هي أيضا تعادل بين الفكر والشعور · وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو الا اختلال في هذا التعادل اما بتضخم الشعور تضخما يلغي أو يعطل مهمة الفكر ، فيرتد الانسان طفلا

في أعوامه الأولى ، أو أن يطغى الفكر ويكبت الشعور ، فترتبك أداة الادراك في الانسان ·

فالانسان بطبيعته كائن متعادل ماديا وروحيا · وهو ليس وحده الذى ينطبق عليه هذا التعريف · كل الكائنات التى تحملها هذه الأرض المتعادلة ، تتعادل هى أيضا كأمها فى تركيبها تعادلا هو سر حياتها · واذا كانت الشعوب تعتبر فى حركتها كائنات حية · فان المبدأ نفسه ينطبق عليها · لكن التعادل الذى كان قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب : أى بين نشاط الفكر ونشاط الايمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى · فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله ووسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقى محصورا فى أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الانسانى ، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى ·

فى مواجهة هذه الانتصارات العقلية والعلمية وقف الفكر العربى حائرا · فهو فكر يميل بطبيعته الى الايمان والوجدان · ولذلك لم يجد جسورا جاهزة لاستيعاب الحضارة الغربية بكل ماديتها الهائلة الساحقة · هذا فى الوقت الذى انتقلت فيه اليه عدوى أمراض الحضارة الغربية مثل الاحساس العميق بالقلق والتشتت والضياع فى حين أن الانسان العربى لم ينعم أساسا بثمار هذه الحضارة · وخاصة أن المفكرين العرب فى اجتهاداتهم الفكرية والعقائدية أصروا على مزج الفكر بالشعور فى وقت يحتاج فيه العرب الى الاستفادة من كل منهما فى مجاله الخاص · ولذلك يقول الحكيم :

« ان العقل لا يصنع غير الصور التى تتمشى مع منطقه الذى ينهض على فروض ومشاهدات وملاحظات مما يقع فى نطاق اختباراته · فهو اذن لن يصنع للأرقى غير صورة لما يعرف ، مجسمة غاية التجسيم فى عرفه ونظره · وهذا لن ينتج غير صورة مشوهة تهبط بالفكرة · ولعل هذا سبب من أسباب الالحاد · فنحن نسأل العقل أن يصنع لنا صورة الله فيخفق ، فبدلا من أن نضحك ونهزأ بالعقل ، نضحك ونهزأ بفكرة : الله ! فلنؤمن اذن بالقلب وحده ·· تلك قوته · ولندع العقل يفكر فى مجاله وحده ·· تلك أيضا قوته · وهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الانسانية » ·

واذا كان الحكيم يعترف بالعقل والعلم وحرية الانسان ، فانه لايمكن أن ينكر القلب والايمان · انه لا يعيب على العقل أن يشك ، لأن وظيفة العقل هى الشك · أى الحركة ، فاذا انقطع عن الشك فى بحوثه

وقوانينه ، ووقف عن الحركة فى تقليب الحقائق والنتائج فقد شل عمله وانتهى أجله • أما القلب فوظيفته الايمان : أى الثبات • فلنترك للقلب اذن أمر تلك الحقيقة الثابتة المطلقة التى تستعصى على كل حل وتستبهم على كل تعليل •

والفكر الانساني الايجابي – فى نظر الحكيم – هو الذى يصنع من شعور الانسان بعجزه أمام مصيره حافزا الى الكفاح ، لا الى التخاذل • فقد كافح « أهل الكهف » ضد الزمن ، ولبث أحدهم متعلقا بالحياة ، يقارع الزمن بسيف بتار ، هو « القلب » الى آخر لحظة ، و « شهر زاد » جاهدت محاولة أن ترد الى الصواب زوجها الذى أراد أن ينبذ أرضه وآدميته ، وأن تعيد اليه ايمانه ببشريته ، و « سليمان » جاهد ضد اغراء القدرة التى كادت تخرس صوت الحكمة • وهكذا كان الانسان – فى مسرح الحكيم – يجاهد دائما ضد العوائق الخفية التى شعر بتأثيرها فى حريته وارادته ومصيره •

وفى مجال السياسة لابد أيضـا من توازن : أى تعادل بين قوة الحاكم ، وقوة المحكوم • حتى فى عهد السلطان المطلق ، فان قوة المحكوم كانت تجد لها منفذا وسبيلا من خلال رجال الدين أو رجال الفكر • فلما استطاع الشعب فى العصور الحديثة أن يحكم نفسه بنفسه ، انشطرت قوته نفسها الى قوى مختلفة فى صورة أحزاب تتوازن وتتعادل كى تحتفظ بوجودها الضرورى ، للتعبير عن ارادة من تمثلهم من طوائف الشعب ، فاذا تغلبت طائفة فى النهـاية ، وابتلعت كل ما عـداها من الطوائف والطبقات ، واتحدت فى قوة واحدة تشمل الدولة كلها ، فان هذه القوة أيضا لا تلبث أن تولد قوة أخرى خفية تعارضها وتجاهد فى الظهور • وقد تخفق وتهزم وتكبت وتخنق ، ولكنها لابد يوما أن توجد •

ويفرق الحكيم بين المفكر الرائد والسياسى المحترف وخاصـة أن الحكم الديمقراطى أو الشعبى قد يحاول أن يخفض صوت الفكر الحر قهرا وغصبا ، على أساس أن الأغلبية دائما على صواب فى حين يرى المفكر الحر أنها ليست معصومة من الخطأ ، والا أصبحت مالكة لنفس الحق الالهى للملوك قبل رسوخ الديمقراطيات • ولكن الحكم الشعبى يستطيع أن يلغى وجود المفكر الحر بأن يستدرجه استدراجا الى حظيرة السياسة العملية • ومتى دخل رجل الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده وتوجيهه وتفسيره ، وأصبح منضما الى نظام معين ، يسير فى اتجاهه ، ويعمل بتعليماته ، ويخضع لارشاداته • وبذلك يتجنب الحزب السياسى فكرا طليقا مناهضا لارادته ، ويكتسب جنديا مطيعا يأتمر بأوامره •

وهذا الاستدراج للفكر كى يقع فى حظيرة العمل ، يتم فى العصر

الحديث بواسطة شباك وفخاخ صنعت بمنتهى البراعة : شباك وفخاخ في صورة نظريات أدبية وفلسفية ، تؤدى كلها فى النهاية الى أن يلتزم الفكر بالعمل التزاما يضر بمقومات حياته ، أو يخضعه له اخضاعا يقضى على كيانه الذاتى · وبعض الواضعين لهـذه النظريات من رجال الفكر أنفسهم لم يقصدوا الاضرار بالفكر ، ولكنهم انجرفوا تحت تأثيرات مختلفة ، منها حنين بعضهم الى العمل حنينا أفقدهم الثقة فى قوة الفكر الذاتية ، خصوصا فى عصر بلغت فيه المادية أوجها ، وعصفت فيه الحروب بالقيم ، وزلزلت النظم ، وتغلغلت آثارها المدمرة فى نفوس الأفراد والجماعات ، وأصبح لكل شخص على الأرض مشكلة يريد لها حلا ، واسئلة ينتظر عنها جوابا · وأحس رجل الفكر أن مهمته قد ازدادت عبئا ، ومسئوليته قد ثقلت وزنا ، وخشى أن يكون القلم فى يده غير كاف ولا شاف ·

ويبدو أن هذه العلة التى يلقى عليها الحكيم أضواءه الكاشفة كانت السبب الأساسى فى الانتكاسات المتوالية التى أصيب بها الفكر القومى العربى كما تبلور فى نظرية القومية العربية التى آمن بها الجميع ولم تجد من يطبقها على المستوى العملى · فقد اشتغل معظم المنظرين لها بالسياسة العملية وبلغ بعضهم أعلى المناصب ، ولكن اغراءات السياسة وضغوطها كانت أقوى من فكرهم الحر المثالى بحيث اضطروا الى كثير من التنازلات التى أظهرت نظرية القومية العربية بأنها شىء قابل للمساومة والتلاعب به ، بدلا من تطويرها وتدعيمها حتى تساير روح العصر ·

هذا الايمان المزعزع بقوة الفكر ، قد دفع بعضهم الى الانخراط فى سلك حزب من الأحزاب ، فانقلب بذلك الى رجل عمل ، وانقلب فكره دعاية لحزبه · كما دفع بعضهم الى الحيرة بين الأحزاب المختلفة ، والنضال فى الميادين المتعددة ، يتقاذفه القلق وخيبة الأمل ، الى أن ينتهى به الأمر ، اما الى تاليف حزب خاص يحبس فيه فكره ، واما الى تأجير الفكر أو التبرع به للخدمة فى كافة ميادين السياسة والحكم · وبذلك تخلى رجل الفكر عن رسالته الحقيقية . تلك الرسالة التى تعتبر الفكر قوة مستقلة معادلة وموازنة ومراقبة لقوة العمل · ان واجب المفكر أن يحافظ على كيان الفكر وأن يصون وجوده الذاتى حرا مستقلا ، وأن يصمد به فى وجه كل عدوان ، لأنه الضمان الوحيد على هذه الأرض الآن تجاه انحراف قوة العمل ، الانحراف الطاغى المدمر ·

وتبدو مثالية الحكيم فى ايمانه بأن التزام الفنان أو المفكر شىء ينبع حرا من أعماق نفسه · فاذا لم ينبع الالتزام حرا من قلبه وبيئته وعقيدته فلا تستطيع قوة فى الوجود أن تلزمه · فالالتزام الفكرى لا يتعارض مع

الحرية · وهو ما تجلى فى أعمال الحكيم الادبية · فمع مناداته بالحرية ، نجد أن أدبه ينتمى الى ما يمكن تسميته بالأدب الملتزم · لم يحاول طوال حيــاته أن ينشىء لنفســه أسلوبا جميلا يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين ، وانما اتخذ من الأسلوب خادما لأهداف أخرى غير مجرد الامتاع · فمثلا لا تصور « عودة الروح » قصة حياة ، ولكنها تفسرها ، وتفسير حياة شعب معناه اتخاذ رأى معين تجاه هذا الشعب ، كما تجلى فى فكرة الرواسب القديمة التى تراكمت على مدى الحضارات المختلفة فى أعماق الشعب المصرى ، وكونت منه قدرة خفية تسعفه فى أزماته وترد اليه روحه كلما استهدف لخطر التلاشى والانهيار ·

وارادة الانسان ــ عند الحكيم ــ حرة ولكن فى حدود خاصة · وهــذه الحدود هى قوانين ، وليست ارادات طاغيــة · هى نواميس ، وليست مصادفات طارئة · فالانسان عاجز حقا أمام مصيره فى النهاية · هذا المصير الذى تدفع اليه قوانين ونواميس يحاول دائما أن يتخطاها أو يحطمها · فالمأساة المفرقة بين الحبيبين فى « أهل الكهف » هى قوة طبيعية ، هى قوة الزمن : أى المجتمع الجديد · فبريسكا أيقنت أن من المستحيل أن يقبــل مجتمعها فكرة الجمع بينها وبين رجل عاش منــذ ثلثمائة عام · كذلك ظهرت قوة المجتمع هذه فى مسرحية الحكيم « الملك أوديب » فهو عندما قيل له انه متزوج بأمه لم يتصور ذلك . لأنه لم يرها الا امرأة فى تمام نضجها فأراد أن يصمد كما أراد مشلينيا أن يصمد ، وأن يتحدى وأن يبقى على أسرته ، ولكن جوكاستا ــ شأنها شأن بريسكا ــ لم تستطع تحمل هذا الخاطر · ان قوانين المجتمع المتأصلة فى أعمــاق كيانها قد حكمت عليها بالفناء ، فشنقت نفسها · كذلك حاول شهريار تحدى النواميس بمحاولة تحطيم بشريته ، وحاول سليمان تحدى قانون الحب واقتحام قلب بلقيس ، وحاول بيجاليون تحــدى الآلهة وتحطيم التمثال الذى أفسدوا فنه بما نفخوه هم فيه من روحهم · جميع هؤلاء الأبطال لم يستسلموا لمصيرهم الا بعد التحدى والنضال والكفاح · ولقد أرغموا ارغاما على التسليم فى آخر الأمر ، لأن القوى المسيطرة ليست من صنع البشر ، ولكن يبقى الكفاح ــ ولو ضد المستحيل ــ وهو وحده واجب البشرية ·

ان التفسير هو مناط المسئولية ، لأنه هو الرأى ، وهو الموقف · وما دام هناك رأى ، هناك التزام به ، ومسئولية عنه · والمسئولية لا تنبع الا من الحرية ، لأن المقيد غير مسئول · من هنا جاء اصرار الحكيم على احتفاظ سلطة الفكر بحريتها واستقلالها تجاه سلطة العمل · ومن الواضح أن فكر الحكيم كان متسقا مع فنه · فقد طبق هذا المبدأ على نفسه تطبيقا

صارما الى حد كبير . فابتعد عن محيط السياسة العملية ، ورفض الانضمام الى الأحزاب السياسية ، واعتبر المفكر كالراهب ، مسرحه هو حريته . وتحدث عن البرج العاجي والاعتصام به . ولم يقصد بذلك العزلة عن الحياة والانفصال عن المجتمع ، كما فهم البعض خطأ ، ولكنه قصد عزل رجل الفكر عن السياسة الحزبية ، حتى لا يستخدم آلة مسخرة فى أيدى رجالها ، فيفقد بذلك حرية النظر الحر الى الأشياء . فمسئولية المفكر الحر الحقيقية انما هى أمام نفسه وحدها لا أمام حزب من الأحزاب. ولا حاكم من الحكام .

ولم يهدف الحكيم اطلاقا الى عزلة الفكر عن أى نشاط سياسى أو اجتماعى . فالعزلة التى دعا اليها هى العزلة عن السياسيين لا عن السياسة ، وعن الأحزاب لا عن المجتمع . فالفكر فى كل ألوانه من فلسفة وفن وأدب يجب أن يعنى بكل ما يجرى فى مجتمعه وعصره من شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع . فلابد للمفكر أو الأديب أو المثقف أن يعيش عصره كله ومجتمعه كله بما فيهما من تيارات سياسية وشئون اقتصادية واتجاهات اجتماعية .

لكن كان من رأى الحكيم دائما أن رجال الفكر والفن والأدب ليسوا مطالبين بالاصلاح المباشر . ان مهمتهم الحقيقية هى أن يعدوا ويهيئوا رجال العمل والدولة والحكم للقيام بالاصلاح . أو كما قال بالنص : « ان الأديب أو الفنان ليس مصلحا ، ولكنه مصلح المصلح » .

ويرى الحكيم الحل الأمثل لأزمة الفكر العربى المعاصر فى أن يعيش العقل والايمان جنبا الى جنب فى كيان الانسان العربى ، دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يؤثر فى أسلوبه وهدفه . ان هذا الانسان يستطيع أن يحيا حياته الكاملة بأشعة العقل ومنطقه ، وحرارة القلب وايمانه .

ولابد أن هذا التوازن أو التعادل سيساعد المفكر العربى على التجاوب مع غيره من المفكرين المعاصرين . اذ أننا نجد الآن ظاهرة غريبة فى العالم العربى وهى أن المفكر فى بلد عربى ما يقرأ كتابا أو يسعى لمعرفة رأى مفكر فى بلد آخر ، لا يستفيد بالكتاب أو يطلع على الرأى وانما ليطبق عليه رأيه هو وما يعتنقه هو من نظريات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر بصفة عامة . فهو يطالع كتاب نظيره ليعرف هل هو من رأيه ؟ انه لا يريد أن يعرف عنه شيئا ولكنه يطالبه بشىء ، هو أن يكون قد كتب كتابه أو أعلن رأيا مطابقا لما يريده هو من موضوعات لم تخطر بباله أن يتناولها .

ولعل هذا هو السبب فى الجمود الفكرى الذى يجتاح الثقافة

العربية الآن · وهي ثقافة تحملت الكثير سواء أكان جمودا فكريا أو ضربات سياسية متتالية أحالت الأمة العربية الى أشلاء متناثرة مثلما حدث في أعقاب معاهدة السلام بين مصر واسرائيل · وبرغم كل عوامل الاحباط والتدهور التي أحاطت بالثقافة العربية فان الحكيم يبدى تفاؤله بلا حدود ويؤكد أن العرب متحدون دائما من الناحية الثقافية ، لان العقل العربي يكاد يكون واحدا من الخليج الى المحيط · واذا كانت الاختلافات والمنازعات السياسية متجددة باستمرار للأسف ، فان الجوهر العربي واحد لأن اللغة واحدة ، والتاريخ واحد . والمصير واحد · ولعل تفاؤل الحكيم مصدره ايمانه بأن السياسة بطبيعتها متغيرة بتغير الزمان والمكان ، لكن الذى لا يتغير أبدا هو الأساس المشترك لثقافتنا ، وتقاليدنا ، وأصولنا ، وحضارتنا ·

وعلى سؤال عن موقفه الآن من العروبة وخاصة في الفترة الاخيرة بعد كل هذه المتغيرات المتلاحقة أجاب الحكيم :

« هل أنا غيرت رأيي في العروبة ؟ أو أن العروبة هي التي تغير موقفها ؟ أما فيما يختص بي فأنا لم أغير شيئا · فشعوري السابق هو نفس الشعور اليوم وغدا · وأما الثقافة العربية في حاضرها ومستقبلها فهو رأيي دائما بالأمس واليوم وغدا · فمشاعر التعاطف في النوائب لم تزل في القلوب ، والآمال في نهضة الحضارة العربية لم تزل في النفوس· ولكن الذى تغير هي أوضاع الدول العربية · فبعد أن كانت متقاربة في أحوالها تقريبا من حيث خضوعها كلها لذل الاحتلال وضآلة الاقتصاد الى حد أن كنا في شبابنا نسمع في كل موطن عربي عبارة « كلنا في الهم شرق » ، أصبحت الدول العربية اليوم مقسمة الى دول بعضها مشغول بمضاعفه ثرائه وبعضها مهموم بعلاج افلاسه ، وبعضها مثخن بجروح حروبه · وبعضها يرتع معافى في أمانة ، وبعضها يفكر في مؤتمرات سلامه ، وبعضها يفكر في مؤتمرات بتروله ·

وهكذا على الرغم من وجود مشاعر العطف والتعاطف فان الاهتمامات والمشاغل لم تعد متجانسة · كما أن الميول والعقائد السياسية لم تعد في اتجاه واحد · لذلك كله كان من الواجب على المفكرين العرب أن ينظروا بعمق في هذا الوضع الجديد للأمة العربية » ·

ويعود الحكيم الى ترديد نفس الأفكار بل ونفس الالفاظ التي استخدمها قبل نصف قرن عندما تكلم عن الانفصال بين الأقوال والأعمال في الفكر العربي فيتساءل : لماذا نردد دائما عبارات الوحدة العربية والتضامن العربي ، ولا نفعل شيئا ايجابيا في هذا السبيل ؟!

هذه هي مأساة العالم العربي . لدرجة أن الانفصال أصبح ثلاثيا : أى أننا نفكر في شيء ونقول شيئا آخر ونفعل شيئا ثالثا !! تلك هي القضية الملموسة التى لابد للمفكرين العرب من مواجهتها بشجاعة بدلا من الاجتماعات التى تعقد وتنفض وتبقى الانقسامات على حالها بل وتتزايد . في هذا فليفكر المفكرون وليتكلم المتكلمون وليبحث الباحثون دافعين الساسة وغيرهم ممن بيدهم الأمور الى انقاذ الأمة العربية من الهاوية التى فى انتظارها لو سارت الأمور على ما هى عليه .

● د . حسين فوزى

● د · حسين فوزى

الدكتور حسين فوزى من المفكرين الذين انصهر فى بوتقتهم الثقافية والفكرية معظم فروع العلم والفن والأدب · وبرغم أنه تعدى الثمانين من عمره ـ أطال الله فى حياته ـ فان روحه الوثابة الثورية المتجددة فى الفكر تفوق كثيرين من شباب المفكرين سنا · وطالما دخل معارك فكرية وقومية قد نتفق معه أو نختلف فيها ـ مثل ايمانه بحياد مصر كسبيل الى اعادة بنائها ـ لكن الذى لا جدال حوله أن صدقه الفكرى والفنى سواء مع نفسه أو مع الآخرين جعل وجوده فى حياتنا بمثابة منارة من منارات الفكر العربى المتجدد ، ولذلك فان فضله على حركة التنوير العربى المعاصر لا يمكن انكاره حتى من أشد المعارضين لأفكاره القومية سواء فى مصر أو فى العالم العربى ·

ويعد اللقاء الفكرى مع الدكتور حسين فوزى بمثابة سياحة فكرية ممتعة عميقة فى عالم حضارى فسيح الأرجاء · وخاصة أنه يضع يده على الثغرات والسلبيات التى تعتور حياتنا الثقافية ، بأسلوب محدد ومباشر ومتبلور · فهو يرى أن قضايانا الثقافية لا تحتمل أسلوب الدبلوماسية الناعمة أو الدوران حول المشكلات ، لأن هذا من شأنه أن يجعلها تتفاقم وتتراكم · ولذلك فهو يواجه أمراض ثقافتنا وفكرنا بمبضع الجراح دون هوادة · يقول :

« اذا كان التخطيط من لزوميات العصر الحديث فى كثير من الشئون ، فان الحرية السليمة هى التى تنفتح فيها العقول والمشاعر ، فترفض السلفية العمياء ، وتتخلى عن « كراكيب » الفكر · والأهم بعد

الايمان الصادق بالحريات أن ننقب عن المسئوليات التى تعوق التقدم والتطور · وهى جلية لأعيننا فى ثلاثة مواضع :

اولا : فى الاعلام بكافة أنواعه ، ومن مظاهره ما يمكن أن يوصف « بالمحاسن والأضـداد » · فلا شك أن محطاتنا وقنواتنا لا تخلو من الضرورى والمفيد ، وقد ترقى الى ثقافة تعلو وتهبط تبعا لخصائص كل محطة وقناة · لكن المؤسف حقا هو أن النقد الردىء يطرد النقد الجيد ·

ثانيا : التعليم بكل أنواعه ـ وليس ثمـة تربية ، فهذه تؤصلها الأسرة ـ صفته من صفة الاعلام : « المحاسن والأضداد » · فقد تحولت المدارس بازدحامها الخانق الى مباءات القبح ، وسوء السلوك ، مع بعض قشور المعرفة التى تحفظ لتنسى وشيكا · والجامعات تحاول جادة صادقة اصلاح ما فسد ، فاذا التسيب ، والترخص ، ومجرد ابتلاع مذكرات مكتوبة تباع بالفلوس ، جعل منها مدارس تعليم ، لا مجامع فكر أسمى ·

ثالثا : الجهاز الحكومى · وهنا ظاهرة تدفع حقا الى اليأس من الاصلاح · فلا يكفى هنا أن يبذل الوزراء جهودا تفوق طاقة البشر ، فقد ضاعت المسئوليات بين زحمة من وكلاء الوزارات تفكك عرى تقسيم العمل · كل ذلك ضياع لجهود الكبار من موظفين لا يعرفون لساعات العمل قداسة ، ولا ينجزون شيئا فى ميعاده أبدا · وبهذا تدور عجلة الوزير بسرعة آلاف اللفات فى الساعة أو الدقيقة ، ثم توزع هذه العجلة بين فئات الوكلاء ومديرى العموم ، فتهبط الى أقل من مائة لفة · فاذا بلغت الآلاف المؤلفة من الموظفين ، انتهت الى ما يكاد يوصف بالتوقف عن الانجاز » ·

والقضية فى رأى حسين فوزى ليست العلم والفن والأدب ، فهذه تتبع فرديات ، فيها الصالح والنابغة والعبقرى ، كما فيها الطالح والخائب والأفاق · وذلك حادث فى كل سكان الدنيا ، ولكن بنسب تقل كثيرا كلما ارتفع شأن الدولة فى المجال الحضارى · لكن القضية الحقيقية تكمن فى فقدان الثقة فى النفس مهما حاولنا الادعاء بغير ذلك ، والشك فى كل شىء · وعلى سبيل المثال : هل المجموع العربى قائم حقا ، أو غير قائم ، متماسك أم مفكك ؟ كيف نقضى فى أمره ، ايمانا أو كفرا به ؟

كما يهاجم حسين فوزى الأكاذيب التى حاصرتنا زمانا طويلا ، فلم نعد ـ فى بعض المراحل ـ نتبين حقيقة واحدة فى حياتنا ، وآثارها ما فتئت تتخفى يمنة ويسرة · والتخطيط لا يصحح الأخلاق والسلوك · فهذه صناعة الحرية · وأهم ما فى الحرية من الناحية العملية أنها تحض على المبادرة والمبادأة · وآخر العجائب أن بين ظهرانينا كما غير موصود من

الناس يشككون في الحريات لأن واقعهم فى أنهم لا يؤمنون بالحرية . وأهم ما فى الحرية هى حرية الفكر فى جماعة ، تحدها حرية الفكر فى جماعة أخرى . وهنا فقط تصدق المعارضة بالنقاش والجدل . أما الفكر الحر فهو شأن فردى نفسانى لا قيد عليه البتة ، وهو الأصل الثابت فى عمل العالم والفنان والأديب والفيلسوف . ومن أسف أن الفكر الحر يظل حبيسا فى النفس حتى يتلاشى بمضى أعوام الكبت ، والاعتداء على كرامة الانسان .

من هذه الخلفية العملية للثقافة ننتقل الى الجانب النظرى لها مع الدكتور حسين فوزى الذى يرى أن تعريف الثقافة ليس بالامر السهل ، فهى قطعا ليست العلم ولا المعرفة . فالعالم العلامة ،والحبر الفهامة ، والآسى النطاسى ، والجراح الصناع ، والملحن المطرب ، وصانع الاحذية ، أو الأثاث يمثل كل التخصص والاجادة فى عمله والتبحر فى علمه ، دون أن يكون أى منهم مثقفا لمجرد خبرته واتقانه لعلم أو حرفة أو فن . وقد عرف ادوار هريو ، السياسى الفرنسى والمؤرخ والأديب المشهور – وكان من أقطاب الثقافة فى بلاد الثقافة الواسعة – أن « الثقافة هى ما ينبغى للانسان بعد أن يتعلم كل شىء ، أن ينسى كل شىء » .

ويضحك الدكتور حسين فوزى قائلا بأن هذا ليس تعريفا ، بل نكتة قام بترجمتها . ان أضعف الناس ذاكرة ، هم وحدهم المثقفون ! لكننا اذا تعمقنا المعنى الذى قصد اليه هريو ، فان الثقافة ليست التبحر فى العلم ، ولا التخصص المهنى أو الفنى ، والا كان الأمريكان والروس أعظم الشعوب ثقافة ، وهذا بعيد عن الواقع .

وليست الثقافة نوعا من « الاسنوبزمية » أو الحذلقة الفارغة ، يجمع فيها الانسان من كل نبع قطرة ، ويتشدق هنا وهناك بكلمات سطحية عن الموسيقى والتصوير والتاريخ والعلم والأدب . انما الثقافة هى الاحاطة الواسعة بمعنى الانسان ، وعلاقته بالوجود فى ماضيه وحاضره ومستقبله . وتتضمن هذه الاحاطة معنى التجربة الأساسية على مدى العصور ، فلا تقتصر المعرفة على الكتب ، أو الاستماع الى الموسيقى الرفيعة ، أو ارتياد معارض الفن والعلم ، بل أن يصاحبها احساس بالحياة نفسها ، وادراك واسع عميق لمعناها .

ومن الواضح أن هذا التعريف للثقافة لم ينقله الدكتور حسين فوزى عن أحد ، وان كان من الطبيعى أن يتأثر بمفاهيم الثقافة على مر العصور المتتابعة . فالثقافة تتطلب قسطا هاما من الوعى التاريخى ، أى وعى ماضى الانسانية ، والوعى الاجتماعى ، أى وعى حاضر الانسان . فرجل

الثقافة لا يسكن برجا عاجيا ، ليعيش فى خياله وتأملاته ، وبين كتبه ومجموعات صوره ومسجلاته الموسيقية ، وانما يعتمد ادراكه على معاركة الحياة ، والاندماج فى مجتمعه ، والاحساس به • ولكى يفهم مجتمعه فهما شاملا ، يجب أن توسع الرحلات آفاقه ، لا فى ناحية الفن والمعارض والمتاحف والآثار فحسب ، بل بالاتصال بالشعوب الأخرى ، ومحاولة فهمها ودرجات تطورها • أى أن الثقافة هى التجربة الانسانية بأعمق معانيها ، تحصل بالقراءة والاستماع والرؤية والرحلات والاشتراك فى معارك الحرب والسلام ، ان لم يكن اشتراكا فعليا دائما ، فلا أقل من أن يكون اشتراكا بالحس والفكر •

كذلك فليس من الضرورى أن تكون عالما متخصصا ، ولكنك اذ تدرك معنى العلم فى العصر الحديث ، وأثره فى تطور البشرية ، وعندما تتأمل حال العلم فى المائة أو الألف سنة القادمة ، فانك تعيش تجربة العلم ، وسوف تستخرج من التجربة ، وتأمل التجربة ما يغنى ثقافتك من الفكر والرؤية الشاملة • أما المعرفة بمعنى مجرد الاحاطه بعلم أو فن أو أدب ، فهى غير التخصص فى مهنة أيا كانت • وهى تشبه الثقافة سطحيا فى شىء واحد ، وهو أنهما غير التخصص • لكن الثقافة روح وجوهر وسلوك أكثر منها مجرد احاطة ، انها جماع شتى المعارف من شئون الانسان ودنياه وتاريخه وبيئته • والانسان هنا لا يقف عند الفرد ، انما يمتد الى المجتمع والأمم والسياسة ، والى الحيوان ضاريا أو أنيسا ، والنبات طبيعيا أو استزراعا ، والأحياء فى علاقة المخلوق بالخالق الى آخر ما تمتد اليه المعارف • ثم تأتى مرحلة الهضم والاستيعاب وافراز رؤية جديدة للمجتمع والعصر والكون • وبذلك نستطيع القول بأن المعرفة بداية للثقافة ، لكنها ليست الثقافة • فليس كل من يعرف بمثقف ، لأن الثقافة مرحلة تالية للمعرفة ، وتعتمد على الفرد اعتمادا كليا ، وخاصة الفرد الذى لا يقنع بحشو عقله بالمعلومات والمعارف دون اعادة تصنيفها وصياغتها واستنتاج أفكار وعلاقات جديدة بينها يمكن أن تؤثر بالتالى فى فكر جيله وسلوكه •

ويرفض الدكتور حسين فوزى المصطلح القائل بديمقراطية الثقافة لأن قائلها ربما عنى « الديمقراطية والثقافة » • فالثقافة لا تنزل عن مستواها • أما هدفها فى الديمقراطية فهو رفع مستوى الجماهير فى اتجاه مستوى النخبة بقدر استطاعة الشعب واستعداد أفراده وحكامه • لكن الثقافة يمكن أن ترتبط أيضا بالدكتاتورية والفاشية والشمولية والملكية المستبدة أو المستنيرة • والمعروف تاريخيا أن عصور الملكية المطلقة كانت مهادا لمجتمعات واسعة الثقافة وان كانت محدودة الانتشار

فى طبقة بعينها · لكن عندما تسود الديمقراطية الليبرالية فى أى مكان من العالم فان من أهم واجباتها نحو اسعاد البشر أن تصبح الثقافة حقا للجميع · لأن هذا النظام من الحكم يجعل الدولة جهازا مسئولا عن قيادة المجموع فى الطريق الحضارى وقوامه تعميم التعليم ونشر الثقافة بكل الوسائل فى جو تضيئه الحرية ، يعمل فيه الفنان والكاتب والعالم والفيلسوف ، ولا يعفى الحكم من تشجيعهم جميعا والنتيجة واحدة سواء جاء انشاء الجمعيات والأكاديميات ومجالات الفكر والفن والأدب ضمن أعمال الدولة أو من اجتهاد المثقفين ··

وحول كل ذلك يتخذ النشر سبيله الى اصدار الكتب والصحف والدوريات بأنواعها ، ويعمل المسرح والمؤلفون والمصورون والسينمائيون ومجموعات الغناء والأداء الأوركسترالى · وقد جاءت المخترعات بوسائل أسرع فاعلية وأيسر استيعابا اذا أحسن استخدامها لبلوغ الهدف ذاته · ومن أهمها الاذاعة المسموعة والمرئية والسينما وأنواع المسجلات من الاسطوانة الى الكاسيت · ومن الواضح أن العالم الحديث تقاربت فيه المسافات وشتى المبادلات المادية والمعارف فى الاقتصاد والتشريع والسياسة والعلوم والآداب والفنون · ولا خلاف على عالمية العلم وما تحقق بفضله من التكنولوجيا · أما فى حالة الفنون والآداب وما اليها فمنجزاتها فى الأغلب فردية بفضل البيئة والتراث وحركة التاريخ فى كل أمة · فتقوم ابتكاراتها على قاعدة أساسية من القومية ، وفى هذه الحالة يقف الأديب أو الفنان عند حدود قوميته ، ولكن ظروف الاتصالات العالمية بمختلف وسائلها المادية والروحية قد تحقق للمفكر أو الفنان بلوغ مجال أوسع فى التعبير فيتعدى حدود بلاده بقومية عمله وبحكم اطلاعه على الأوسع وانتقائه لأساليب جديدة درج عليها العالم المتحضر فى تطوره ·

ولا يمكن أن يتحدث الدكتور حسين فوزى الا ويذكر عصر النهضة فى أوروبا (الرينسانس) بصفته من أصول الحضارة الحديثة حين اكتشفت كلمة « الهيومانية » أو مذهب الانسانية بمعنى بلوغ الانسان تحقيق ذاته فى المعرفة الشاملة بشئون الانسان فكرا وفنا وعلما وسياسة ، وباكتشاف أصقاع جديدة من الدنيا وازدياد الوعى بالكون كله ·

ثم ينتقل حسين فوزى الى مصر ليؤكد أنها كانت تعيش عصرا حضاريا حديثا بدأت ملامحه تتضح فى أعقاب الحملة الفرنسية · والدليل على هذا الاشعاع الحضارى هو التطور الهائل التى تحقق فى تفكير الازهرى نبيه ، الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى أوفده الوالى محمد على بايعاز من الشيخ حسن العطار ليقوم اماما لأعضاء البعثة العلمية المصرية فى باريس وعاد الرجل العظيم من غربته الطويلة ليتولى امامة

حضارة معاصرة ، مكتسبا من تجربته العميقة لها فى فرنسا وصفها بأمانة ووعى فى أشهر كتبه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » . ولقد صاحبتنا هذه الحضارة من النصف الثانى للقرن الماضى حتى قبيل انتصاف القرن العشرين حتى وفاة الملك فؤاد ، وبدأت فى حكم وريثه تحركات متعددة تواجه بعضها بعضا يهمنا منها ظاهرة النفور من الحضارة الغربية الا فى مساوئها وخلاعتها . وكان هذا الصدام المصدر الأول لما نحن فيه من تخلف عن حضارة عصرنا وتخلف ثقافى لا عن الثقافة فى بلاد الحضارة فحسب بل تخلف عما كنا عليه من قبل .

واليوم فى بلاد العالم الثالث تميل الاتجاهات السياسية بصفة عامة الى الحجر على حرية الفنان أو الكاتب تحت ستار الالتزام بما يوصف بالثقافة الوطنية أو القومية ، والتباعد ما أمكن عن الثقافة بمعناها العالمى . والبلاد التى تتمتع بثورة بترولية هائلة ، تستخدم التكنولوجيا وماديات الحضارة الحديثة ، لكنها فى الوقت نفسه ترصد نشاطها الروحى على التراث القومى مما يصيبها بانفصام خطير فى شخصيتها الحضارية ، لأنها تستخدم مظاهر الحضارة المعاصرة دون أن تستوعب الفكر الذى أدى اليها . ولذلك يستشهد حسين فوزى بالكاتب الانجليزى الذى قال : مهما حرص البريطانى على تعمق الثقافة الفرنسية فان هذا لا يعنى أنه فقد ثقافته أو طبيعته الانجليزية ، وكذلك الفرنسى المعنى بالثقافة الأمريكية أو الانجليزية ، فهو لا يفقد ثقافته ليصبح أقل فرنسية ، انما يصبح كلاهما أوسع ثقافة وأكثر حضارة .

ولذلك يوصى الدكتور حسين فوزى بعدم المغالاة فى العمل تحت مظلة التراث ، فقد يتحول هذا ، الى ضغوط فكرية واجتماعية تحجر على الفنان أو الكاتب أو المفكر أن يمارس فنه وأدبه وفكره فى المجال العالمى . فلكل امرىء بما جبل عليه وما توحى به ثقافته . فاذا آثر الاحتفاظ بتقاليده وتراثه وأساليب قدمائه فله رأيه وله احترامه ، وان شاء أن يخرج الى النطاق العالمى ، فلن يفقد أبدا شخصيته ولكنه يكسب لذاته ولبلاده شهرة عالمية . ويرى حسين فوزى أن المصرى من أوسع الناس أفقا وأقدرهم وعيا واندماجا مع غيره من الشعوب المتقدمة ، ومن هنا كانت رغبته الدائمة فى ايجاد مقياس ثقافى للمفاضلة بين الأمم ، لأن تقسيم الدول الى متخلفة ونامية ومتقدمة ينهض على معايير اقتصادية أو صناعية أو تكنولوجية . وقد اتضح هذا فى الحوار الذى دار بينه وبين المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى الذى استضافه محافظ القاهرة الأسبق صلاح دسوقى من ٧ الى ١٤ ابريل ١٩٦٤ ، والقى محاضرات فى جامعات القاهرة والاسكندرية وعين شمس . وفى ندوة فكرية بدار المحافظة سأل حسين فوزى أرنولد توينبى :

« متى يقال عن بلاد أنها متخلفة على الرغم من تقدمها الاقتصادى وامتلاكها الثروة ؟ ومتى نصف بلدا بأنه متقدم أو نام بمقياس الارتقاء الفكرى والثقافى ؟! » .

وكانت اجابة توينبى كالآتى :

« سأضرب لك مثلا من بلدين أتيحت لى زيارتهما منذ عهد غير بعيد .. أولهما : فنزويلا ، وهى بحساب ثرائها الوطنى ، أو دخلها القومى مقسما على مجموع السكان : تعد واحدة من أغنى البلاد فى العالم. الا انك عندما تزورها تلاحظ الفقر المتفشى ، الى جانب قلة واسعة الثراء . ومن أن هذه القلة تفزع من كلمة « ثورة » فانها لن تسلم فى شىء من ملكيتها يدفع عنها غائلة الثورة ، وهناك طلبة الجامعات ، وهم يتعلمون بدون تكليف مالى ، هم أيضا من الثوار ، ومن بينهم رماة القنابل ، وعندما زرت جامعة « كاراكاس » ، كانت الشرطة تحرسنا ، ولكنها تقف على مبعدة ربع ميل من الحرم الجامعى . وذلك لتخوفهم من أن تلقى عليهم قنبلة من داخل الجامعة . لا يمكن أن أعتبر فنزويلا بلادا متقدمة ، وذلك على الرغم من ثرائها الهائل الذى يحققه استغلال النفط ، ومن أن أهل فنزويلا أنفسهم يستغلون مواردهم من خامات الحديد ، والقوى الكهربائية من مساقط المياه . وعلى الرغم أيضا من أن رئيس الدولة رجل ليبرالى يؤدى واجبه الدستورى على ما يرام . فالرجل مهدد برصاص المتطرفين يمنة ويسرة !

« ثم اليك مثلا من بلاد أخرى غاية فى الفقر : مثل « أيسلنده » . وهى بلاد أصفها بأنها غاية فى الحضارة . مواردها قليلة ، أرضها قاحلة . يعيش أهلها من صيد السمك ، ومن تربية الأغنام . يبيعون أسماكهم المجففة الى أهل الغرب الافريقى . انهم أهل ثقافة ، يناقشون نقاطا أدبية ، ويحفظون أشعار ملاحمهم .

« وعندما كنت أزور ايسلندة أخبرت بحكاية سفير النرويج الذى كان معنيا بهذه الأشعار الايسلاندية . وقد صدرت طبعة ممتازة ، باهظة الثمن لواحدة من هذه الملاحم . ذهب السفير الى الكتبى واطلع على هذه الطبعة الفاخرة ، ثم سأل عن ثمنها ، وقال بأنه سيفكر فى الأمر قبل ان يعود لاقتنائها . وفى اللحظة ذاتها أقبل صياد سمك وسأل ان كانت هذه هى الطبعة الجديدة المشار اليها . فقيل له : أى نعم . فأخرج الصياد محفظته ودفع الثمن وحمل الكتاب وغادر المكتبة . وشعر السفير بوخز الخجل . عاد بعد أسبوع ليقتنى الكتاب ، فأجابه الكتبى : نأسف فقد نفذت الطبعة تماما !

« هذه صورة من بلاد فقيرة ، وفى أى بند يصرف أهلها مالهم القليل . كذلك فان فنلندا مثل آخر . فالناس هناك يقتنون الكتب ويقرأونها . ولأن بلادهم تصنع الورق من لب الخشب ، فان الكتب رخيصة عندهم . ومع هذا فهم لا يصرفون نقودهم على التوافه ، بل يشترون من الكتب أكثرها جدية وجدوى . انها بلاد ضعيفة الاقتصاديات، لكنها تكاد فى عرفى تبلغ القمة ثقافيا » .

وعندما انتهى المؤرخ البريطاني الكبير من ابراز مفهومه للرقى الثقافى والحضارى الذى يفصل بين تقدم الانسان اقتصاديا وماديا وبين سموه الفكرى والوجدانى ، أصبح الحديث بينه وبين الدكتور حسين فوزى ذا شجون بحيث لم يشأ للحوار أن يقف عند هذا الحد فقال متسائلا :

« انك تشعر يا سيدى بأن السمو الفكرى ، والمآثر الثقافية فى بلد ما ، ترتفع به الى أسمى مكانة . ولكن يبدو أن عالم اليوم يضع معياره تحت الحزام كما يقولون فى فن الملاكمة . ولنضرب مثلا لبلاد قريبة منا ، والى قلوبنا ، وهى اليونان : ما تقديرك لها : هل تعتبرها وهى الفقيرة اقتصاديا بلادا متخلفة ، أم نامية ، أم متقدمة ؟ » .

أجاب توينبى بأنهم شعب رائع هؤلاء اليونانيون . يقومون بنشاط كبير خارج بلادهم ، مع شدة تمسكهم بوطنهم . فقد قضى توينبى كطالب عامى ١٩١١ و ١٩١٢ يرتاد اليونان . وكان يلاحظ فى القرى شيئا تملكه القرية ، وليكن نافورة ، أو كنيسة ، أو ناقوسا ، ثم يكتشف أنه هدية واحد من أبنائها حقق الثراء بعيدا عن وطنه .

ومن الواضح أن حسين فوزى كان قد طرح هذا السؤال على توينبى لأن وضع المعيار فى تقدير تقدم البلاد وتأخرها على تكنولوجيتها وتصنيعها يركز تفكير البلاد المتخلفة على انشاء الصناعات الكبرى ، بينما الأهم فى نظره أن تعنى تلك البلاد بانماء ملكاتها العقلية ، وتعميق ثقافتها . وهذا هو الوضع الطبيعى الذى يحتم وضع الحصان أمام العربة وليس العكس . ذلك أن التقدم الصناعى والتكنولوجى والمادى هو النتيجة الطبيعية للرقى الثقافى والسمو الفكرى ، أما تحويل السبب الى نتيجة والنتيجة الى سبب فمن شأنه تشويه المعايير وتشتيت الطاقات مما يدخل بهذه الدول الى طرق مسدودة وحلقات مفرغة من الضياع الحضارى .

ويرى الدكتور حسين فوزى أن البلاد المتخلفة والنامية تعتمد فى ثقافتها على الراديو والتليفزيون أكثر من اعتمادها على الكتاب نظرا لانتشار الأمية الأبجدية والثقافية على حد سواء .. وفى الواقع فان الراديو تليفزيون أداة ثقافة فى ذاتها ، لمجرد تقديمها للانسان صورة أوسع

لعالمه . وقد امتــد تأثيرها ليشــمل كل دول العالم . فحتى فى دول الحضارة كان الانسان يحصل على صورة أوسع لعالمه من الدوريات مصورة أو غير مصــورة ، أما الآن فان حصــوله عليهــا بطريق الســمع والرؤية المباشرة ، يدفع به الى صميم واقع الحياة هنا وهناك ، بطريقة أفعل وانفذ . فالصورة فى التليفزيون تتحرك كما فى الحياة ، والأذن تلقى الكلمة الحيــة . أما الصحيفة فتنقل الكلام رموزا وحروفا ، والصورة ثابتة .

الراديو تليفزيون أداة ثقافية بشرط أن يسبق التجربة أمام الشاشة الصغيرة والمذياع بعض الوعى الثقافى ، لا يهم أن تمتد جذوره الى أعماق المعرفة ، بقدر ما يشكل تقديما ذهنيا يؤدى الى استفادة أعمق وأفضل ، مما يستمع اليه ويراه فى الراديو تليفزيون .

وأمر هذا ملاحظ فى مطالعة الصحف والمجلات : فكلما قامت قراءتها على أساس من الوعى الثقافى ، زاد الانتفاع بها . وهى تجربة مررنا بها جميعــا ونحن نطالع الدوريات بعــد سن العاشرة ، ثم بعــد العشرين فالثلاثين ، وهكذا . أى أن هناك قسطا من الثقافة هو النهاية الصغرى لاعداد ذهنى وشعورى كلما أوفى ، زادت استفادة المرء مما تقدمه له أدوات الاتصال بالجماهير . وهى أدوات فى ذاتها . وبكل ما تعرضــه لآذاننا وعيوننا وادراكنا طريق الى الثقافة بمعناها الأســاسى الواسع . وبصفتها تجربة الحياة شمولا وعمقا وارتفاعا ، ولكن فى حدود نهــاية صغرى من العلم والمعرفة والتجربة تحقق بعضها معاهد العلم ، والبعض الآخر الاطلاع والترحال .

واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يساعد الراديو تليفزيون أيضــا فى بناء هــذا الأساس الثقــافى الأول ؟ لمــاذا لا يكمل تحصيل المدرسة والقراءة والســفر ؟ وهنا يظهــر الدور الايجــابى الذى تلعبه الاذاعــة والتليفزيون فى ثقافة الجماهير . ولكى تؤتى المهمة الاعلامية والتربيهية ثمارها الثقافية فلابد من اثارة حب الثقافة عند أكبر قطاع من الجماهير. وذلك من خلال البرامج الثقافية كالبرنامج الثانى عندنا فى الاذاعة ، والواضح أن تعدد القنوات والموجات جعل هذا ممكنا الى حد كبير ــ برامج يعنى فيها بالعرض الجاد ، والمطالعة والبرامج الخاصة ، والتمثيليــات الرائدة والموسيقى العظيمة . مع منح كل هــذه المواد حقها من الشرح والنقد والتحليل . برامج يسمع الناس فيها آراء ذوى الرأى فى السياسة والأدب والاقتصاد والفن والعلم .

أى أن البرامج التثقيفيــة تكمل ما تلقى النــــاس فى مــدارسهم

ومعاهدهم ، وما طالعوه في كتبهم ، وما سمعوه من موسيقى ، أو شاهدوه من معارض فنية . بل هي تعمق هذه الاطلاعات كعنصر جديد في بناء الثقافة يضم الى الكتب والصور والمسارح وحفلات الكونسير . وبمعنى آخر : أن يقوم الراديو تليفزيون بدور شبيه بالصحافة الناهضة عندما تعني باصدار ملحقات ثقافية ، أو دور المجلات ذات القوام الثقافي المعتدل المتين .

والراديو تليفزيون بقدرته الواضحة على اشراك المستمع والمشاهد في حياة المجتمع القريب والبعيد يفرض على الفرد أن يرى نفسه في الصورة العامة ، مثلما يرى نفسه في المرآة . لأن أدوات الاتصال بالجماهير مرآة هائلة للمجتمع الانساني كله . وبقدر ما تحقق المرآة للانسان معرفة شكله الفردي لا كمجرد فرد في أمة ، بل كعضو في الانسانية جمعاء .

ولهذا يجانب الصواب الى حد ما كل من ينعي على الأدوات الحديثة للاتصال بالجماهير سطحيتها ، وسوقيتها ، وانحطاطها الفني ، وأنها بحكم شعبيتها ،وضرورة مخاطبتها لأنواع متفاوتة من العقليات والثقافات والأوساط ، تنزع دائما الى الانحدار بالسامع والمشاهد الى درك أقل أعضاء المجتمع ادراكا وعلما وفهما . وان لم يكن أقلهم تماما ، فهو قطعا لا يعد خيارهم ! .

لكن هذا لا يثير انزعاج حسين فوزى لأن أحط منتجات الراديو تليفزيون — هنا وفي الخارج — لا تنجح في محو ثقافة المثقف ، وافساد ذوق صاحب الذوق ، أى أنها لا تهبط بخيار الناس . بينما هي لا تعدم أن تجد دائما فريقا من معوزى الثقافة ، معدمى الذوق ، تتقدم بهم ولو خطوات قصيرة نحو الادراك الاجتماعي وهو أساس هام من أسس الثقافة .

هذا الى أنها تعرض لأكثر الناس حظا من الثقافة صورة واقعية لما يجرى في العالم يوميا ، بالصورة والكلمة المسموعة . وغالبا بلسان الناطق بها . ومن موجبات ثقافته أن لا يعيش بمعزل عن الأحداث أو تتحول ثقافته الى ما يشبه الطير الحبيس . وفي هذا يقول الدكتور حسين فوزى :

« صورة في التليفزيون لا يمكن محو أثرها من نفسى ، صورة باهتة مدخنة ، لا تساوى مليما كصورة فوتوغرافية أو سينمائية ، ولكن أن تدرك وأن تشاهدها أنها صورة رجل الفضاء في التو واللحظة وهو على بعد مئات من الأميال من الأرض ، ينقلها اليك التليفزيون مباشرة ، وصاحبها مقيد محبوس في كبسولته تكتنفه الأنابيب والأسلاك وتغطى الالبكترودات (جمع اليكترود ، لا اليكترون) معالم جسمه التشريحية .

تلك الصورة الباهتة المشوشة لانسان يؤدى دور حيوان التجربة فى كبسولة الفضاء ، درس هائل لكل الناس • ولكن أقدرهم على الاحساس بها ، وفهم معناها هو امرؤ على شيء من الثقافة ، هو الأقرب من غيره الى الشعور بأن ما يراه على الشاشة هي صورته هو ، لا صورته الشخصية ، ولكن صورته كانسان عصره » •

المشاركة الانسانية ، وتقريب البعيد ، وانزال الرائى والسامع وسط الأحداث بالصورة والكلمة • كل هذه كفيلة بأن تجعل من الأدوات الحديثة للاتصال بالجماهير عناصر ثقافة فعالة بذاتها ، وانما يحسن دائما أن تضيف الى أفضالها . فضل التثقيف أيضا . كهدف بعينه • وهذا ما يحسه حسين فوزى موجودا على خير وجه أو أسوأه تبعا للظروف وحسبما يهديها اليه القائمون على ادارتها . بقدر ما أوتوا من حصافة وثقافة •

والانسان العادى لا يشعر بأبعاد الحضارة العالمية المعاصرة الا من خلال أجهزة الاعلام • ويكفى أن يدرك أن الحياة الحضارية عناء فى عناء ، ولكنه عناء غير مكروه بل يمثل الموج الحضارى المتحرك دائما الى الأمام ، لا يعرف جزرا • ويقارن حسين فوزى بين ايقاع الحضارة فى بلادها وبين ايقاعنا المتردد الرتيب فيقول :

« لعلك غبت عن أوروبا بضع سنوات ، ثم عدت اليها لتكتشف أن أوروبا التى كانت تسبق بلادنا لعشرات السنين . انتظمت فى طرائق جديدة للحياة والعمل والجهد والمتعة ، لتبعد عنا بعشرينات الأعوام •

« اصح أيها الغائم النائم . واعلم أنك برجعيتك الفكرية تنصرف الى تاريخك البعيد أو القريب ، تسأله أن يقدم لك صورة خاصة من التقدم الحضارى ، فى حدوده ، ليس الا !

« ولو فعلت أوروبا ما تفعل أنت ــ وقد سبقك فى هذا ايران ــ واشترط الغربيون على تطورهم أن يتم بمشية « أبو جلمبو » فى حدود تاريخية القريب أو البعيد ، فقد أخطأوا الطريق الى الأمام . أى نعم ! مررنا حقا بما يقرب من انهيار العنصر المادى فى حضارتنا . فما الذى حدث فى ناحيتها الروحية ، وأعنى هنا ثقافتها !

« حدث هبوط عام شامل فى المستويات الثقافية . ولا يعنى هذا اختفاء الاجادة فى التأليف ، والنشاط فى النشر ، والمسرح ، والفن التشكيلى ، وحتى فى الموسيقى والسينما • انما هناك الظاهرة العجيبة :

قول ذوى النهى والعقل السليم باعادة الشخصية المصرية ، وكأنها الطفل اللقيط الملقى على سور حديقة !

« فمهما قيل عما أصاب الانسان المصرى فى الثلاثين عاما المنقضية، فان من غير المعقول أن نحكم ببوار الشخصية المصرية · لقد عانى الشعب المصرى أحقابا طويلة من الظلم والاعتداء والاستبداد · وأقربها الينا وقائع المماليك فى مذكرات الشيخ عبدالرحمن الجبرتى · ثم ما نزل بالمصريين أيام الحملة الفرنسية ، وما بعدها ·

« وجدير بك أن تتأمل فى ازدهار حضارتنا ، ابان القرن الماضى · وكانت مصر من أوائل دول العالم تمد فيها السكك الحديدية · ثم الق نظرة على مدارسنا العليا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأوائل قرننا العشرين · وأذكر علماءنا وأدباءنا يشاركون فى المؤتمرات الدولية الخاصة بالفلك ، وبتعمير المدن ، والاستشراق ، وبالمواصلات ، وبالقانون ، وبالجغرافيا ، وبالتاريخ ·

« لقد وعت مراهقتى حالة مصر تحت الحكم العسكرى البريطانى ، بعد اعلان تركيا الحرب الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء · بلغ موات الروح فى بلادنا أشده بعد اعتقال الزعماء أو نفيهم · ثم تأمل فجائية ثورتنا فى ٩ مارس ١٩١٩ ، بمجرد أن علمت البلاد باختفاء سعد باشا زغلول ، اعتقله العسكر البريطانى ، وحمله الى جهة غير معلومة · بل تأمل ما تم فى أمر تمثال نهضة مصر ، لا لقيمته الفنية ، وانما لأثره العام على الشعب المتحمس : طالب باستدعاء مختار من باريس ليقوم باعداد التمثال تمهيدا لاقامته بميدان محطة مصر ·

« وموسيقى سيد درويش وكامل الخلعى وداود حسنى ، ومسرحيات جورج أبيض ، ومسرح رمسيس · طالع ما دبج الشعراء وما حرر الأدباء من نقد ، وألفوا من قصص مصرى صادق ، وفى طليعتهم محمد ومحمود تيمور · وأذكر ارتفاع شأو توفيق الحكيم ، غير المعروف باوبريتاته على مسرح الأزبكية ، فاذا بأدبه المسرحى فى فلسفته فى « أهل الكهف » ونثر موسيقى فى « شهر زاد » واذا بقصصه فى « عودة الروح » و « يوميات نائب فى الأرياف » يسعى اليه المترجمون لينشروه فى العالم شرقا وغربا · وهو سيد الجيل التالى لطه حسين والعقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى · واذ أعود من بعثتى عام ١٩٣١ يتلقانى القصاص المبدع محمود طاهر لاشين ليحدثنى عن روائى يبشر بمستقبل باهر فى القصة ، اسمه نجيب محفوظ » وهو يحمل اسم أستاذى فى أمراض النساء والولادة ، قدس الرب روحه » ·

• ثم معــارض الفن التشـكيلى التى بدأت مسـارها فى مطـالع العشرينيات ، يبرز فيها مختار ويوسف كامل وراغب عياد ومحمد حسن ، باكورة المتخرجين من مدرسة الفنـون الجميلة بدرب الجماميز ، ويليهم محمود سعيد القاضى ، هاويا ولا كل الهواة .

• وستدرك أن الشخصية المصرية التى قاومت خمسة آلاف عام ، لا تنفك ولا هى بحاجة الى اعادة ترميم » .

واذا كان حسين فوزى يشير الى أن مصدر الحضارة الغربية كان بالفعل اتجـاها عكسيا الى حضارة قدماء اليـونان والرومان . فقد كان لاكتشافهم تلك الحضارة أثر كبير فى انتقالهم من العصور الوسطى الى نهضتهم المعروفة بالرينسانس . ولكن يجب الانتباه الى أن ذلك الاتجاه الى الخلف لم يكتف بالاعجاب ، ولا بمجرد التقليد . انما جاء اكتشاف الحضارة القديمة فاتحـة للفكر ، حاثا على الخلق والابداع ، والتحـرك الدائم الى الأمام ، وغيابا للقومية العنصرية الضيقة ، وبحثا عن الانسان الفرد ، ممثلا للجمـاعة ، ثم الاندفاع نحـو اكتشاف عالمه بطريق البر والبحر ، وفى عصرنا ، بطريق الفضاء .

وفى عالمنا الحديث تقاربت المسافات ، وانتشرت المعارف العامة فى الاقتصاد ، والسياسة ، والعلوم والآداب ، والقانون ، والفنون . واذا كانت العلوم والتكنولوجيا عالمية بطبيعتها ، فان منجزات الفنون والآداب على الأغلب فردية ، شخصية ، تتصل بالبيئة والتراث ، وحركة التاريخ فى الأمة . وتقوم ابتكاراتها على قاعدة راسخة ، هى القومية ، والتقاليد . ولابد أن تشمل الثقافة كل ابداعات الحضارة السائدة من خلال المشاركة فى وسائلها وغاياتها المادية والفكرية والفنية .

ويركز حسـين فوزى على الجانب الأخـلاقى فى مفهومه للثقـافة والحضـارة ، فيوضح أن عالمنـا العربى غارق حتى أذنيه فى بحـر من الأكاذيب ، ولأننا ميالون الى اخفاء الحقائق واظهارها على طرفى نقيض خلافا لما حدثت عليه . فان كل شىء لدينا أصبح مزيفا : التاريخ والثقافة والفكر والاعلام . ولذلك فقدنا ثقتنا فى كل شىء ، حتى فى أنفسنا . فنحن لا نخدع أحدا سوى أنفسنا ، ولا ندرك أن ظهور الحقائق والحرص عليها كفيل بالوقوف على أول درجة فى السلم الحضارى . وكل هـذا يحتاج الى بيئة يحترم فيها الفكر وحريته بلا حدود ، مع التزام الصـدق والنزعة الحيادية وعدم الخجل من ذكر سيئاتنا وتعرية سلبياتنا ، فنحن لسنا فى مجتمع الأنبياء . ان مجتمعنا مثل سائر المجتمعات ساحة للخير والشر معا . ولكن هناك زمرة من البشر لا تريد الا اظهار الطهر والخير

والبراءة واخفاء ما عداها ، وزمرة أخرى تقوم بمهمة مضادة تماما للزمرة الأولى . ولابد أن تضيع الحقيقة ومعها الناس بين الزمرتين .

هذا على مستوى القاعدة ، أما على مستوى القمة فلا يخفى أن نظرة الزعيم العملية أو مذكراته المسجلة قد يشوبها التحيز وتتخلى عن الحياد الموضوعي ، خاصة اذا أصر من حوله على الايحاء المستمر اليه بأن قاب قوسين أو أدنى من النبـوة . ومع ذلك لا نستطيع أن ننفى أن كثيرين لا يزالون بضمائر يقظة . فهناك من يملك القواعد الأخلاقية التى تعصمه من الزلل وتبقى عليه ما يعتنقه من مبادىء . فالانسان والمجتمع عرضة للخير والشر معا ، ولا أدل على ذلك من أن أعظم العصور وهو عصر النهضة الذى فتح الباب على مصراعيه على الحضارة الغربية بكل ما فيها من وعى ورجاحة عقل واحساس بالجمال وتقدير للفكر ، لم يكن سوى بحر من المتناقضات .

ويجب ألا نعلق كل أخطائنا على مشجب التكالب المادى الذى يحكم تصرفاتنا الآن . فالمادة كلمة جادة ، واذا وصف العالم الحديث بالمادية فانه يعنى أنه عالم جاد وعامل ومثمر . ولكن يمكن القول بأن القيم انتفت نتيجة للرشوة أو انعدام المسئولية ، وليس نتيجة لحياتنا المادية . ومهما طغت المادة فنحن كرجال ثقافة يمكننا أن نخفف من حدتها فى المجتمع بتنمية روحانياته وتربيتها . والروحانيات التى يتحدث عنها حسين فوزى تعنى الفضائل التى لابد منها للانسان حتى لا يكون حيوانا . ألا وهى الفنون . ليس هناك أكثر مادية من المجتمع الأمريكى ولكن هناك أدبا ومسرحا وأوركسترا . وهذه هى الروحانيات التى يعنيها مفكرنا المعاصر .

وعلى مستوى الفكر السياسى فان الديمقراطية والليبرالية من أهم مقومات العصر الحديث ، ومن خلالهما تكون المحاولة لأن يأخذ كل انسان حقه ، ويعامل معاملة الآخرين وفقا لانجازاته وعمله . لقد مررنا بحقب كثيرة تعرضنا خلالها لاحباطات أثرت بلا جدال على نوعية الانسان فى بلادنا . ولكى نتفادى الآثار السلبية الناجمة عن هذه الاحباطات يحتم الدكتور حسين فوزى :

« تنظيم المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وماليا بواسطة دستور يحترم ، وانفتاح سليم ، وحرية كاملة للرأى ، ومعارضة تمارس وظيفتها وتكون بمثابة المصباح الذى يلقى بالضوء على كل شىء ، معارضة تظهر الأخطاء وتفتق الثغرات . عندئذ ستجمع شخصيتنا شتاتها وتستعيد معالمها . هذا من ناحية . من ناحية أخرى أنا مع تطبيق القانون الوضعى ولا أقبل أبدا أن تتغير القوانين لتصبح مطبقة للشريعة الاسلامية » .

ذلك أن حسين فوزى يرى أن قوة الحضارة الغربية ونجاحها بدأ من الرينسانس عندما تحول الناس من التطور الدينى الى التطور الفكرى · ولذلك فان كتابه الجديد « تأملات فى عصر الرينسانس » دعوة الى تطبيق مفاهيم الحضارة الأوروبية حيث الانفتاح الفكرى الذى يؤدى تلقائيا الى الاصلاح · وذلك كى يمكننا مجابهة ما يحدث فى بلادنا اليوم · هناك دعوة الى التخلف ، الى التعصب الدينى · وهذا يشكل خطرا على كل ما أنجزناه أو ما نحاول انجازه وقد يبدو لنا لأول وهلة أن الدكتور حسين فوزى قد تقمص دور السياسى لكنه فى حقيقته مجرد مفكر يعطى نماذج من التاريخ تفتح الأبواب نحو فكر أصدق وأحسن بكثير من فكر حفنة سيطر عليها الهوس الدينى · يقول :

« أنا أؤمن بأن العقيدة الدينية ضرورة يحتاج اليها الانسان فى يومه · ولكن الخطر يكمن عندما نوصلها الى ما وصلت اليه فى القرون الوسطى فى أوروبا ـ عندما سيطر رجال الدين على الانسان فأغلقت العقول وتحجرت الأذهان ، فكانت الرينسانس عبارة عن الحركة التى أخرجت العقول من الضيق والتحجر والتزمت · وخلافا لتوقعات الكثيرين فانها لم تقض على الايمان بدليل أن ايطاليا لا تزال الى اليوم كاثوليكية » ·

واذا كان الدكتور حسين فوزى يشجب التخلف والرجعية والتعصب والهوس الدينى ، فانه يرفض بالقوة نفسها الاعتقاد بالوصول ، وبلوغ الأمل ، ويكره التفاخر الذى يؤدى قطعا الى التواكل فالفشل ، والى الحياة فى « جنة المجانين » على حد قول الانجليز · ويمقت التمويه والحياة المزيفة والتمجيد الأجوف للذات وخاصة فى مجالات الفكر والثقافة التى يمكن أن يختلط فيها الحابل بالنابل عندما تضيع المعايير الموضوعية ، وينقلب الاختلاف فى الرأى الى عداوة تصل الى حد استخدام الرصاص · فالثقافة ظاهرة عجيبة من السمو البشرى ، تجعل من أهلها فى كل أنحاء العالم ، شرقا وغربا ، روما وعربا ، يساريين ويمينيين ، أبناء وبنات أسرة واحدة ، متفاهمة ، متجاوبة فوق اختلاف العقائد والنحل والمذاهب السياسية · ان أسرة الثقافة العالمية هذه لا يكره أفرادها أن يجتمعوا ليتداولوا وأن يزوروا بعضهم بعضا ، وأن ينفعوا الآخرين بعلمهم وفنهم ، وأن ينتفعوا من علم الآخرين وفنهم ·

فاذا كانت الحال هكذا فى مجال الثقافة العالمية ، فما بالك ستكون بالنسبة للمثقفين العرب الذين يشتركون فى اللغة والعقيدة والتاريخ والجغرافيا والحضارة · ان الثقافة العربية كنز أوشك على أن يصاب بالصدأ التام لأن العرب أهملوه فى حومة صراعاتهم السياسية المؤقتة

والطارئة • وحتى اذا ابتعدنا عن مجال السياسة ، نجدهم فى ثقافتهم ينقسمون الى أنصار للقديم وأنصار للجديد ، الى يمينيين ويساريين ، الى رجعيين وتقدميين • مما يؤكد أن الروح القبلى لا يزال يحكمهم • ولكى نصل الى بداية السلم الحضارى لابد أن نتخلص أولا من روح القبيلة التى لا ينتج عنهاسوى التخلف والرجعية والتعصب وغير ذلك من السلبيات المدمرة ، فى عالم ينطلق على طريق الحضارة بسرعة الصواريخ وسفن الفضاء • انه عصر الفضاء •

● د. زكى نجيب محمود

● د· زكي نجيب محمود

الدكتــور زكي نجيب محمود من المفكرين العــرب الذين يتميزون بالمنهج الفكرى المتسق الذى ينم عن فلسفة شاملة ورؤية محددة تجاه المجتمع والعالم والكون · ولذلك من الصعب أن نجد فى كتاباته ودراساته التى تمتد لتغطى نصف قرن فكرة تناقض أخرى ، شأنه فى ذلك شأن كل الفلاسـفة الذين أقاموا انجازاتهم على أسس التفكير العلمى · وهذه الفلسفة المتسقة لا تعنى التكرار والرتابة على مر الأيام ، لأنها تستمد خصـوبتها وتنوعها من منهجتها المستمرة للمواقف والأحداث المستجدة ، أى أنهـا متفاعلة دائما مع الواقع تؤثر فيــه وتتأثر به لكنها لا تضــل طريقها ·

ولعل أروع انجازات الدكتور زكي نجيب محمود الفكرية والفلسـفية تتمثل فى اصراره على تحرير الفكر العربى من مجمــوعة الأساطير التى تسيطر عليه بصفتها عقيدة راسخة فى وجدانه ، تفسر له الكون تفسيرا قوليا بطريقتها الخاصة · ومع ذلك لا يرفض زكي نجيب محمود هذه الحكايات الشعبية الخرافية على أنها مجرد سلبيات مثيرة للاحباط واليأس والتخلف ، فهى بكل تأكيد من بقايا طاقات الانسان العربى وخبراته حين كان يحلم لأنه لم يكن يعرف ، وحين كان يعتقد لأنه لم يكن يرى ·

ونحن عنـدما نقف متأملين لمفـاهيم الدولة العصرية ونتعامل مع الكومبيوتر ونحاول أن نخرج من دائرة التخلف نجد أن معركتنا الأولى مع المواريث التى تعوق حركتنا وتلتف حول أقدامنا تمنعها من السعى للأمام جاذبة اياهما الى الخلف · لكن معركتنــا مع المــواريث ليست قتلا لكل ما سبق ولكنها تحويل استخدامه · فمن أسطورة تحكم العقل العربى

عن أبو زيد الهلالى سلامة ، الذى ضرب بيده يمينا فمات ألف فارس وضرب بيده اليسرى شمالا فمات ألفين ، الى أشكال فنية تستوحى الأسطورة وتسقط بها على واقعها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والبيئى والثقافى والفكرى والفنى والأدبى ، فتخلق لهذه المواريث وظيفة تحددها وتحدد دورها وحجمه ٠

بهذا المفهــوم العلمى يفسر زكى نجيب محمود الأسطورة وعلاقتها بالعقل العــربى ، ويفرق بين تأثيرها عليه وبين تأثير أســاطير الشعوب الأخرى على عقل أبنائها ٠ فهو لا يجد فى الأدب العربى أساطير كان لها تأثيرها على مجرى الفكر والفن بالطريقة نفسها التى نجدها فى أساطير اليونان ٠ ذلك أن هذه الأساطير القديمة هى التى قامت مقام الفكر العلمى فى أول مراحله ، بمعنى أنها تدور حــول تفســير الظواهر الطبيعيــة والانسانية ٠ كل ما هناك أنه تفسير ليس مؤيدا بمنهج علمى لكن الهدف واحد ٠ أعنى أن هدف الأسطورة عند اليونان هو هدف التفكير العلمى فكلاهما أراد أن يفسر الظواهر الطبيعية ولكن الأسطورة أرادت أن تفسر الظواهر على غــير أســاس التجربة العلميــة ، والعلم يفسر على أساس التجربة ٠ ومن هنا تأتى خصوبة الأساطير اليونانية لأنها تتناول عددا ضخما من الظواهر التى يتطلع الانسان لمعرفة تفسيرها ٠

أما فى الثقافة العربية فنادرا ما نجد لمثل هذه الأساطير مثالا فى الفكر العربى - ويعتقد زكى نجيب محمود أن هذا كان سببه الرغبــة الشديدة فى طمس طقوس الوثنيات وبالتالى دمر العرب تاريخهم الجاهلى تدميرا ، وخافوا من اظهار أساطيرهم اللهمالا اذا كانت خاصــة بنسب بعض الظواهر الطبيعية الى قوى خفية وراء الطبيعة ٠ وكان نتيجة ذلك أن حل شىء آخر محل الأساطير فى الفكر العربى ، مثل اهتمام العرب بقوة وسلطة الحروف الأبجدية . فقد كانوا يعتقدون أن الحرف فى ذاته له قوة سحرية ، وحتى جابر بن حيان أدار كثيرا جدا من فكره العلمى على أساس الحروف وسلطانها ٠

هذا على مستوى الفكر العلمى أما على مستوى التفكير الأدبى الابداعى فنجد عند الشعراء مثلا ما يسمى بشيطان الشعر وهو ما قد يدخل مدخل الأسطورة ٠ ونجد أيضا فى الأساطير وادى عبقر الذى هو منوط بالعبقرية والتفوق فاذا أضفنا الى هذا كله بعض القصص مما يجرى فى الأسطورة ، سوف نجد أن هذه القصص تستطيع أن تكشف لنا أعماق النفس العربية وكيفية تفكيرها وسلوكها ونظرتها تجاه المجتمع والعصر والعالم ٠

ولكن الأسطورة بهذا المفهوم البدائى لا يمكن أن تخلق أى نوع من وحدة الفكر التى يجب أن تنهض أساسا على المنهج العلمى المتسق الذى

لا يحتمل التـأويلات والشطحات الفجـة . ولذلك لا يرى زكى نجيب محمود كلما استعرض بفكره حياتنا الثقافية الراهنـة ، سوى جماعات متفرقة ، لكل جماعة منها لغتها الخاصة التى تفهمها هى ، ولا يفهمها أحد سواها ، ولكل جماعة منها تصوراتها التى تعتقلها اعتقالا داخل أسوارها ، حتى لكأنها تحيا فى جزيرة معزولة ، ليس بينها وبين سائر الجزر وسيلة للتفاهم وتبادل الرأى ، انها « بابل » فى تعدد لغاتها ، انها مجموعات صوتية لا ترتبط فى معزوفة واحدة ، انها البحيرات المتفرقة التى لا تصنع بحـرا ، والروافد الكثيرة التى لا تتجمع فى نهر واحـد ، انها احـدى مسرحيات العبث الحـديثة : التى لا يفهم فيهـا أشخاصها بعضهم عن بعض .

ويلخص زكى نجيب محمود هذه الجماعات فى أربع نقاط رئيسـية : الأولى : تنظر نظرة سلفية الى موضوعات سلفية ، والثانية تنظر نظرة سلفية الى موضوعات عصرية ، والثالثة تنظر نظرة عصرية الى مشكلات عصرية ، لكنها تستمين بروح سلفية ، والرابعة تنظر نظرة عصرية الى مشكلات عصرية ، لكنها مبتورة الصلة بالسلف . فالقسم الأول يمكن أن يكون « القديم القديم » ، والثانى « القديم الجديد » ، والثالث « الجديد القديم » ، والرابع « الجديد الجديد » .

وتبـدو أزمة الفكر العربى المعاصر بشمة مخيفة عندما نجـد أن الاختلاف بين هـذه الجماعات الأربع لا يقتصر على اختـلاف الرأى بازاء المشكلات المعروضة ، بل يعمق بينها الاختلاف حتى يتناول جذور التكوين كما يتناول موازين الحكم . انها جماعات مختلفة المعايير ، لأنها مختلفة البناء والتكوين ، ومتنافرة فى رؤيتها . ولذلك فالالتقاء فى مثل هذه الحالة ضرب من المحال .

وعنـدما تسـأل الدكتـور زكى نجيب محمود عن شروط الحيـاة الثقافية الصحيحة السوية فانه يجيب :

« انها تكون صحيحة سوية اذا كانت قائمة على أساس واحد ، وتقيس بميزان واحد ، ثم تختلف بعد ذلك المشكلات المطروحة والأفكار المعروضة لحلولها ، ولولا هذا التجانس النسبى بين أفراد الأمة الواحدة ، وأبناء العصر الواحد ، لما استطعنا أن نكتب تاريخا للفكر ، نبين به مراحل الطريق ، قائلين ــ مثلا ــ ان الحياة الفكرية التى سادت الأمة الفلانية فى العصر الفلانى ، كانت تتميز بكذا وكذا من الصفات ، كيف يمكن للمؤرخ أن يقول كلاما كهذا عن أمة معينة ، أو عن عصر معين ، ما لم يكن فى مستطاعه أن يستقطب تلك الأمة أو ذلك العصر فى صفة أو صفات رئيسية تسودها أو تسوده ؟

« فماذا يقول مؤرخ الفكر عنا ، اذا ما انطوى بنا الزمان ، وأصبحنا ماضيا يروى عنه المؤرخون ؟ ما هى الصفة أو الصفات الرئيسية التى تتميز بها حياتنا الثقافية الراهنة ، والتى يمكن لمؤرخ المستقبل أن يميزنا بها ؟ انه سينظر الى ساحتنا الفكرية ، فاذا هى جماعات متفرقة هدفا ومنهجا ، لكل جماعة منها نجواها ، لكنها لا تتناجى كلها معا ، الا فى الظاهر الذى لا يضرب الى الأعماق ٠

« لقد اختلف المسلمون الأولون فى الرأى حول كل موضوع طرح أمامهم ، اختلفوا فى الفقه مذاهب ، واختلفوا فى حرية الارادة وجبرها ، واختلفوا فى عقوبة المذنب ، أتكون هنا والآن ؟ أم نرجىء الحساب الى يوم الحساب ؟ واختلفوا فى السياسة بين شيعة وخوارج ، بل اختلفوا فى تصورهم لحقيقة الله عز وجل ، فكان منهم المشبهة وغير المشبهة ، وكان منهم الصفاتية والمعطلة ٠ المهم هو أن أسلافنا قد اختلفوا فى مسائلهم الفكرية ، لكننا نحس أنهم ــ برغم اختلافهم ذلك ــ كانوا كالذين يتبارون على ملعب واحد ، يلتزمون روحا واحدة ، وقواعد متفقا عليها ، ومن هنا أمكن أن تكون لهم ثقافة موحدة الروح ، وان تباينت جوانبها وظواهرها » ٠

ومن هنا كان تأكيد زكى نجيب محمود على ضرورة التجانس فى الجذور وفى الأصول ــ برغم التمايز فى الفروع ــ وهو الذى يجعل للأمم ثقافاتها المتميزة ، والا فكيف جاز أن يقال عن الفكر الانجليزى ــ مثلا ــ انه تجريبى فى طابعه السائد ، وعن الفكر الفرنسى انه رياضى الطابع ، وعن الألمانى أنه ميتافيزيقى بمعنى أنه يتعقب الظواهر الى أصولها العميقة، وعن الفكر الأمريكى أنه براجماتى ، وهكذا !

وفى ظل الوحدة الفكرية التى تسود أمة من الأمم ، أو عصرا من العصور ، يتفاهم الناس ٠ لكن الدكتور زكى نجيب محمود لا يرى أية لمحة من لمحات هذه الوحدة الفكرية فى حياتنا الثقافية ، وأقل ما يقوله فى ذلك اننا نعيش فى عصرين مختلفين ٠ فبعضنا يعيش فى الماضى وفى مشكلات الماضى وحلولها الماضية ، وبعضنا الآخر يعيش فى الحاضر ٠ ولذلك لم يكن عجيبا أن نتبادل فيما بيننا صفات يطلقها بعضنا على بعض ، فنصف فريقا منا بأنه « قديم » وفريقا آخر بأنه « جديد » ، وهى قسمة لبثت محور العراك الفكرى منذ أوائل هذا القرن والى يومنا هذا ، مع اختلاف يسير فى التسمية ، فقد كنا فيما سبق نتحدث عن المعركة بين القديم والجديد ، وأصبحنا نتحدث اليوم عن المعركة بين الرجعية والتقدمية ، ولكن المضمون واحد فى كلتا الحالتين ٠

انها قسمة لم تكن واردة عند أسلافنا ، اذا لم يكن بينهم قديم

ولا جديد ، لأنهم جميعا فى كل فترة زمنية ـ يشتركون فى أصول واحدة ، ولا يكون الاختلاف الا فى الرأى والمذهب · كذلك فهى قسمة ليست واردة فى ثقافات البلاد المتقدمة ، ففى الفكر الانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى لا نجد فريقا « قديما » وآخر « جديدا » برغم اختلافاتهم الشديدة فى معترك الأفكار ·

ويسيطر الاحساس بالعجب والذهول على زكى نجيب محمود عندما يتتبع أنواع المشكلات التى تعرضها علينا كل جماعة من الجماعات التى تقسم حياتنا الفكرية وتفتت وحدتها ، فما تظنه أحدها أنه أمر جلل خطير يتطلب الحل السريع ، لا تجد فيه جماعة أخرى ما يستوجب مجرد الذكر ، لانعدام الصلة بينه وبين حياة الناس الجارية ، وما تراه احدى الجماعات جادا كل الجد ، لا يرى فيه الآخرون الا هزلا كل الهزل · من هؤلاء نجد الذين اختاروا لأنفسهم أن ينحازوا الى النظرة السلفية ، بعد أن يطلوها بطلاء عصرى ، بما ينثرونه فيها من حقائق العلم الجديد ، تراهم يقحمون فى أحاديثهم عن المشكلات القديمة نتفا من هذه العلوم التى تعلموها ، بهدف الايهام بأن المشكلات المعروضة قد لبست بذلك رداء عصريا · وبرغم أنهم قد يكونون علماء فى الطب أو الكيمياء أو الفيزياء أو الفلك ، فان ما يفعلونه أقرب الى البهلوانية الثقافية ، التى اذا خدعت لاهيا ، فلن تخدع واعيا ، وهو ضرب من القول لا يشيع فى قوم الا اذا أصاب حياة الفكر عندهم مرض وفقر ·

أما أعظم الجماعات قدرا ، وأقواهم أثرا فى دفعنا الى الأمام على طريق التطور ، فهم الجماعة التى تنظر نظرة عصرية الى مشكلاتنا الحية ، مستعينة بما تصلح الاستعانة به من تراثنا المجيد · هؤلاء هم الأعلام الذين تلمع أسماؤهم فى سمائنا . من أمثال رفاعة الطهطاوى ، ومحمد عبده ، ولطفى السيد ، والعقاد ، وطه حسين · وفى هذا سر عظمتهم · ويقارن زكى نجيب محمود بين هؤلاء الرواد فى تاريخنا الفكرى المعاصر وبين أفراد الجماعات الأخرى ، ويخرج من المقارنة بأنهم يخلدون فينا جيلا بعد جيل فى حين يطوى النسيان رجال الجماعات الأخرى ولا نقول مفكريها ·

ولعل النقطة الرئيسية الأولى التى يبدأ منها علاج حياتنا الثقافية الممزقة ، تكمن فى اصلاح التعليم فى بلادنا ، اذ لو عرفت مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا كيف تصوغ حياتنا الفكرية على غرار الجماعة التى تنظر نظرة عصرية ، الى مشكلات عصرية ، بشرط أن تظل الرابطة الحيوية واصلة قديمنا بحديثنا ، فان الحياة الثقافية الصحيحة لابد أن تزدهر بالأسلوب العلمى الذى نريده لها ·

كذلك يضع زكى نجيب محمود يده على مرض خطير أصاب حياتنا الفكرية الراهنة بكثير جدا من الزيف الذى يحل لأنفسنا أن نتحدث ـ وفى حماس شديد الاشتعال أحيانا ـ عما لا نعرفه معرفة مباشرة ، بل عرفناه اشاعة عن اشاعة عن اشاعة • ولا يقتصر هذا الزيف الفكرى فينا على أمور توافه لا تقدم حياتنا ولا تؤخرها ، بل انه ليتناول أضخم المسائل الحضارية التى يترتب على رأينا فيها توجيه الحياة كلها فى هذا الاتجاه او ذاك • فقد يتصدى عالم جليل من علمائنا الى مذهب فكرى سمع عنه بين المذاهب السائدة فى ثقافة الغرب ، فيسلخه سلخا بسهام النقد ، حتى اذا ما بحثت أمر هذا العالم ، وجدته لم يقرأ كتابا واحدا لمؤلف واحد ممن ينتمون الى ذلك المذهب الذى جعله هدفا لسهامه • بل قد يتصدى كاتب عظيم من كتابنا للحضارة الغربية المعاصرة كلها بالطعن والتجريح ، حتى اذا ما أتيح لك أن تعلم عن مقومات ذلك الكاتب علما كافيا ، وجدته بريئا من كل معرفة صحيحة باى ركن من اركان الحضارة التى يغرقها باتهامه •

ينطبق المعيار نفسه على كثيرين ممن تمتلىء أشداقهم اشادة بالحضارة العربيـة وبالثقافة العربيـة • فمعظمهم لم يقرأ كتابا واحـدا عن هذه الحضـارة ، أى أنهم لا يفهمون لكنهم يدعون الفهم فى الوقت نفسه • ذلك أنهم لم يقرأوا الأصول ولا ترجماتها بل اكتفوا بخطف الاشاعات التى تقال عن تلك الأصول أو ترجماتها ثم يدعون العلم وكأنهم ألموا بالموضوع من ينابيعه ، أو يلخصون شيئا اطلعوا عليه ثم يدعون تأليفه وابتكاره ، حتى لقد ضاعت المعالم الفارقة بين من يعلمون ومن لا يعلمون •

ولما كان الزائف يعرف بينه وبين نفسه أنه زائف فانه لا يجاهد فى سبيل فكرة يعرضها ، وفيم الجهاد وهى ليست فكرته ، فأقل نفحة هواء تلفحه بالخطر ، تكفيه ليلقى بالفكرة فى الوحـل ليفر منهـا ومن تبعاتها • كل هذا الزيف الفكرى جعلنا لا ننتمى الى الفكر الذى نحياه لأنه ببساطة ليس فكرنا النابع منا • فاما هو فكر منقول عبر المكان من مصادره الغربية ، واما هو فكر منقول عبر الزمان من أسلافنا • ولا عيب فى ذلك كله ، لأن الحضارة اليوم ليست من صنعنا ، فلا علينا أن ناخذ عنها ما ناخذه ، ولأننا فى الوقت نفسه أصحاب ارث ورثناه ، فلا علينا أيضا اذا اغترفنا من ميراثنـا ، لكن العيب كل العيب ، هو فى عملية الخطف السريع ، الذى نخطف به من هنا وهناك ، فى غير دراسة أمينة متأنية صابرة ثم تاخذنا خيلاء من يعرفون • ان هذه خيانة ثقافية يرتكبها من نظن بعضهم من المفكرين الكبار • والخطف من أسلافنا هو فى الخطيئة كالخطف من الغرباء ، بل ربما كان التشويه فى الحالة الأولى أمعن فى الضـــلال •

ولم يتوقف الزيف عند هذا الحد ، بل هناك فريق من أصحاب الكلمة المكتوبة أو المنطوقة ، وسوست لهم الشياطين بأن العقل الانسانى عاجز ، وبأن العلم تضليل ، وراح يبث هذه الدعوى فتلقفها منهم الناس فى لهفة لأنهـا دعوة تضمن لهم الاسترخاء والراحـة ، فى الوقت الذى يقتضى منهم نشـاط العقل كثيرا من اليقظـة القلقة الواعية التى ترهق أعصـابهم بغير داع · من هنا جاءت الفجوة التى أدت الى الانفصام بين الصفوة التى تحتـكم الى « العقـل » فى استباق الرؤية ، وبين الكثرة الغالبة ـ وهى التى سيناط بها عملية التنفيذ والتطبيق ـ لأنها كثرة لا تؤمن فى أعماقها لا بالعقل ومنطقه ولا بما يترتب على العقل من علوم وصناعات ·

ان مأساة الفكر العربى على مستوى الواقع العملى تكمن فى الثغرة المحفورة فى حياتنا بين من يمسك العقل بزمامهم من ناحية ، وبين من يهيمون فى عماء اللاعقل من ناحيـة أخـرى ، فترى الأولين يرسـمون ويخططون ، «كما لو كان » الذين سيتولون التنفيذ مثلهم ايمانا بعقولهم· ويركز زكى نجيب محمود على تعبير « كما لو كان » لأنه كان عنوانا على فلسفة بأسرها ، أشاعها فى الثلث الأول من هذا القرن ، فيلسوف ألمانى هو هانس فاينجر وخلاصتها أن الانسان يصوغ لنفسـه أفكارا ويزعم لنفسـه أنها أفكار تصور له الواقع كما هو واقع ، فاذا هى فى حقيقتها انما تصور له ما يحب هو أن يتصوره عن ذلك الواقع لينعم بالراحة ، وحتى لو جاءته الخبرة الشخصية صـارخة ببطلان أفكاره تلك ، فالأغلب أنه لا يعدل عنها الى سواها ، ولماذا يعدل عنها اذا كانت مريحة وسـواها يؤلمه ويشقيه ؟

وموجز القول أن الانسان بهذا السلوك يحبك لنفسـه قصة لذيذة عن العالم ، يحياها « كما لو كان » العالم يجرى على منوالها · وسـواء أصابت تلك الفلسفة فى تحليل الانسان أم أخطأت ، فهى بغير شـك تصف شيئا مما يقع فى حياتنا الفكرية والثقافية ، حين نبنى من الأوهام صورة نتشبث بها « كما لو كانت » هى صـورة الواقع · والأوهام لا تنتمى بالضرورة الى الجانب المرضى فى حياة الانسان ، وان كانت جزءا لا يتجزأ من الجانب اللاعقلى عنده · فالانسان ليس عقلا كله ، بل هو مزيج من عقل ولاعقل ـ كالوجدانات والرغبـات والشـهوات ـ ولكل من العقل واللاعقل أهميته ، ولا عيب فى أن يكون الانسان هذا وذاك معا ، لكن العيب هو فى الخلط بينهما ، لأنك اذا أذنت للجوانب اللاعقلية أن تتسلل الى ميدان العقل ، فقد فسد هو وفسدت هى ، وضاع الانسان ممزقا فيما لا يجديه ، وأعجب العجب أن نجد هذا الخلط على خطورته شائعا

بيننا شيوعا يسترعى النظر ، فما قد قصد به الى حياة الوجدان ، يحاول بعضنا أن يقحمه في منطق العقل ، أى أن يقحمه فى ميدان العلم ، حاسبا بان ذلك تشريف له وتعظيم وتأييد ، مع أن ذلك ان دل على شيء فانما يدل على أن صاحب محاولة كهذه غير واثق فى كفاية وجدانه ، فاراد أن يبحث له عن دعامة من خارجه لئلا يسقط وينهار ٠

ويفرق زكي نجيب محمود بين العلم والثقافة ٠ فثقافة المرء هي وجهة نظره ٠ ومن ليس له وجهة نظر يقيس اليها مواقف الحياة فليس هو بذى ثقافة حتى لو كان أعلم علماء عصره فى فرع من فروع العلم ٠ ان العلم مقيد بالواقع ، وأما الثقافة فهى أقرب الى المعيار الذى نهتدى به الى ما ينبغى ان يكون ، ومن هنا لا تتدخل فى ساحة العلم قيم الخير والشر أو الجمال والقبح ، أما الثقافة فمعنية بتلك القيم من رأسها الى القدمين ؟ العلم عقل والثقافة ذوق ؟ العلم منهج يقام على مبادىء المنطق والثقافة دفعات وجدان ؟ ومع هذا التباين كله بين العلم والثقافة ، فهنالك ما يربطهما معا فى كيان واحد ، هو كيان الانسان الذى يعتمد فى حياته على ربط الوسيلة بالغاية ، أو العلم بالثقافة ٠

فالانسان على ضوء ثقافته ، أى على ضوء وجهة نظره ــ يختار لنفسه الأهداف ، ثم يلجأ الى ما لديه من علم ، ليحقق تلك الأهداف ٠ فالعلم هو الذى يرسم الخطوات الموصلة الى الهدف ، وأما اختيار الهدف فى ذاته ، فلا شأن للعلم به ٠ فقد تجد قوما يختارون لأنفسهم أن تقام الصناعة على ملكية الأفراد ، كما قد تجد قوما آخرين اختاروا لصناعتهم أن تقام على ملكية الجماعة ؟ والى هنا لا شأن للعلم بما اختاره أولئك أو هؤلاء ثم يأتى العلم بعد ذلك ليحقق لكل قوم هدفهم المختار ٠ فالعلم شانه أن يحلل ما بين يديه ، لكنه لا يفاضل ولا يختار ٠ على حين أن الثقافة ــ بوجهة نظرها ــ لا تكاد تعرف التحليل ، لأنها وجدان وذوق ، يعرف كيف يفاضل ويختار ٠

وحركات التغيير والتطوير ، انما تنبثق من الثقافة ولا تنبثق من العلم ، لأن تلك الحركات ــ بما فى ذلك الثورات ــ ما هى الا رغبة فى تغيير حالة قائمة لتصبح على صورة أخرى غير صورتها الراهنة ٠ والرغبة تنبع من الجانب الوجدانى فى الانسان ٠ أما العلم فهو وسيلتها الى التحقيق ٠ واذا كانت الثقافة هى وجهة النظر ، فان وجهة النظر هى « الاتجاه » الذى نرسل البصر فى طريقه ٠ ولو راجعت الحياة الثقافية فى مصر ، خلال القرن الثامن عشر ، أى قبيل أن يصل اليها نابليون بحملته العسكرية العلمية معا ، لوجدتها متجهة ببصرها نحو خزائن الكتب الموروثة ، تحفظ ما فيها وتشرحه وتضع له الهوامش ٠ فكان

« العلماء » هم الحافظون لما هو مذكور فى صفحات تلك الكتب ، مع تفاوتهم بعد ذلك فى درجة فهمها واستيعابها • ومعنى هذا هو أن « ثقافة » القوم عندئذ ، أى وجهة « نظرهم » هى العودة الى الماضى •

ثم أخذت تلك الوجهة تتغير فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، بأن مدت البصر عبر البحر الى أوروبا ، لا لتصنع شيئا جديدا مكان شيء قديم ، بل لتضيف جديدا الى قديم • ولو أخذنا رفاعة الطهطاوى علامة على تلك المرحلة ، وجدنا الاتجاه الثقافى هو المجاورة بين قديم موروث يحقق ويعاد نشره ، وجديد وافد من أوروبا ، فى صورة كتب تترجم الى اللغة العربية • ثم يأتى عصر محمد عبده فى الربع الأخير من القرن الماضى ، فاذا بصراع ينشأ بين ثقافتين ، أى بين وجهتين للنظر • أما أولاهما فهى التى اختارها محمد عبده ، ومؤداها أن يلم بما يدور فى أوروبا من فكر ، لا ليأخذه ، بل ليرد عليه اذا وجده ماسا بعقيدته ووجهة نظره • أما الثانية فهى التى أوجزها الخديوى اسماعيل بقوله : انه يريد لمصر أن تكون قطعة من أوروبا • وعلى هذا النموذج جاءت الثقافة عند نفر من أبناء تلك الفترة •

ومع مضى الزمن الى العشرات الأربع الأولى من هذا القرن العشرين ، بدأت حركة عارمة لبلورة الثقافة فى مصر • وعندما يتكلم زكى نجيب محمود عن الثقافة فى مصر فكأنه يتحدث عن الثقافة العربية كلها ، لا يستثنى الا شذرات تناثرت هنا وهناك • وكانت الحركة عارمة لأنها بلورت للوطن العربى وجهة نظره الجديدة ، التى قوامها محاولة التأليف فى صيغة واحدة ، بل ما هو وافد من أوروبا وما هو موروث أسلافنا • وكان أبطال تلك الحركة هم الزمرة المباركة : قاسم أمين ، لطفى السيد ، طه حسين ، العقاد ، المازنى ، هيكل ، توفيق الحكيم • وكان ذلك الدمج بين المصدرين فى وجهة نظر واحدة ، هو نفسه الخلفية الثقافية التى ولدت ابداعا فى الفكر والفن والأدب • فهى التى أنتجت الوليد الجديد الذى لا هو من أوروبا وحدها ، ولا هو من الموروث وحده • هنا ظهرت القصة العربية ، والمسرحية العربية ، والفكر العربى فى شتى الميادين • وحتى أولئك الذين اختاروا موضوعاتهم من الموروث ، لم يكتفوا بمجرد النقل والمحاكاة ، بل وضعوا ذلك الموروث فى اطار أوروبى جديد ، كالذى نراه فى النقد الأدبى عند أعلامه ، أو الذى نراه فى « الاسلاميات » التى صيغت فى شكل عصرى جديد •

وكان انشاء « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فى عام ١٩١٤ بمثابة تجسيد لهذا الاتجاه التحديثى الذى ينقل الينا ثقافة أوروبا عن طريق الترجمة ، ويعيد تراث الأقدمين بالنشر ، ثم يستلهم هذا وذاك فى

تأليف مبدع ، يحمل طابعنا الأصيل فى صورة عصرية · لكن هذا الاتجاه الحضارى الناضج لم يؤد الى تجانس ثقافى فى أيامنا هذه ، فللأمر ما تعددت بنا الثقافات ، ولم نستطع جمع الروافد فى تيار واحد ، يمكن أن نقول عنه أنه ثقافتنا الراهنة ·

ان بيننا من يحمل لواء الموروث والموروث وحده ، مستنزلا لعنات السماء على من يحمل لواء غير هذا اللواء ، وفينا من يدعو الى كل ما هو اوروبى أمـريكى ، ثم فينـا ـ وتلك هى الأكثرية العظمى ـ من جهل التراث وجهل الأوروبى الأمريكى جميعا ، فاحتمى بما يسمونه « ابداعا » من قصة ومسرحية وشعر وفنون فجاء فى أغلب ابداعهم خاويا ضحلا ، اذ من أين يأتيه العمق اذا انسدت دونه أبواب الموروث والعصرى معا ؟

وعندما نسأل الدكتور زكى نجيب محمود عن تصوره لملامح ثقافة الغد وكيف يمكن أن نبدعها بالصورة التى نطمح اليها ؟! يجيب بأنه لابد أن نمضى بكل قوانا فى مطالعة موروثنا مطالعة الغائصين الى أغواره ، وفى مطالعة المعاصرين من بناة الحضارة الجديدة · مطالعة الباحثين عن روحها وصميمها · بذلك نكون قد هيأنا المناخ المؤدى الى الابداع الأصيل· واذا كنا نستطيع رسم خطة تتفق الدولة على تنفيذها ، نترسمها فى احياء تراثنا ، وفى ترجمة المعاصرين ، فاننا لا نستطيع بأى معنى من المعانى أن نخطط للابداع ، بحيث يتحتم علينا أن نتركه حرا للمواهب الحرة · فقد كانت لنا وجهة نظر تجسدت فى رفاعة الطهطاوى ، ووجهة نظر بعدها تمثلت فى محمـد عبـده ، ووجهـة نظـر ثالثة حملها وأشاعها مفكرو العشرينيات من هـذا القرن · وهى وجهـات اختلف بعضها عن بعض لاختلاف العصر وظروفه · أما اليوم فقد غابت عنا وجهة النظر التى يمكن أن نعرف بها وتعرف بنـا · والمطلوب من مفكرينا ومثقفينا العـرب أن يعيدوا لنا ما غاب عنا ، لنتجانس فى « الذوق » ومن ثم نتجانس فى الرفض والقبول ·

ومن يتعمق فى فكر زكى نجيب محمود وفلسفته يكتشف أنه مفكر ثورى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، على الرغم من الهدوء الأكاديمى المتحفظ الذى قد يبدو لأول وهلة محيطا به · ولذلك فهو ينادى بثورة فكرية تواكب الثورات الثلاث : السياسية والاقتصـادية والاجتمـاعية النابعة من الثورة الأم : ثورة يوليو ١٩٥٢ · فاذا كانت الثورة قد عملت على نشر الثقافة على مستوى الكم فانها لم تبلور جوهرها وتطوره على مستوى الكيف · فليس يكفى أن نوسـع دائرة الانتـاج الثقافى ودائرة التوزيع ، وأن نغير من اتجـاه السير ، فنذهب بالأفكار من المدينة الى الريف ، أو نأتى بها من الريف الى المدينة ، ونعلو بها طبقيا من أدنى الى

أعلى ، او نهبط بها من أعلى الى أدنى · ان هذه الحركة قد تحدث تغيرات كثيرة على السطح . ولكنها تغيرات لن تبلغ أن تكون ثورة فكرية ، لأن الثورة هي أن تغير الكيف نظريا وعمليا ·

كانت ثورتنا بحق ثورة سياسية ، وثورة اقتصادية ، وثورة اجتماعية في آن واحد ، لأنها في كل هذه الميادين الثلاثة لم تقتصر أمرها على السطح دون الأساس ، فهي ثورة سياسية لأن نمط الحكم قد تغير من أساسه ، فأصبح حكما جمهوريا يتولاه الشعب ، بعد أن كان ملكيا تتولاه أسرة حاكمة بالوراثة ، وهي كذلك ثورة اقتصادية ، لأن نمط الانتاج والتوزيع والملكية قد تغير من أساسه ، فأصبح الجانب الهام من ذلك كله في يد الدولة توجهه الى جمهرة الشعب العامل ، بعد أن كان في أيدى أفراد يوجهونه الى القلة القليلة ، وهي ثورة اجتماعية لأن هيكل البناء الاجتماعي قد تغير من أساسه ، فأصبح الزمام في أيدى قوى الشعب العامل ، بعد أن كان الزمام في أيدى من يملكون ولا يعملون ·

الثورة هي أن يتغير الأساس ، أن يتغير النمط أو المنوال ، تغيرا يتبعه بالطبع أن يتغير المحصول الناتج ، وأن تتغير الأوضاع والقوانين ، بما يتناسب مع الأساس الجديد ، أو النمط الجديد ، أو المنوال الجديد· لكن زكي نجيب محمود يوضح أن منوالنا الفكرى لم يتغير ، وأن النمط الذى نسوق نشاطنا الفكرى فى اطاره ، ما زال كما كان منذ قرون ، فمنوال النسيج فى هذا المجال باق على حاله ، برغم ما غيرناه من ألوان الخيط المنسوج وزخارف القماش ومقدار ما ينتج منه وطريقة توزيعه على النـــاس ·

والمنوال الفكرى القديم الذى يعنيه فيلسوفنا المعاصر ، قوامه عناصر كثيرة ، لعل أهمها جميعا هو الركون الى « سلطة » فكرية نستمد منهـا الأسانيد ، ومثل هذه السلطة الفكرية تتمثل عادة فى نصوص بعينهـا محفوظة فى الكتب ، وان تكن تتمثل أحيـانا كذلك فى أقوال يتبادلها الناس ، وهى التى تسمى الفكر ، صـوابا اذا هى اتسقت مع ما أقرته السلطة الفكرية فى الكتب المحفوظة أو فى تلك الأقوال المأثورة ، كما تكون الفكرة خطأ اذا جاءت مخالفة لما أقرته تلك السلطة · ومن هنا اشتد سلطان الماضى على الحاضر ، وأصبح البرهان الذى لا يرد ، هو أن نسوق « الشـواهد » من سـجل الأقدمين ، وانحصرت قوة الابداع الفكرى فى القدرة على ايجاد السند من القول الموروث ·

ان المعيار الذى تميز به بين درجات العلماء ، يوشك أن يكون : كم حفظ الرجـل ؟ وكم فى وسعه أن يأخـــذ من المحفـوظ لكل ســياق ما يناسبه ؟ ولقــد تعلو قيمة النصوص المحفوظة وقد تنخفض ، لكنها

نصوص قائمة على كل حال ، نتخذها سقفا لا نجاوزه برءوسنا ، مهما اجزنا لأنفسنا بعد ذلك من حرية الحركة تحت ذلك السقف العاجز . ولذلك فان النمط الفكرى الذى نحيـا به ، من أعلم علمائنا الى أصغر تلاميذنا ، هو أن يكون بين أيدينا مادة بعينها فى الكتب أو فى الكراسات، نحفظها حفظا ، أو نجعلها فى متناول الأيدى ، لنستمد منها العلم كلما اردنا علما ، لكن أن نركن الى خبراتنا الحية فيما نريد أن نعلمه ، فذلك أمر ما يزال بعيدا عنا كما كان بعيدا عن أسلافنا مدى القرون العجاف فى تاريخنا الفكرى ، لأننا ما زلنا ننسج على المنوال الفكرى القديم الذى نسج عليه الآباء فى عصور ضعفهم .

ويحدد زكى نجيب محمود طريق الثورة الفكرية فيقول انه نفس طريق الثورة فى أى مجال آخر : فى السياسة ، او الاقتصاد ، او بناء المجتمع . وليست الحياة الفكرية شذوذا وحدها ، تحتاج الى طريق ثورى مختلف فى طبيعته عما تحتاج اليه الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية . فطريق الثورة فى كل هذه الميادين على حد سواء ، هو أن يضيق النمط القائم عن مواجهة ما استحدث من مشكلات ، فتتأزم صدور الناس ، ويشتد التأزم بها كلما اتسعت الهوة بين المعايير القائمة من جهة، وما يراد اخضاعه لتلك المعـايير من جهة أخرى ، فلا يجد الناس عندئذ سبيلا الى الخروج من أزمتهم تلك الا بالبحث عن نمط جديد ، يمدهم بمعايير جديدة ، تتكافأ مع المشكلات التى استحدثتها حياتهم الجديدة .

ذلك هو طريق الثورة فى كل ميادين الحياة : احلال نمط جديد محل نمط قديم ، فاذا كان نمطنا الفكرى القديم هو فى جوهره الرجوع الى المحفوظ لنلتمس الحلول لمشكلاتنا ، بحيث تقتصر جهودنا على عملية الشرح وتخريج المعانى ، فلن تكون لنا ثورة فكرية الا اذا أحللنا نمطا جديدا محل هـذا النمط القديم ، فيكون معيارنا هو : ما هى النتـائج العملية المستقبلة التى تترتب فى حياتنا الفعلية ، على هذه الفكرة أو تلك مما يقدمه لنا رجال الفكر ، بعد أن كان المعيار هو : ما هى الشواهد من نصوص الكتب الموروثة التى تؤيد أو تفند الفكرة التى تقدمها . وهو المعيار الذى يدلل عليه فيلسوفنا المعاصر من واقع حياتنا العملية بأمثلة دامغة فيقول :

« لقد طالعت مقالا فى مجلة عربية واسعة الانتشـار يبحث فيها كاتبها عن زراعة الأرض ، أتجوز للمسلم أم لا تجوز ؟! ولقد حاول الكاتب بكل علمه الواسع فى النصوص القديمة ، أن يجد لنا « الشواهد » التى تدل على أن المسلم يجوز له شرعا أن يزرع الأرض !! فاذا كانت زراعة الأرض تتطلب من رجل الفكر فينا أن يقلب فى مراجعه ليستخرج منها

الأدلة على جوازها أو عدم جوازها ، فماذا بقى لدفعة الحياة وضروراتها أن تفعل ؟ بل ان منا من يقلب في النصوص ويقدح ذهنه في شرحها ، ليقول لنا آخر الأمر أنه واجب علينا أن نستعد للحرب بالسلاح من دبابات وطيارات ، كأن هؤلاء السادة اذا عجزوا عن ايجاد الشواهد المؤيدة ، كففنا عن زراعة الأرض وأمسكنا عن الاستعداد للقتال بأسلحة القتال » ٠

وعلى الرغم من هذا المناخ الفكرى السائد ، فانه من حسن حظنا أننا في كثير من ميادين نشاطنا الفعلى ، نمضى على الطريق مهتمين بالخبرة العملية والعلمية في توجيه السير وفي تصحيح المسار ، لكننا كذلك في بعض الميادين الأخرى قد يسوء بنا الحظ ، فيكون لهؤلاء السادة تأثير يعرقل السير ، ويكتفى الدكتور زكى نجيب محمود بأن يسوق حياة المرأة الجديدة مثلا لذلك ٠ فهى لا تزال ترسف في الأغلال والقيود ـ بحكم القوانين ان لم يكن بفعل الواقع وحيويته ـ والا فهل يعقل أن تبلغ امرأة ما بلغته من مقاعد الوزارة وأستاذية الجامعة ، ومن مناصب التوجيه والتأثير في ميادين البحث العلمى والطب والهندسة والزراعة والقانون والاقتصاد حتى اذا ما طالبت بتغيير بعض القوانين لتتناسب مع وضعها الجديد ، كانت الاجابة أن تراجع القصص التى عاشت في ظلها أمهاتها وجداتها منذ قرون ٠ ولو كانت النصوص حاسمة في قضائها لقلنا نعم ، لكنها في معظم الحالات « حمالة أوجه » ٠

ويطالبنا الدكتور زكى نجيب محمود بتحليل الثورة الفكرية التى ثارت بها اوروبا على قديمها لتحل محله جديدا يناسب حياتها الجديدة ، وكان ذلك في عصر النهضة الذى تناولت فيه أوروبا البناء العقلى السائد من أساسه فاستحدثت لنفسها منطقا جديدا ، أهم معالمه أن تكون الخبرة المباشرة عقلية كانت أو حسية ، هى نقطة الابتداء ، ولا تكون نقطة الابتداء أقوالا حملتها اليهم موجات الزمن ٠

ان عبقرية الانسان هى في مواجهته للحياة بالجديد المبتكر ، ولقد أراد الله لهذا الانسان أن ينظر الى أمام ، ومن ثم كانت أبصارنا في جباهنا ، ولم تكن في مؤخرات رؤوسنا ٠ لكننا في العالم العربى لا ننظر الى الأمام ، وحتى الذين نظروا منا الى الأمام لم يستطيعوا تحقيق الثورة الفكرية الشاملة ٠ فقد كانت لنا بالفعل بعض المحاولات في تغيير النمط الفكرى القديم ، ليكون لنا بالنمط الجديد حياة جديدة مثلما فعل طه حسين عندما قام بتدريس الأديب القديم نفسه غير متأثر بأحكام القدماء ، وما حاوله العقاد وكثيرون آخرون من شعرائنا في أن يصدروا عن خبراتهم

الفردية الخاصة والمباشرة · لكنها كانت محاولات مبعثرة ، لم تفلح آخر الأمر في ان تحقق لنا الثورة الفكرية الشاملة ·

ولا نزال نخاف من احداث هذه الثورة لأن الكلمة المسموعة هي لغير الراغبين فيها ، بل وللرافضين لها تماما · ولا حرج عليهم أن يعلنوا عن رأيهم في صراحة وعلانية ، اما الراغبون في مثل هذه الثورة الفكرية فمضطرون الى المراوغة في التعبير عما يريدون ، اجتنابا منهم لوجع الدماغ ، تاركين لقرائهم أن ينزعوا المعاني من بين السطور · لكن هذا لن يكفي لأننا نريدها ثورة فكرية تلوى أعناقنا ، لتشد أبصارنا الى المستقبل بعد أن كانت مشدودة الى الماضي · ان تراثنا عظيم مجيد ، لكن أقصى حدوده هو أن نقرأه ليوحي الينا بما يوحي ، لا لنستمد منه القواعد والقوانين التي يجب أن يستخرجها العقل الانساني من واقع التجربة العملية المعاشة ، ومن استقراء ملامح المستقبل المحسوب الذى أصبح علما قائما بذاته ·

لقد بات في وسعنا اليوم ــ الى حد كبير ــ أن نكتب للمستقبل « تاريخا » كما نكتب تاريخ الماضي ، برغم أن الماضي قد تم حدوثه وعرفت تفصيلاته ، وأن المستقبل لا يزال غائبا ، فكما نعرف كم كان سكان مصر سنة ١٩٠٠ ، يمكننا أن نحدد كم سيكونون سنة ٢٠٠٠ ، وكما نعرف كيف كان التعليم وكم كانت نسبته ، وكيف كانت الزراعة ، وكم ؟ وكانت الصناعة او كانت جوانب الحياة الأخرى ، يمكننا أن نحدد ــ بدرجة كبيرة من الدقة ــ كيف ينتظر لهذه وهذه وتلك أن تكون . ولولا ذلك لما جاز لنا أن نتحدث عن « التخطيط » لسنة قادمة ، او لخمس سنوات ، أو لعشر ، أو كيفما تكون الخطة ومداها ·

وكلما ازدادت القدرة على حساب المستقبل ورؤيته قبل وقوعه ، على أسس علمية صحيحة في رصد الوقائع وفي استدلال النتائج ، نقصت الأوهام والمخاوف . وبطل التفاؤل والتشاؤم لأنهما ينتجان عن جهل الانسان بمجرى الأحداث في حاضرها أو في مستقبلها ، ولو علم الانسان بتلك الأحداث كيف تجرى وماذا يتولد عنها ، لما تفاءل ولا تشاءم ، اذ كل ما يطلب منه عندئذ هو أن ينظر الى الأمور الواقعة ــ أو التي سوف تقع ــ ليراها كما هي في حقيقتها ، فيبنى على علمه بهذا الواقع المرئي خط سيره ، وأما اذا كان في الأمر المعروض جانب نجهله كل الجهل أو بعضها ، فنحن مضطرون في هذه الحالة الى أن نركن الى مجرد الشعور بالخوف أو بالطمأنينة حسبما تكون الحال ·

ولقد كان المستقبل المجهول دائما مثيرا للمخاوف ، ولم تكن كذلك نظرة الانسان الى ماضيه ، لأن الماضي قد وقعت حوادثه وتكشفت ،

فلا غرابة ان كان الماضى موضع أمن ، فكثر الداعون الى العودة اليه ، بدل المغامرة فى عالم مجهول العواقب ، ولكم اشتدت رغبة الانسان فى أن يكشف الغطاء عن مستقبله ، ولم يكن بين يديه علم يركن اليه ، فلجأ الى حاسب النجوم ، وقارىء الكف ، وضارب الرمل ، وفاتح الودع ٠٠٠ الى آخر أعضاء هذه الأسرة غير الكريمة ممن زعموا العلم بما هو مغيب مجهول ٠

فى مثل هذه الحالات التى يمتزج فيها علم بجهل ، وظاهر بخبىء ، يبرز صنفان من الناس ، صنف يفر من المستقبل المخوف ، ليلوذ بالماضى وقواعده وأوضاعه لأنه مجرب معروف ، وصنف آخر يغامر نحو الجديد ، وان يكون مجهولا ، الا أنه ــ لكونه مجهولا ــ باعث على الأمل ٠ وهذا الفريق الثانى يرفض حجة الفريق الأول على أساس أن الماضى زاخر بالظلم والذل والفقر والجهل والمرض ، فلماذا لا نعلق رجاءنا على مستقبل جديد، ربما جاء فبدل لنا هذه الشرور بأضدادها ؟

هذان الصنفان من الناس ــ بصفة عامة ــ هما اللذان نطلق عليهما حينا أنصار القديم وانصار الجديد ، وحينا آخر نطلق عليهما الرجعيين والتقدميين ، وحينا ثالث حزب اليمين وحزب اليسار ٠ لكن الفكرة واحدة فى كل هذه المجالات وهى أن المستقبل لم يكشف لنا عن نفسه بعد ، فهل ننجو بجلودنا من شر المجهول لنلوذ بالماضى المعلوم المجرب ، أو نغامر نحو جديد مقبل لعله ينقذنا مما نحن فيه من صنوف الشر والأذى ؟

واذا كان الدكتور زكى نجيب محمود يقر بالفارق الجوهرى بين اليمين واليسار الذى يجعل الجمهور العريض محور مشروعاته ، لا القلة القليلة المحظوظة ، وهو أساس لم يعد بيننا مواطن يتنكر له ، فان فيلسوفنا يعتقد أيضا بأننا كلما ازددنا علما صحيحا بالعالم من حولنا وعلما صحيحا بمشكلتنا ورؤية واضحة لمستقبلنا ولأهدافنا اذ زاد الفريقان ، اقترابا أحدهما من الآخر ، لأن التفرقة بينهما أساسها ــ الى حد كبير ، الجهل بما سوف يكون ، أما اذا سلطنا نور العلم على الصورة التى سوف يجىء عليها المستقبل فى ظل مشروعات بعينها ، زالت من تلقاء نفسها أهم مبررات الاختلاف ٠

ان حديث الدكتور زكى نجيب محمود حديث شهى خصب عميق لا يمل المرء من أن ينهل منه دائما ليستزيده من منابع التنوير التى لا تنطفىء عنده أبدا ٠ ان فكره الحاسم الموضح المحدد المتبلور يحتم علينا أن يكون بين ايدينا الأهداف الواضحة والعلم الصحيح فى طريقة الوصول اليها ، وهو يكرر كلمة « العلم » فى كل كتاباته ليؤكد معنى

العلم كما يمارسه العلماء في معاملهم واحصاءاتهم واستدلالاتهم · فلم يعد أمامنا خيار سوى أن نحصى الواقع احصاء سليما ، ونحلل المشكلات تحليلا علميا وافيا ، وتنظر الى الحلول كما ينظر العلماء حين يعالجون ما يعالجونه فى بحوثهم ، عندئذ ستتلاشى الفروق المصطنعة بين أنصـــار القديم وأنصار الجديد ، أو بين أهـل اليمين واهـل اليسار ، فالفكر الحضارى ساطع كالشمس ولا ينكره سوى العاجز عن رؤيته ، ولا يختلف حوله سوى الجاهل أو المغرض أو المتخلف ·

● د. لويس عوض

● د · لويس عوض

لويس عوض من المفكرين المصريين الذين يصرون على أن تتحول كل كلمة يقولونها أو يكتبونها الى حجر يلقى فى بحيرة الفكر العربى الراكدة لتحريكها واثارة الأمواج فيها بقدر الامكان ، حتى لو ارتدت هذه الأحجار الى صدره · انه من الكتاب الذين يحملون فى داخلهم الدقة والموسوعية الأكاديمية ممزوجة بجرأة الروح القتالية · فمثلا قد نختلف معه فى مواقفه العدائية أو المتجاهلة لوجـود القومية العربية فى حياتنا ، وفى تركيز دراساته وكتاباته على الثقافة المصرية المعاصرة وجذورها الممتدة فى الماضى القريب بلا أى اهتمام بربطها بالثقافة العربية التى تشكل الوعاء الأكبر ، فاننا مع هذا نجد أن مشكلات الثقـافة المصرية التى يعالجها بتحليـلات ونظرات أصيلة ومبتكرة ، تكاد تتطابق مع مشـكلات الثقـافة العربية بصفة عامة ، نظرا للظروف الحضارية المتشابهة · ولذلك فان انجازات الدكتور لويس عوض فى مجال الفكر والثقافة والحضارة تمتد لتضـع نفسها فى خدمة المثقفين والمفكرين العرب ، ومن هنا كانت المكانة الأثيرة التى يتمتع بها لديهم · فمهما تكلم عن خصوصية « الشعب المصرى » متبعا فى هذا خطوات العلامة الفرنسى المعاصر جاك بيرك الذى حاول فصل مصر سياسيا وفكريا وعقائديا وحضاريا عن جسم الأمة العربية ، فان لويس عوض يظل رائدا من رواد التنوير العربى المعاصر ·

ويهتم لويس عوض اهتماما خاصا بثقافتنا المعاصرة ، ويحاول تتبع جذورها حتى يضع أمام القراء والدارسين الأسباب الأولى التى أدت الى النتائج الراهنة · وفى هذا السبيل لا يجد مناصا من التركيز على الوجوه السياسية والسوسيولوجية الأساسية من حياتنا الثقافية والفكرية · وحتى

فى تحليله لقضـايا الفن والأدب يكتفى بمناقشـتها من حيث عـلاقتها بالمجتمع • ولذلك فهو يلعب دور المفكر والمثقف الموسوعى أكثر من دور الناقد الفنى المتخصص •

واذا كان معظم نقادنا يحددون بدايات ثقافتنا المعاصرة بفترة ما بين الحربين ، فان لويس عوض قد زحزح هذه الحدود الى الأمام قليلا بحيث تبدأ بثورة ١٩١٩ وبحيث تحتوى أيضا سنوات العاصفة والاندفاع السبع السابقة لثورة ١٩٥٢ مباشرة ، ولذلك فهو يسمى تلك الفترة بفترة ما بين الثورتين حتى يمكن أن تلتقى روح العصر وروح المكان •

ولما كانت ثورة ١٩٥٢ تدرك أن جوهر الديمقراطية هو نقل السلطة السياسية الى الشعب ، وتدرك أن السلطه السياسية لا معنى لها بغير السلطة الاقتصادية ، فقد اختارت طريق الاشتراكية على نفس النهج الذى اختارت به ثورة ١٩١٩ طريق الديمقراطية الليبرالية وعلى نفس النهج الذى اختارت به ثورة ١٨٨٢ طريق تمصير الجيش والادارة الواقعين يومئذ تحت سيطرة الأتراك • وسواء أكانت الفكرة الثورية هى الاشتراكية أو الديمقراطية الليبرالية أو التمصير فان الفكرة الثورية المصرية لم تكن فى يوم من الأيام فكرة ميتافيزيقية غيبية ، بل كانت دائما فكرة محسوسة عملية واقعية الى درجة الاتزان، وزمنية أى علمانية الى حد بعيد • ولم تكن فى أى وقت من الأوقات مرتبطة بعقيدة صوفية فى حق الهى من نوع أو من آخر أو برؤى وهمية لمدينة فاضلة ، وانما كانت باستمرار تجابه المسائل مجابهة مباشرة وتسمى الأشياء بأسمائها • وفوق هذا وذاك كانت الفكرة الوثرية المصرية عظيمـة الاعتـدال وابراجمـاتية (التجريبية) لا يخالطها من الفكر النظـرى الا القليل ، كما كانت على وجـه القطع لا يشوبها تطرف أو وحشية تذكر •

بل ان الطبيعة الزمنية الملازمة للفكرة الثورية المصرية ترجع تاريخيا - فى نظر لويس عوض - الى عام ١٧٩٨ عام بونابرت وحملته الفرنسية التى جعلت من مصر دولة زمنية علمانية • وفى الواقع أن بونابرت لم يحول مصر الى دولة زمنية علمانية الا بالمعنى التاريخى فقط • فما أن فك بونابرت عن مصر أغلال المماليك والترك حتى اكتشف أنه يتعامل مع أمة علمانية فى جوهرها بلا أوهام عن الثيوقراطية أى حكومة الله ، التى قامت عليها الخـلافة العثمانية • فسرعان ما اكتشف أن المصريين كانوا أيضا بلا أوهام عن مبادىء الثورة الفرنسية ذاتها • وكانت هذه العلمانية أوضح ما تكون فى قادة الفكر والثقافة فى ذلك العصر وهم علماء الأزهر ، الذين أبدوا استعدادهم على الفور بقيادة الشيخ الشرقاوى لحمل مسئوليات حكم مصر فى اسـتقلال عن السـيطرة الثيوقراطية التى كانت تفرضها

الخلافة العثمانية . ذلك باستثناء السيد عمر مكرم الذى فر مع المماليك والأتراك وراء الحدود المصرية ، غالبا بسبب وضعه الدينى الخاص فى العالم الاسلامى بوضعه « نقيب الأشراف » أى الرئيس الاعلى للطرق الصوفية ، اشترك هؤلاء العلماء فى الديوان الصغير أو مجلس الوزراء وفى الديوان الكبير أو هيكل البرلمان الذى أنشىء فى ذلك العصر واشتغلوا بجد نحو بناء دولة علمانية واقتصاد علمانى ومؤسسات علمانية فى أرض مصر ، واقتبسوا للحياة المصرية ما وجدوه نافعا فى المؤسسات المدنية والتجربة الاجتماعية والمعرفة العلمية الأوروبية . بل لقد تداولوا فى تزويد برامج الدراسة فى الأزهر بالعلوم الزمنية ليجعلوا الدراسات الاسلامية أقدر على مواجهة تحديات ذلك العصر فالأزهر هو الذى قاد الحركة الوطنية المصرية لطرد الفرنسيين وانشاء دولة علمانية فى مصر فى عهد محمد على ، وليس الجماعات الثيوقراطية السرية وشبه السرية التى تسمى بالطرق الصوفية . وقد كانت تعمل فى اتصال وثيق مع الخلافة العثمانية ومع المماليك باسم وحدة العالم الاسلامى .

وتبعا لهذا نجد أن الحركات الثقافية والفكرية المصرية ، بغض النظر عن لونها أو مداها أو زيها ، كانت دائما تتجه على الأقل منذ ١٧٩٨ الى اتخاذ مسارين — :

الأول : وهو الأكبر هو التيار العلمانى وهو تيار وطنى ومعتدل سواء فى وجهه المحافظ أو فى وجهه الراديكالى .

الثانى : وهو الأصغر ، هو التيار الثيوقراطى وهو تيار متطرف ارهابى ، وتعاصر هذين التيارين يعطى للتاريخ المصرى فكرة الاستمرار .

فليس خاليا من المغزى أن الشيخ رفاعة الطهطاوى (وهو مصنع أزهرى كان تلميذ حسن العطار شيخ الأزهر وتشرب مثل أستاذه مبادىء الثورة الفرنسية ، وكان الأب الروحى لليبرالية العلمانية المصرية ثم فيما بعد للراديكالية) قد نفى الى السودان فى عهد عباس الأول . فقد دعا الطهطاوى بين المصريين فى تاريخ باكر هو عام ١٨٣٤ الى المبادىء الجمهورية ، وترجم الى العربية ميثاق ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا المعروف « بالشرطة » . كذلك ليس خاليا من المغزى أن أحمد فارس الشدياق (وهو شخصية لبنانية قلقة تبنتها الارساليات البروتستانتية وكان يدعو فى العالم العربى الى الاشتراكية المسيحية ثم اعتنق فيما بعد الاسلام ودخل الباب العالى) ، وكان أكبر مشهر بعرابى لحساب الباب العالى . مثل هؤلاء الرجال كانوا رموزا لعصورهم ، وقد استمر تأثيرهم المتعاقب يشكل مصير الحياة الفكرية والثقافية فى مصر حتى القرن العشرين . وقد امتد خط الطهطاوى خلال محمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد

وطه حسين والعقاد وسلامة موسى ومحمد مندور . أما خط الشدياق فقد امتد خلال عبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا وعبد العزيز جاويش وطنطاوى جوهرى وحسن البنا .

وعندما يقوم لويس عوض بعملية مسح للحياة الفكرية والثقافية فى مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، فانه يؤكد أن الديمقراطية الليبراليه التى ارتبطت بهذه الفترة سواء فى السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة ، لم تخرج عن نطاق الشكل أو الهيكل الخالى من أى محتوى حقيقى . ويدلل على قوله هذا أن الأدباء والمفكرين لم يكن مسموحا لهم بتحريك الحياة الثقافية نحو أية تطلعات أو آفاق تمس ما هو قائم بالفعل . فقد أنتجت فترة ما بين الثورتين فى التاريخ المصرى اتجاهين رئيسيين سيطرا على حياه مصر الثقافية والفكرية طوال العشرينيات وبعض الثلاثينيات حتى « الحل الأوسط الكبير » فى عام ١٩٣٦ على وجه التقريب . وكان من الغريب أن تتعاصر فيها حركتان : حركة رومانسية وحركة تنوير . وقد غذت القومية الليبرالية والديمقراطية الليبرالة الدافع الرومانسى الذى عبر عن نفسه فى موسيقى سيد درويش المرحة ، وفى نحت محمود مختار بكل ما يتسم به من جلال وصرامة ، وفى مقتبسات المنفلوطى الدامعة « لبول وفرجينى » و « ماجدولين » ، وفى ترجمات الزيات الرائعة لروايته « آلام فيرتر » و « بحيرة » لامارتين وقصيدته « جراتز بيلا » ، وفى تعريب محمد عوض محمد للجزء الأول من « فاوست » لجيته . تلك كانت الأيام التى كان يمثل فيها يوسف وهبى وجورج أبيض وروز اليوسف وفاطمة رشدى أمام جمهور بالغ الحماسة « لويس الحادى عشر » لكازيمير دى لافينى ، و « سيرانو دى برجيراك » و « النسر الصغير » لادمون روستان ، و « غادة الكاميليا » لاسكندر دوماس الابن الى جانب طوفان من الميلودرامات العبوس مترجمة كانت أو مقتبسة أو مصنوعة محليا .

وفى مجال الشعر كانت عبقرية شوقى الشامخة هى التى أجلت ازدهار مدرسة أبولو التى كان عمادها أبو شادى وناجى وعلى محمود طه . وهى مدرسة ديونيزية أكثر منها أبولونية ، رغم أن شوقى نفسه تحول فى شيخوخته الى الرومانسية فلم تستطع مدرسة أبولو أن تجد مجالها الحيوى الا بعد موت شوقى فى ١٩٣٢ . وبرغم أن جبران خليل جبران كان فى العشرينيات نموذجا يحتذى فى مصر الى حد لا بأس به ، فان الينبوع الحقيقى الذى نهل منه الشعر الرومانسى المصرى كان أبو القاسم الشابى كما كان ايليا أبو ماضى ذا أثر عظيم . وهكذا يقرر لويس عوض أن الثقافة المصرية لم تنفصل يوما عن منابعها الكامنة فى الثقافة العربية ، برغم ايمانه بما يسميه خصوصية مصر ونوعيتها القومية المتميزة .

ومن الغريب أن عملاق الرومانسية المصرية كان عباس العقاد الذى لا يتصوره أحـد مطلقا كاتبا رومانسيا بسبب عمق جذوره فى التراث الكلاسيكى · ومع ذلك كان العقاد أخطر معبر عن الجوانية فى مصر · وقد كان شخصية أشبه ما يكون بكارلايل أو ايمرسون سواء فى الحياة أو فى الأدب · وبرغم انه كان بين الكافة من كتاب مصر أصلب مدافع عن الديمقراطية الليبرالية حتى ١٩٣٦ · الا أنه كان أبعد ما يكون عن التسامح الليبرالى وعن الديمقراطية فى موقفه من الحياة ومن الفن · وكانت فلسفته فى الفن تقوم على حق الشاعر الالهى ، وهو مبدأ لا فرق بينه وبين فكرة « الشاعر النبى » عند شيللى فى « دفاع عن الشعر » أو « فكرة العبقرية الخلاقة » عند جيته فى مرحلة شبابه ، مرحلة العاصفة والاندفاع ، أو حتى فى مرحلة « الشعر والحقيقة » · لقد كان العقاد متشربا بالمثالية الألمانية من فيخته الى نيتشه الى حد التشبع فلم يكن من الممكن أن يخرج منه ليبرالى أصيل · وفى الواقع لم تكن له صلة بالليبرالية الا ايمانه الذى لا حد له بقيمة الفن وطاقاته · وقد انتهت عبادته للبطولة الى ما يشبه العقيدة الدينية الأصيلة التى تفجرت فى الصورة الشامخة التى رسمها لسعد زغلول فى سنة ١٩٣٦ ثم تفجرت فيما بعد فى عبقرياته الشهيرة أو سير أعلام الاسلام فى فجر الاسلام ·

هذه هى قصة الحركة الرومانسية كما رواها لويس عوض . وقد اثبت أنها من الناحية التاريخية الهمت القومية الليبرالية والديمقراطية الليبرالية كما استلهمتها فى الوقت نفســه · فقد كانت حـركة دافقة العـاطفة وكان محركها الأول هو الحماسـة · كانت مدرسـة قوامها « الوجدان » ، ولكن دمغتها المثالية الزمنية الفرنسية والفردية التجريبية الانجليزية · وفى مرحلتها المكافحة عبرت عن نفسها فى كتابات العقاد المتدفقة بالعاصفة والاندفاع ، وفى مرحلتها الهروبية عبرت عن نفسها فى التهويمات الحزينة عند المنفلوطى والزيات وفى شعر ناجى ومدرسته التى شاعت فيها السـوداوية أو « مرض القـرن » ودخلت الرومانسية المصرية شفقها فى سنة ١٩٣٦ أو نحو ذلك · ويرى لويس عوض أن آخر بنيهاـ كمحمود حسن اسماعيل وصالح جـودت وعبد الرحمن الخميسى وأحمد فتحى وكامل الشناوى فى مجال الشعر ، وكيوسف جوهر وسعد مكاوى وابراهيم الوردانى وزكريا الحجاوى فى مجال النثر ، كانوا قد أنفقوا أكثر طاقتهم فى السنوات العشر التالية أو نحوها ثم أوشكوا أن يصمتوا عن الكلام بأى معنى خلاق حقيقى ·

ونحن نختلف مع لويس عوض فى هذه المقولة لأن معظم الذين حدد أسماءهم ظلوا قادرين على العطاء حتى الآن ، كذلك فان الذين رحلوا منهم

مثل : أحمد فتحي وصالح جودت ومحمود حسن اسماعيل وكامل الشناوى وزكريا الحجاوى واصلوا العطاء حتى رحيلهم بطريقة أو بأخرى • وبذلك يكون لويس عوض قد مسح حوالى ثلاثين عاما من استمرارية انجازاتهم ، لأنه ربط الثقافة بالسياسة أكثر مما تحتمل العلاقة بينهما • فهو يرى أنه عندما أصبحت القومية الليبرالية والديمقراطية الليبرالة صيغا لا مدلول لها تراجع هؤلاء الكتاب البورجوازيون الطيبون الى الخلفية وأخلوا الأرض لجيل جديد من الروائيين الفرديين ، أقل منهم رومانسية واقوى عضلات لمواجهة المد الصاعد للمدرسة الواقعية الاشتراكية التى أخذت تتجمع منذ نهاية الحرب ، ويعني به لويس عوض جيل يوسف السباعي واحسان عبد القدوس وأمين يوسف غراب ومحمد عبد الحليم عبد الله وثروت أباظة • ففي أعمالهم نجد لونا من القصص يصور الحياة في صورة وردية أو نجد نقدا بورجوازيا مشبعا بحسن النية لوجوه التسخف في المجتمع البورجوازى ، أو نجد أوصافا ذات بعدين للسلوك الحسي غير المعذب عند الحيوان البورجوازى •

ويرجع لويس عوض أن الفردية المكافحة المجردة من الأحلام التى تميز بها كتاب هذه المدرسة ، وقد كانت واسعة الشعبية بالغة القوة في أواخر الأربعينيات وطوال الخمسينيات ، هى التى عصفت بمدرسة الواقعية الاشتراكية فى مجال القصة وهى لا تزال فى براعمها وخسفت ضياء المواهب المرهفة القليلة الثقة في الذات كمواهب يحيى حقى وشكرى عياد ويوسف الشارونى ، وجعلت من أعسر العسير على الجيل الأصغر من الروائيين كفتحى غانم ومصطفى محمود ومحمود السعدنى وعبد الله الطوخى وصبرى موسى ، أن يجدوا جمهورا أوسع • ومع ذلك فقد استطاع روائيان بورجوازيان توفرت لهما الموهبة الكبيرة لا أن ينجوا فحسب بل أن ينتصرا كذلك على هذه المدرسة المرتاحة من الروائيين من أبناء الطبقة المتوسطة وهذان هما نجيب محفوظ فى الأربعينيات ويوسف ادريس فى الخمسينيات : الأول انتصر بالنظام والانضباط والثانى انتصر بفوضى العناصر وقد جرب كل منهما بنجاح كبير فى مرحلته الأولى منهج الواقعية الاشتراكية تجربة الهواة ، ولكنه اكتشف فى النهاية أنه يستطيع أن ينشىء فنا ممتازا بالتعبير عن روح جيله المعذبة المسحوقة تحت أنظمة اجتماعية منهارة وتحت قوى تحكم مصير الانسان الفرد ، قوة مظلمة لا سبيل الى استكناهها كتلك القوى التى كانت تحكم الكون قبل الطوفان• ويرى لويس عوض أن محفوظ وادريس هما كاتبا القصة الوحيدان اللذان واجها امتحان الزمن بنجاح ملحوظ ، لكنهما بغير ذرية •

أما الاتجاه الرئيسى الثانى فى فترة الثورتين فقد كان مدرسة

« التنوير » التى كانت محافظة وأرسطاطاليسية فى السياسة ، لكنها كانت ليبرالية فى الفكر والثقافة · ولذا فقد حفظت أكثر من أية مدرسة أخرى الاتجاه العقلانى فى تاريخ مصر الحديث · وقد كانت مدرسة مثقفة الى حد الترف ، شكاكة الى حد الهرطقة وكانت تبشر بالتسامح وضبط النفس فى كل وقت من الأوقات · ولم تكن الحماسة من صفاتها ولم يكن الوجدان من سماتها · ودافعت ببسالة عن حرية الفكر وحرية البحث وحرية التعبير · وكان أتباع هذه المدرسة فى أغلبيتهم من الأرستقراطيين ومن لاذوا بالأرستقراطية مثل : على عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمى وغيرهم من الذين تجمهر أكثرهم من حول حزب الأحرار الدستوريين ، عدو الوفد الأكبر · وكان محمد حسين هيكل ، الذى بدأ حياته كناقد بكتاب عن جان جاك روسو ، عضوا فى هذه الجماعة ، أما آخر كاتب من كتابها ، وهو طه حسين ، فقد انتقل الى الوفد بعد موت سعد زغلول · ولكنهم كانوا يظنون أنهم يمثلون الديمقراطية أى حكم الشعب وليس الموبوقراطية أى حكم الرعاع ، محتذين حذو مؤسسهم الارسطاطاليسى العظيم لطفى السيد ·

ففى أوائل العشرينيات بدا وكأنما « التنوير » الفرنسى كان يقف وجها لوجه أما « اليعقوبية » اى الثورة العاطفية التى لازمت الرومانسية البورجوازية الفرنسية · وقد دخلت العقلانية المصرية جملة معارك خسرتها · فديكارتية طه حسين الأولى تجلت فى محاولته اعادة فتح باب الاجتهاد فى الشعر الجاهلى والقصص الجاهلى بروح تشابه روح فولف حين أعاد فتح باب الاجتهاد فى الملاحم الهومرية · وقد صودر كتاب من كتبه وقدم للمحاكمة ولولا النفوذ السياسى الذى كان يتمتع به المستنيرون لما نجا من السجن ولما احتفظ بكرسيه فى الجامعة · وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لعلى عبد الرازق حين أراد أن يثبت أن الخلافة ليس لها أساس دينى فى الاسلام · ولذلك تركت العقلانية المصرية آثارا قليلة جدا فى الحياة الفكرية المصرية · وقد حدد عام ١٩٣٦ اندثارها غير الرسمى بمثل ما حدد اندثار الرومانسية المصرية · أما الأثر العظيم الذى تركه طه حسين على حياة مصر الثقافية ، فقد كان مرده على الأرجح تخليه عن الارستقراطية المستنيرة وانضمامه الى موبوقراطية الأمس ·

ومع ذلك لم يكن هناك خوف حقيقى من انتكاسة بالعودة الى السيطرة التركية ، فقد كانت السيطرة التركية منذ ١٩١٨ خرافة من خرافات الماضى · غير أن ذكريات المصريين عن اساءات الحزب الوطنى ، الذى انطلق بعد موت مصطفى كامل فى الدعوة ، باسم وحدة العالم الاسلامى ، للامبراطورية العثمانية وللاستبداد الخديوى بغير ضابط أو

رابط ، كانت لا تزال حية فى الأذهان . وهذا هو السبب فى أن ثورة ١٩١٩ ، اتخذت صورة علمانية من بدايتها الى نهايتها . وقد تجلت هذه العلمانية فى المبدأ الذى اعتنقته كافة القوى الثورية ، ألا وهو مبدأ فصل الدين عن الدولة . حتى أنصار الحزب الوطنى من أبناء الجيل الجديد ، برغم قلتهم ، اقتنعوا بالنموذج الذى رسمه أتاتورك ، فتحول ايمانهم بصورة أو بأخرى من ايمان بالخلافة التركية الى ايمان بتركيا الفتاة ، ودعوا الى بعث قومى على أسس متشابهة لما كان يجرى فى تركيا . وهو الاتجاه الذى ظل دفينا تحت التربة طوال العشرينيات ، حتى دفعته الأزمة العالمية فى سنة ١٩٣٠ وانتصار الفاشية فى ايطاليا والنازية فى ألمانيا الى سطح الأرض .

وقد كان الحدث الرئيسى فى الثلاثينيات هو انتهاء القومية الليبرالية المصرية والديمقراطية الليبرالية المصرية الى الموت الطبيعى نتيجة لما يسميه لويس عوض بالحل الوسط الكبير الذى تم فى سنة ١٩٣٦ ، ذلك الحل الذى صفى الكفاح الوطنى على أساس كلاسيكى ، أى على أساس المفاوضات السلمية ، وجعل مشكلات الاصلاح الاجتماعى تحتل مركز الرؤية . ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية لم يتبق فى ميدان الكفاح الوطنى سوى التعاون مع المحور . ولم يجد المثقفون الوطنيون الذين رفضوا الحل الوسط فى عام ١٩٣٦ الا أحد بديلين : اما أن يكونوا فاشيين ملتزمين أو أن يكونوا شيوعيين ملتزمين . وقد كان الحل الفاشى هو الحل الأيسر بالنسبة لمثقفى الثلاثينيات ، لأن هذه الطبقة المثقفة كانت تنتمى الى البورجوازية الصغيرة ولم تكن تفهم أو تتعاطف مع الطبقة العمالية الا قليلا . ولكن المثقفين اليساريين اتجهوا بقيادة سلامة موسى نحو الاشتراكية الفابية أو نحو الشيوعية . أما المثقفون اليمينيون فقد جددوا من حطام الحزب الوطنى بناء ثلاث مجموعات شمولية فاشية متجانسة ولكنها متميزة عن بعضها البعض تميزا كافيا ، وهذه المجموعات هى : الاشتراكية الوطنية العلمانية التى كانت تدعو اليها مصر الفتاة ، الاشتراكية الاسلامية الثيوقراطية التى كان يدعو اليها الاخوان المسلمون ، والاشتراكية الملكية التى كان يدعو اليها النبيل عباس حليم . فى حين تحولت القومية الليبرالية والديمقراطية الليبرالية الى مجرد شكل لا يحتوى على أى مفهوم اجتماعى حقيقى .

وبمجىء الحرب كان المناخ جاهزا لاستقبال جيل جديد من الكتاب ، ولاستيعاب مجموعات جديدة من القيم ، قبل أن يخرج كتاب جيل ١٩١٩ من الساحة نهائيا بزمن طويل . كانت فترة الحرب هى الفترة التى ظهر فيها لأول مرة جيل لويس عوض ومحمد مندور ونجيب محفوظ

وعبد الرحمن بدوى وراشد البراوى وخالد محمد خالد . وباستثنا نجيب محفوظ الذى كان يومئذ مشتغلا باجراء تجاربه الواقعية الباكرة فى مجال الرواية ، كان الآخرون جميعهم يمثلون لونا او آخر من الوان النظم الاجتماعية . كان لويس عوض متأرجحا تأرجحا شديدا بين الاشتراكية والديمقراطية محاولا ن يجد سلامه الروحي فى مركب من الاشتراكية والديمقراطية ، فى حين كان مندور مشتغلا بوضع أسس الراديكالية المصريه بالتعاون مع مسيرة الوفديين . أما عبد الرحمن بدوى بحكم تكوينه الفلسفى ، فقد أخذ يروج لفكر المثالى الالمانى من هيجل الى شبلنجر مارا بنيتشه . ثم تحول بعد هزيمة المثالية الالمانية الى الوجودية . وهى المرفأ الطبيعي للمارد المحاصر . أما راشد البراوى وهو داعية اقتصادى ، فمن الصعب القطع بما كان يريد على وجه التحديد . فبينما يترجم « رأس المال » لكارل ماركس ، يدعو فى حماس لهارولد لاسكى وللدولة الرفاهية . أما خالد محمد خالد ، وهو مصلح دينى ذو وزن كبير وشعبية واسعة . فقد خصص جهده لتفسير الاسلام تفسيرا ديمقراطيا ليبراليا وعلمانيا لا تحفظ فيه مما أدى به بعد ذلك الى عزلة قضت تقريبا على شعبيته . ويركز لويس عوض الأضواء على محمد مندور بصفة خاصة فيقول :

« ان أقوى تيار بين هذه التيارات كلها كان تيار محمد مندور ودعوته الراديكالية . فمندور ، من دون هؤلاء جميعا هو وحده الذى استطاع أن يخترق سياج المثقفين وينفذ الى الجماهير العريضة من ورائه على نطاق لم يسبق لأحد سواه غير العقاد وطه حسين . فاذا كان لشعبية مندور مغزى ما ، فهو أن الطبيعة المصرية كانت أميل للتجاوب مع الفلسفات الاصلاحية المعتدلة منها الى التجاوب مع أى لون من الوان التطرف . فالشيوعية كانت منتشرة بين المثقفين المتشربين بالثقافة الغربية وحدهم فى حين أن التعاليم الثيوقراطية التى كان يدعو اليها الاخوان المسلمون وعبادة الدولة التى يدعو اليها الفاشيون المصريون لم تبهر الأبصار الا من خلال أعمال العنف والعدوان التى كانت ترتكبها أقلية مدربة على الحقد . وقد تعاصرت المنظمات الشيوعية والثيوقراطية مع راديكالية الجماهير المعتدلة ابان تلك السنوات العشر الرهيبة السابقة على ثورة ١٩٥٢ . ولكنها لم تتجاوز أن تكون جماعات هيستيرية تمثل أفكارا وأساليب تعصبية غير مصرية » .

كان هذا الموقف فى سنة ١٩٥٢ : كانت البلاد مستعدة للتغيير . وكانت هناك طبقة مثقفة ضخمة يؤازرها تأييد شعبى ضخم متشرب بأفكار راديكالية تتراوح من المبادىء الجمهورية والراديكالية الى المبادىء

الاشتراكية المخففة أو الليبرالية المقيدة . وكان الجسم الأساسي لهذه الطبقة علمانيا في موقفه من الحياة . وقد اختلف يسار هذه الطبقة ويمينها مع الثورة . وكان الوسط الضخم مبلبلا حول موضوع الحريات الديمقراطية بعد أن تعودت البلاد لثلاثين سنة ، بين ١٩٢٣ و١٩٥٢ أن تعلق آمالها على الأشكال التقليدية للديمقراطية البرلمانية في مواجهة الاستبداد شبه الاقطاعي والرأسمالي ذاته . وكانت طبقة المثقفين معزولة عن الجماهير ولهذا فهي لم تفعل شيئا لتوضيح الموقف ، بل لعلها أضافت الى البلبلة العامة . واستمر هذا الوضع القلق حتى مؤتمر باندونج وتأميم قناة السويس عندما بدأ المثقفون المصريون التقدميون يتصالحون مع الثورة تدريجيا ، حتى أصبحت المصالحة تامة بعد اعلان الميثاق .

وقد نشأت أكثر المصاعب بين المثقفين والثورة لأنها كانت ثورة براجماتية تجريبية وأنها كانت في الوقت نفسه ثورة معتدلة . فطبيعتها البراجماتية التجريبية جعلت تقدمها من مرحلة الى مرحلة لا تتبع نموذجا أصليا سبق تصوره في عقول المثقفين ، وهذا ما جعل مثقفي اليسار ومثقفي اليمين معا يسيئون فهمها ، فالمثقفون في العادة مدخلهم الى الحقيقة عن طريق طرز مجردة ومبادىء متقنة الصياغة . وطبيعة الثورة المعتدلة جعلتها تنجح باستمرار في تخليص نفسها من الاتجاهات المسرفة في التقدمية التي يمكن أن تنحرف بها عن الطريق الوسط . كذلك يلقي لويس عوض على عاتق الثورة المصرية بمسئولية التخلف العام في الفكر النظري والتحليلي والنقدي المصري في ميادين السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة الأخلاقية . فقد أدت سرعة ايقاعها الى جعل كثيرين من الكتاب يلهثون عاجزين عن ملاحقة ما يجري ، في حين أن الفكر النظري الايجابي يحتاج الى أرض ثابتة ورؤية بعيدة المدى . ولهذا بدا المفكرون والمثقفون المصريون في كثير من الأحيان وكأنهم مجرد مفسرين ومعلقين على أشياء مضت ، فلا يقدمون شيئا يذكر من التوجيه للحاضر ومن الرؤية للمستقبل . وكانت النتيجة أن الثورة المصرية لم تنتج الا النذر اليسير من الفكر النظري والتحليلي والنقدي في مجال العلوم السياسية والاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة الأخلاقية . بل انه يمكن الاعتراف بصراحة أن الكيف في البحث قد تدهور نتيجة للاسراف في التركيز على ما هو عملي وما هو نافع بصورة مباشرة ، ونتيجة لسطحية المعرفة التي تلازم دائما وبصورة حتمية كل توسع ديمقراطي ، ونتيجة للاتجاه الواحد في حركة مرور الفكر وعدم توافر الحوار المتصل بين المثقفين المصريين ونظرائهم في البلاد الأكثر تقدما . والتركيز في عهد الثورة على التكنولوجيا والعلم التطبيقي لمواجهة احتياجات خطة التنمية قد تم بغير شك على حساب

الدراسات الانسانية . وهو بالقطع قد هيأ للبلاد طبقة عريضة من الفنيين ولكنه في الوقت ذاته قد أصاب طبقة المثقفين بالضمور أو على الأصح غير خصائصها . لكن لويس عوض يستدرك تحليله بقوله :

« ان الثورة المصرية من ناحية أخرى قد أعطت دفعة كبرى ومجالا واسعا للنشاط الخلاق في الكتاب والفنانين . فانشاء وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ قد مكن الدولة من رعاية كافة أنواع التعليم غير الشكلي والثقافة غير الأكاديمية . وأن الحيدة الدقيقة التي لزمتها بين القديم والجديد وازاء مختلف مدارس الفن والأدب (وهي مثل آخر من أمثلة الطريق الوسط الذي التزمته الثورة المصرية باصرار) ، هذه الحيدة قد دفعت الحي الى الأمام وتركت المتآكل يواجه مصيره . وهي قد أطلقت التدفق التلقائي للأساليب والحساسيات الجديدة التي استطاعت بفضل حركتها الحرة أن تكتسح الواجهة المتداعية للثقافة الرسمية الموروثة من العهد البائد . رغم ارتكاز هذه الثقافة الرسمية على أعمدة تشيع الرهبة من التقاليد التي كساها الزمن بالهيبة . ولا تزال بعض الجيوب هنا وهنالك لم تنظفها الثورة بعد وهي لهذا في نشاز مع العصر ولكنها لا تمثل أي خطر من الانتكاس الى الماضي » .

ولا يقصد لويس عوض بهذا أن الشيوخ أو حماة التراث أو التقليديين لا مكان لهم في الحياة الثقافية أو الفكرية أو الفنية أو الأدبية أو السياسية أو الاجتماعية ... الخ . انه يقصد عكس ذلك تماما . فعلى حد قوله : « يئس مجتمع ليس فيه تراث أو حفظة للتراث » . فقد كان قصده أن كل مجتمع صحي ينبغي له أن يقوم على الحوار بين أصدقاء الماضي وأصدقاء المستقبل وأن يكون الحكم بينهما في هذا الحوار أصدقاء الحاضر .

ويرى لويس عوض أن تفرغ الكتاب والفنانين كان الأساس في نهضتنا الثقافية المعاصرة . فقد حصلوا على هذه الرعاية منذ انشاء وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ ، كذلك تبنت الصحافة القومية أهل القلم والفكر والابداع . ومن خلال عرض أعمالهم واقتنائها أو نشر أعمالهم على المسرح وتمكينهم من النضوج من خلال الممارسة والأمل وكفاية العيش . وسواء أكان التفرغ صريحا كتفرغ وزارة الثقافة أو تفرغا مقنعا كتفرغ الصحافة ، فقد كان هذا التفرغ بمثابة المنطلق الأساسي لكل الابداع الثقافي . وهذه ظاهرة طبيعية لأن الحضارة بنت الفراغ . فالانسان الذي يلهث وراء لقمة العيش لا يجد الوقت للتفكير أو الدراسة أو الابداع. حتى التعلم ، من الالف باء الى التخصيص ، لا يتاح عادة الا اذا تفرغ التلاميذ للعلم . وهذا واضح فيما يلاقيه أبناء الفقراء من عوائق عن التعلم لأن ظروف حياتهم تضطرهم الى العمل منذ الطفولة أو في المراحل

التالية . ولا شك أن الحاجة أم الاختراع كما يقولون . ولكن المخترع عادة لا يخترع الا اذا وجد الفراغ الكافي للاختراع . والفراغ وحده ليس ضمانا لتنمية مواهب الانسان أو ترقية مداركه وذوقه أو تفجير طاقاته فيما يجدى . فقد يكون الفراغ مفسدة اذا لم يصاحبه الايمان بالقيم السامية ، قيم الحق والخير والجمال .

وفي بعض البلاد المتقدمة كفرنسا أنشئت « وزارة الفراغ » لتوجه الشباب الى تثقيف عقولهم وصقل نفوسهم وتربية أذواقهم بالفنون والآداب الى جانب الرياضة والسياحة والتسلية الراقية ، وهذا كله هو الوظيفة الحقيقية لما نسميه « وزارة الشباب » ، واذا كان الفراغ لازما لاستيعاب قيمة الحضارة فهو من باب أولى لازم لخلق مقومات الحضارة من علوم وفنون وآداب .

ويفترض لويس عوض أن الفنون والآداب مهن كغيرها من مهن الحياة تحتاج الى تفرغ كامل لاتقانها ، ولكنها مهن غير ماجورة لأنها لا تشفي مريضا ولا تبرىء متهما ولا تبنى بيتا ولا تصلح آلة .. الخ . ويتساءل : « من ذا الذى يشترى الحكمة بمال ؟ » ولو ترك الناس لشأنهم لتهرب أكثرهم من التعليم . ومن هنا فقد وجب أن يقع عبء رعاية الثقافة على المجتمع كله . وفى المجتمعات الراقية يقوم صفوة المجتمع نيابة عنه برعاية صفوة الفنانين والأدباء والمفكرين والدارسين ، ولكن فى المجتمعات الأرقى تقوم الدولة كلها بهذا الواجب حتى تنتفى شبهة التسول بالعلم والفن والأدب ، كما يحدث بين شعراء القبائل والسلاطين من مداحين وهجائين ، أو حتى ينتهى امتهان الحكمة بشبهة الاحسان الى الحكماء . وفى المجتمعات الأكثر رقيا لا يرعى الحكماء الا المواطنون أنفسهم خشية أن يحل سلطان الدولة محل سلطان الأفراد .

ولكن وزارة الثقافة فى أوجها ، برغم أنها قدمت للثقافة والمثقفين كل هذه الخدمات الجليلة وأولها أنها مكنتهم من القيام بوظيفتهم فى المجتمع ، قد أخطأت الطريق الى التطبيق وليس الى المبدأ . فبدلا من أن تقصر وظيفتها على رعاية الثقافة والمثقفين ، أى على خلق المناخ اللازم لازدهار الفنون والآداب ، ظنت أن من واجبها انتاج الفنون والآداب انتاجا مباشرا ، فاشتغلت طابعا للكتب وبائعا لها ، واشتغلت منتجا ومنفذا ومهندس ديكور ونجارا وكهربائيا وامبريزاريو وصرافا ومحاسبا للمسرحيات ، واشتغلت فى شركة تصوير وتحميض وشركة تسجيل وشركة توزيع لما تنتجه من أفلام . كل ذلك حيث لا ضرورة لشىء من ذلك . فاضطلعت وزارة الثقافة بما لا يفهم فيه المثقفون وبما لا يحسنون ادارته ، وتضخم جهازها الادارى والحسابى والكتابى ، واتخذت سمت الصناع .

والتجار ، فلم يعد أحد يعرف كيف يعاملها : أيعاملها معاملة المثقفين أم يعاملها معاملة الصناع والتجار ؟

وفى تحليله للموقف الثقافى منذ انشاء وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ حتى الآن يقول لويس عوض :

« فى تصورى أنه لم يجر أى تغيير جوهرى فى الموقف ، ولا يمكن أن يجرى أى تغيير جوهرى فى الموقف ، وكل ما حدث هو تغيير لافتات ، وسواء سميتها « المجلس الأعلى » أو « وزارة » أو « وزارة الدولة » كل هذه الأسماء فى نظرى أسماء مترادفة ما دام الموضوع فى جوهره لم يتغير . الموضوع هو الى أى مدى تعد الدولة نفسها مسئولة عن رعاية وحماية الثقافة الرفيعة من علم وأدب وفن ، وكل ما لا يعتمد فى تمويله على السوقة وذوق السوقة . والذى أراه أن الدولة لا تزال تعتبر نفسها مسئولة عن حماية الموسيقى الجادة والغناء الجاد والفنون المسرحية الجادة والرقص الجاد والسينما الجادة كما هى متمثلة فى نشاط « أكاديمية الفنون » سواء من حيث هى مدرسة لتعليم الفنون والآداب الجادة أو من حيث هى مصنع لصناعة المواهب الجادة . وليس هناك من داع للانزعاج ما دامت الدولة تتحمل هذه المسئوليات » .

أما كيف تتصدى « الأجهزة » لهذه المسئوليات فهذه مسألة تفصيلية وليست من جوهر الموضوع فى شىء ، سواء اضطلعت هذه المسئوليات بتقديم الجوائز والمعونات والدعم والمنح أو اضطلعت بها عن طريق الانتاج المباشر ، فالنتيجة واحدة فى الحالين . وربما اصبحت أجهزة الثقافة أكثر التفاتا وقدرة على هذه الرعاية لو تخففت من أعباء الملكية والانتاج المباشر . أما بالنسبة لمشكلة الكتاب وطبعه ونشره فان لويس عوض يؤكد أن الحل الحقيقى ينهض تماما على مسئولية الدولة عن دعم الكتاب الجاد والمجلة الجادة بحيث يصل الكتاب وتصل المجلة الى القراء بثمن يتناسب مع الامكانات المادية للمواطنين وخاصة محدودى الدخل وهم غالبية القراء . وليس هناك من بأس أن يقتصر فى الطبعات الغالية الثمن على النصوص التى تخاطب خاصة الخاصة . أما النصوص الموجهة للجمهور العريض فيجب أن تتدخل الدولة حتى يعود الكتاب الى محدودى الدخل .

والمشكلة الجوهرية فى نظر الدكتور لويس عوض ليست فى الأجهزة الثقافية بقدر ما هى فى سياسة « الاكتفاء الذاتى » التى رفع شعارها نظام عبد الناصر . فقد أقيمت حواجز من الحماية الاقتصادية والثقافية لتحول دون استيراد السلع والأفكار ، وبولغ فى تمجيد الثقافة

القومية وخاصة على المستوى العربى . ولم نجد فى اللغات الأجنبية الا فائدة قليلة ، أما التجربة الثقافية عند الأمم الأخرى فقد وجدنا فيها فائدة أقل . وكادت أن تنقرض دراسة اللغات الأجنبية من مدارسنا وجامعاتنا . وصحونا من الوهم بهزيمة ١٩٦٧ . ولكن التدمير كان قد تم بالفعل . كانت خمسة عشر عاما من العزلة الثقافية قد شكلت جيلا كاملا من المثقفين الشبان المكتفين بالذات . وهؤلاء يتولون الآن القيادة فى الصحافة والمسرح والسينما وفى أجهزة الاعلام وفى الفن التشكيلى وفى الموسيقى وفى الجامعات .

وفى الواقع لم يكن نظام عبد الناصر المغلق هو الذى دفع ثمن اختياراته وانحيازاته الثقافية كاملا . فلقد كان نظامه برغم ما اتسم به من جماهيرية ، نظاما يقوم على حكم الصفوة . ثم انه كان قد ورث عن عهد الملكية ، أو على الأصح عن عصر الديمقراطية الليبرالية فى مصر ، أربعة أجيال من الكتاب والفنانين الفعالين الذين كانوا قد تشربوا قيم الحضارة الغربية كما كانوا ملمين تماما بالوسائل التكنيكية الغربية . حتى الراديكاليين منهم كانوا قد استمدوا راديكاليتهم من الحضارة الغربية ، ولا سيما فى تقاليدها الفرنسية والانجليزية ، وليس من تقاليد البحث العربى الاسلامى .

هذه الأجيال الأربعة التى تبدأ بجيل طه حسين والعقاد وسلامة موسى نشأت داخل العرف المؤسس على أن التلمذة للثقافة الغربية لا تتضمن تخليا عن الهوية القومية بل تتضمن بالأحرى تقوية للهوية القومية وتحريرا لها . وكان هذا الرصيد الضخم من الكتاب والفنانين الموهوبين ذخرا فى متناول يد عبد الناصر ، لكنه بدد الكثير منه بما كان يجريه من حركات تطهير موسمية عديدة ، وبالرقابة المحكمة التى فرضها . فقد كان على خلاف مع مثقفيه الراديكاليين خلال السنوات العشر الأولى من حكمه ، أى حتى اعلان الميثاق فى ١٩٦٢ . وكان على خلاف مع مثقفيه المحافظين خلال السنوات الثمانى التالية ، أى حتى توفى فى سنة ١٩٧٠ . وأيا كان الأمر فعندما تصالح عبد الناصر مع اليسار المصرى ، أعطى كتابه وفنانيه مجالا كافيا ، وان لم يكن واسعا ، للتعبير عن أنفسهم ، وهو ما أدى الى الازدهارة الكبرى خلال الستينيات فى كل مجال تقريبا من مجالات الفن والأدب .

ومع ذلك فقد جاء الغسق مع كارثة ١٩٦٧ ، ودرجة درجة انطفأت الأنوار . ومع نهاية السبعينيات لم يكن قد بقى الا القليل من تلك الحيوية الخلاقة فى الرواية وفى الشعر وفى الدراما وفى التصوير وفى الموسيقى . تلك الحيوية التى أذهلت العالم العربى فى الستينيات .

فالجيل الأول ، جيل توفيق الحكيم وحسين فوزى ويحيى حقى بعد الكثير من أنفاسه بعلة الشيخوخة وحدها • والجيل الثانى ، جيل نجيب محفوظ برغم أن هذا الجيل لا يزال يعمل شكليا ، لكنه يفتقر الى منظور جديد ولم يتأقلم تأقلما تاما مع عالم الشجعان الجدد • أما الجيلان الثالث والرابع فقد خرجا من السباق لسبب أو لآخر . وراح بعضهم يبحث عن حلول انتحارية فى باريس ولندن وعواصم العالم العربى •

ولما كان كل هذا الذبول طبيعيا تماما ، فقد كان من المنتظر بعد ان استردت مصر شرفها الوطنى بانتصارات حرب أكتوبر ، أن يحدث انفجار جديد فى المواهب الأدبية والفنية يهز مصر كالزلزال خلال السنوات العشر الأخيرة ولكن كل ما لدينــا حتى الآن هو اما هياكل عظيمة من التوابيت القديمة التى تحفظ فيها جماعات البعث السفلى مومياواتها ، وأما جيل « المكتفين بذواتهم » الذين تربوا فى أحضان نظام عبد الناصر ، وهو جيل من يعرفون انجليزية قليلة وفرنســية أقل ، ولا يجــدون ما ينفعهم فى حضارة الغرب وثقافته سوى الأجهزة المادية •

ويختتم لويس عوض هذه البانوراما الثقافية العريضة المثيرة بقوله :

« ان آثار المونولوج العظيم لا تزال غائرة فى أعماقنا • فعشرون سنة من العزلة الثقافية لا يمكن قهرها بسهولة • غير أن سياسة الباب المفتوح عندما تمتد من مجال السلع والخدمات المستوردة الى مجال الأفكار والقيم المستوردة ، سوف تبعث فى مصر على وجــه اليقين ذلك التراث الانسانى العظيم من التواصل الثقافى مع بقية بنى الانسان ، ولا سيما مع ثقافات العالم الراقية • ان ذلك التراث الذى كون ماهية مصر عبر المائتى سنة الأخيرة ، من الطهطاوى الى طه حسين ، فجعل منها الحارسة على التقدم والاتزان فى الشرق الأوسط » •

• أمينة السعيد

يعيشون بدخلين بدل دخل واحد ، مما رفع المستوى الحضارى للأبناء ، ووفر لهم من أسباب الكرامة الانسانية ما حرم منه سابقوهم ٠

من هنا كانت سعادة أمينة السعيد بالغة فى مارس ١٩٧٩ وهى ترقب أنظار العالم تتوقف عند المظاهرات العارمة التى قامت بها نساء ايران احتجاجا على ما أشيع من أن خمينى قرر اصدار قانون بفرض الحجاب على النساء بعد أن كان هذا الحجاب قد اختفى منذ سنين وأجيال ، كذلك كان قد أمر بوقف قانون الأحوال الشخصية الذى كان يضع الضوابط لنطلاق وتعدد الزوجات ٠ ونظرا لنضوج المرأة الايرانية فكريا ووجدانيا فانها رأت أن الايمان بالقلب لا بالمظاهر ٠ فالايمان هو الذى يعكس روحه على الزى ، لا الزى الذى يعكس شكله على القلب والضمير ٠ وليس فى التاريخ بطوله ما يدل على أن الزى يجعل من الفاسق عابدا ، أو من العابد فاسقا ٠

من هذا المنطلق الفكرى الناضج أصيبت المرأة الايرانية بصدمة بالغة حين نمى اليها أن خمينى يعتزم الانتقاص من حريتها الشخصية بفرض الحجاب الذى انتهى منذ زمن، فزالت بزواله أكبر المعوقات فى طريق مشاركة المرأة للرجل فى النهوض بالوطن الى مستويات أفضل ٠ هذه المشاركة التى تجلت فى وقوف المرأة الايرانية مع الرجل الايرانى جنبا الى جنب فى الثورة الشعبية فى ايران ٠ ولم يكن من المعقول أو المقبول أن تكافأ على هذا العمل الوطنى بالاجبار على الرجوع الى الحجاب وما سوف يستتبع ذلك من خسائر جسيمة ٠ فالعودة الى الحجاب هى خطوة أولى لابد أن تليها محاولات لاعادتها الى البيت وحرمانها من حق العمل ٠ وهو اجراء تخريبى للاقتصاد الوطنى ٠ فالمرأة فى ايران ـ مثل المرأة عندنا ـ أصبحت قوة اقتصادية لا غنى عنها ، ودخلها من العمل يشكل جانبا لا يستهان به من ميزانية الأسرة ، ومعنى ذلك انهيار المستوى المعيشى لكافة الطبقات ، وهى نكبة وطنية تشيع الفقر والتخلف ٠

ولقد استطاعت المرأة الايرانية بذكائها وحدة وعيها الاجتماعى والحضارى أن ترى هذه الأخطار الماثلة أمامها ، ولما كانت تؤمن بأن الحقوق لا تعطى على سبيل الصدفة أو المجاملة ، وانما تؤخذ بقدرة أصحاب الحق على النضال من أجله ، لذلك لم تتردد فى الاحتجاج فورا على ما كان يبيت لها ، واجتمعت كلمة النساء فى مظاهرات ضخمة واجهها أعداء الحضارة بالسكاكين والعصى والأحجار ، فاصيبت منهن كثيرات ومع ذلك مضين فى احتجاجهن مرحبات بالأذى فى سبيل الحق ٠ وقد رأت أمينة السعيد فى هذا الموقف التاريخى الحضارى للمرأة الايرانية عظة

لمن تتعظ ودرسا لمن يحتاج اليه دفاعا عن حريات المرأة ومكاسبها ٠ تقول :

« في اعتقادى أن المصريات في أشد احتياج الى هذه العظة وذلك الدرس ، لانهن بعد ما حصلن على بعض المكاسب بفضل كفاح الرائدات الأوليات مثل هدى شعراوى ، لجان الى الخمول والتواكل ، ولم تعد مطالبهن الملحة تحرك شعرة في رءوسهن متصورات أنهن غير مطالبات بشيء نحو أنفسهن ، تاركات مهمة الكفاح ليقوم بها غيرهن ، كأنها قضية لا صلة لها بهن ٠ وحتى عندما تعرضت بعض المدافعات عن حقوقهن لكثير من الأذى العام لم تنهض واحدة منهن للوقوف الى جانبها فيمثل هذه الازمات التى كانت في أشد الاحتياج الى تكتل النساء من أجل التصدى للدفاع عن مكاسبهن وحقوقهن ، وبسبب هذه السلبية المخزية ــ من المتعلمات قبل الجاهلات ــ لم يكتب الله التوفيق لأى مطلب نسائى خلال السنوات الثلاثين الأخيرة ٠ والمكاسب القليلة التى أحرزت في هذه الفترة لم يكن للنساء عندنا أدنى فضل فيها ، فقد جاءت هبة من الوطنيين الأصلاء من حكامنا الرجال وثمرة تضحيات فردية غالية قدمتها «فدائيات» يؤمن بآدميتهن ويتمسكن بكرامتهن الانسانية » ٠

ولذلك لم تكتم أمينة السعيد شعورها بالخزى لنسائنا اللاتى لم يفهمن حتى الآن روح عصرهن الذى يبعد عن عصر الحريم بعشرات الأجيال ٠ تلك الروح التى جعلت المرأة في دول الحضارة تقدس الاعتزاز بالنفس ، والرأس المرفوع ، والحديث الواضح الجرىء ، والتصرفات الصريحة الخالية من الكبت ومركبات النقص ٠ فهذا هو النمط العام بشخصية المرأة فى جميع البلاد المتقدمة ، نجده فى جميع القطاعات النسائية صغيرها وكبيرها ٠ فالعاملة مثل الموظفة مثل ربة البيت مثل عضو البرلمان مثل الوزيرة ، فيهن تتجسد صفة الاعتزاز بالكرامة والثقة بالنفس ، بل قد يصل اعتزازهن بكرامتهن وثقتهن بأنفسهن الى درجة الحدة أحيانا ٠

أما المرأة المصرية او العربية فهى على النقيض من ذلك تماما ، ذلك أن الظاهرة المشتركة في عموم النساء عندنا هى الذلة والخوف والتردد والضعف ٠ حتى القوية منهن تحاول جهدها أن تخفى قوتها كأنها فى خزى منها ٠ وترجع أمينة السعيد هذه الظاهرة الخطيرة الى أننا لسنا بلدا متقدما أو شبه متقدم ٠ أما اصطلاح الدول النامية ــ ونحن منها ــ فهو صيغة مهذبة اختارتها هيئة الأمم المتحدة بديلا للدول المتخلفة ، حفاظا على مشاعر الدول الصغيرة التى يدفعها مركب النقص الى الثورة على كل تعبير يطابق حقيقتها ٠ فنحن مثلا تزيد نسبة نسبتها الأمية عندنا على

٧٠٪ ، والمستوى المعيشى اقل من أن يحقق أبسط ضرورات الحياة ـ والانفجار السكانى المضطرد يهدم جميع مشاريعنا للنهوض ببلادنا ، ويقودها تباعا الى مزيد من التدهور • فالانتاج ضئيل هزيل لا يكاد يفى بأبسط احتياجاتنا • حتى فى الرغيف نعتمد على الدعم فى تقديمه بالسعر المناسب • وجميع الضرورات تأتى بالقروض والمعونات من الدول المتقدمة التى ترفل فى رغد الاكتفاء الذاتى بالاضافة الى الفائض الذى تغزو به أسواق العالم وتبنى اقتصادها على أساس متين • كذلك فان المستوى العلمى يتدهور مما يحول دون أخذنا بالتكنولوجيا الحديثة •

وقد يتساءل البعض عن دخل المرأة فى كل هذا ، فتجيب أمينة السعيد بأن المرأة هى « بارومتر » الحضارة فى بلادها ، لذلك تبدو فيها عيوب التخلف أوضح • فالمرأة عندنا لا تزال متخلفة برغم حصولها على حقوق أكثر من أختها الغربية فى البلاد المتقدمة : المساواة فى التعليم والعمل والأجر ، الحقوق المدنية والسياسية بكاملها ، فمثلا زادت نسبة الفتيات فى المعاهد والجامعات على ٤٠ ٪ من مجموع طالبى العلم ، وتحفل جميع المصالح والادارات والوزارات بعدد ضخم من النساء . بلغت كثيرات منهن مراكز القيادة مثل منصب الوزير أو السفير أو وكيل الوزارة ، لدينا أيضا الطبيبة والمهندسة والمحامية والمعلمة والعاملة ، ولدينا ثلاثون دائرة انتخابية خصصت للنساء بالاضافة الى الدوائر الأخرى المفتوحة للجنسين ، وهذه الأعداد الوفيرة من النساء العاملات فى جميع المجالات تزداد بسرعة من يوم الى يوم • ومع كل هذا لا تزال المرأة عندنا هزيلة الشخصية معدومة الثقة بالنفس ، ذلك أنها تفتقر الى الاحترام الاجتماعى الذى يفوق كل المكاسب التى سبق ذكرها •

ان التقدم الصحيح فى عالم اليوم لا يتحقق بالقوانين وحدها • فالقوانين مهما بلغت روعتها لا تزيد عن كونها عاملا مساعدا ، ولكى يؤتى هذا العامل المساعد ثمرته يجب ـ بل من الضرورى ـ أن يواكبه مناخ اجتماعى مناسب • وبغير هذا المناخ المناسب تصبح التشريعات قليلة الحيلة معدومة الأثر • فهذا المناخ لا تصنعه سوى العقلية التى تستوعب روح التشريعات وتهضم فلسفتها وهدفها ، والمنطق القادر على تحليل الأمور فى ضوء التحضر والاستنارة مع القدرة والشجاعة على تحقيق الغرض من هذه التشريعات • وهذا يعنى أننا متقدمون شكلا لا موضوعا ، ذلك أن الصورة الخارجية لامعة بمواصفات التقدم ، ولكن تحت هذه القشرة الزائفة يوجد جوهر تعوم فى مياهه الآسنة عقلية متخلفة لم يمسها التطور منذ مئات السنين •

ان هذا التناقض بين المظهر والجوهر أكثر خطورة على المرأة مما لو

كان مظهرها متخلفا مثل جوهرها ، ذلك أن هذا الوضع البراق الخادع يوحي الينا بأنه ليس في الامكان أبدع مما كان · فالمرأة برغم كل ما أحرزته في الظاهر ينقصها الاحترام الاجتماعي الذى يشعرها بالعزة والكرامة في جميع أوجه حياتها · ففي البيت الذى هو الأصل ، نجدها مواطنة من الدرجة الثانية لا صوت لها ولا رأى ولا قدر ، أخوها يحظى بالأولوية في كل شيء وهي مجرد تابعة له حتى لو كانت أكبر منه سنا ، أو كانت هي المتكسبة التي تنفق على تربيته وتعليمه · فالأسرة بواعز من المجتمع تعطيه كل الحق في الاستبداد بها واصدار الأوامر لها ، وتفرض عليها الخضوع التام له لانه ذكر وهي أنثى · وعندما تخرج من البيت بالزواج ، تنتقل تبعيتها الى زوجها ، ويصبح لزاما عليها أن تقوم بكل جهد وتتحمل كافة المسئوليات دون أدنى تعاون منه معها ·

وهي في معظم الأحيان امرأة عاملة مهنتها تتطلب منها ما تتطلبه ذات المهنة من الرجل : أى سبع ساعات في المكتب أو المصنع ، وجهدا نفسيا وجسمانيا جبارا تؤدى به العمل الموكل به اليها بالاضافة الى مشقات الذهاب والاياب التي تكاد تقصم ظهرها ، وهي تذهب في آخر اليوم الى بيتها مثلما يذهب رجلها تماما مرهقة منهكة بالكاد تستطيع أن تلتقط أنفاسها . وهي مع ذلك ملزمة بكنس البيت وطهي الطعام ومسح الأرض وغسل ثياب من يعيشون في البيت ، ثم مساعدة الأطفال في استذكار دروسهم ، وتولى حل مشكلاتهم الأخلاقية والنفسية · وبعد كل هذا يطلب منها أن تقوم بدور الأنثى المغرية والمرضية لزوجها ، تتأنق وتتعطر وتتزين وتبتسم وتحتمل ثورات الزوج وغضباته باسمة الثغر هانئة : ويا ويلها ان اشتكت أو قصرت ، فالجميع حتى أقرب الناس اليها يؤنبونها ويذكرونها بأنها امرأة وعليها أن تتحمل عبء جنسها كله وحدها · ثم تبدى أمينة السعيد ذهولها لهذه الأوضاع الغريبة التي تمر بها المرأة على الرغم من المكانة الأثيرة التي تتمتع بها في الاسلام فتقول :

« لقد سبق الاسلام بتكريمه للمرأة جميع الأديان التي أتت قبله ، ولكن ما رأيك فيمن يهيمنون اليوم على المفاهيم الدينية ؟ لقد بعث الى مهندس مثقف متدين بكتاب ألفه ونشره أحد القيادات الدينية المعروفة ، ولقد توجه المؤلف بكتابه هذا الى الشباب ، وتولى فيه مهمة اقناعهم بالزى الذى يسمونه اليوم اسلاميا ، وقد جاء في تبرير الدعوة اليه : أن هذا الزى قد وضع لحماية الرجال ، فالواحد منهم اذا سار في الطريق ورأى امرأة رشيقة غير محجبة ، لابد بطبيعة الحال أن تعجبه ، وتكون النتيجة أنه عند عودته الى البيت ورؤيته زوجته التي ربما تكون قد بلغت الأربعين من عمرها واصبحت « مصعصعة مكحكحة » أن ينفر منها ، ولا يجد من يلومه عندئذ اذا بصق عليها ؟ » ·

ويزداد ذهول امينة السعيد لأن هذا الكلام لم يغضب أحدا ، فقد اشترى الناس الكتاب وقرءوه واستمتعوا به ، ولم يتحرك في رأس أحدهم شعرة للعبارة النابية التي استعملت في وصف الأم والزوجة عندما تبلغ الأربعين ، والتي يمكن أن تحل لزوجها جريمة البصق عليها اذا لم يجد فيها الجسد المثير لشهواته ونوازعه الجنسية ، وكأن قداسة أمومتها ليست في الاعتبار على الاطلاق ·

ثم تروى أمينة السعيد قصة أحد كبار القادة في بلادنا ، قصة وقعت على أثر الاعتداء الثلاثي الغاشم الذى قامت به بريطانيا وفرنسا واسرائيل على منطقة القناة عام ١٩٥٦ ، وما ترتب عليه من قطع العلاقات السياسية والدبلوماسية بالدولتين الأولين المشتركتين فيه · فقد عقد اجتماع غير رسمي حضره عدد من القادة ذوى الشأن في ذاك العهد ، لتبادل الرأى فيما ينبغى أن يوجه الى بريطانيا من اهانة موجعة لقاء ما فعلته ، فاذ بهذا القائد الكبير يهتف في الحاضرين وكأنه أرشميدس : لقد وجدتها فأفضل ما نهين به هذا البلد أن نحول سفارته الى مدرسة للبنات !!!

وتختم أمينة السعيد قصتها بقولها ان مثل هذه المواقف تبين لنا أن نساء مصر برغم ما أحرزنه من مكاسب وما نلنه من حقوق ما زلن يفتقرن الى الاحترام الاجتماعي الذى يشعرهن بالكرامة والثقة بالنفس ، والى أن يحدث ذلك ، فلا أمل في أن ترفع امرأة عندنا رأسها بعزة واباء · وخاصة أن ثقة أمينة السعيد في المتعلمين ضعيفة للغاية لانهم لم يتخلصوا من مرحلة التعصب وضيق الأفق ، ولم ينطلقوا بعد الى مرحلة الثقافة المستنيرة · فالتعصب في نظرها قرين الجهل · وهى لا تقصد بالجهل الأمية وضآلة التعليم ، وانما تقصد الجهل الفكرى نتيجة للجمود الذى يصيب الذهن فيعطله عن متابعة حركة الحياة واستيعاب متطلباتها المتجددة · وهى لا تتعجب لانتشار التعصب وتفشيه بين المتعلمين بأسلوب أخطر مما هو موجود بين غير المتعلمين · فغير المتعلم انسان متواضع بطبعه ، مؤمن يعرف قدر نفسه ، ولعلاج نقصه في التعليم لا يتعالى عن طلب المعرفة من غيره ، الأمر الذى يوضح له ما يغمض عليه فهمه من أمور الحياة ، ويكسبه سعة في الأفق والادراك ·

أما المتعلم في العالم العربى بصفة عامة فهو انسان مغرور ، كثيرا ما يتصور أنه بالقليل الذى تلقاه في الجامعة قد أدرك القمة ، مع أنه في الحقيقة لا يدرك شيئا سوى المواد المتخصصة التي تضمنتها كتبه الدراسية· والانسان في مثل هذه الحالة عرضة لأن يقع فريسة لفكرة قاصرة تلقى على بصيرته غشاوة لا يرى من خلالها متغيرات الحياة ومتطلباتها الفكرية المتجددة ، ومن ثم يعجز عن مجاراة دنيانا الحديثة · وفي مثل هذا المناخ

الفكرى والثقافى المتخلف يندر وجود المرأة العصرية بالمفهوم الذى تحدده أمينة السعيد . « فالعصرية » صفة لا عمر محددا لها ولا ترتبط بالسن وليس من خصائصها ومستلزماتها أن يكون المرء صغير السن أو أنيقا أو طليقا فى النوادى والمجتمعات العامة . فالعصرية جوهر لا عرض ، ومن أهم مقوماتها استيعاب روح العصر وفلسفته وترجمة هذا الاستيعاب الى أفعال وتصرفات وأفكار وأحاسيس تلبى متطلبات التطور وتسهم فى اقامة كل جديد مفيد . وبناء عليه فالمرأة العصرية قد تكون فى الأربعين من عمرها أو أكثر .

ولذلك فان من أبسط صور المرأة العصرية وأكثرها تمثيلا للمعنى الصحيح ، صورة السيدة التى زوجها أهلها وهى صغيرة قبل أن تنتهى من دراستها الثانوية ، فعاشت السنين الطويلة تلد الأبناء وتربيهم وترعى بيتها وتقوم على خدمة أسرتها . فلما كبر أولئك الأبناء ، تلفتت حولها فرأت الدنيا قد تغيرت تماما عن أيام صباها ، وأصبحت المرأة مطالبة باثبات أهليتها كمواطن من الدرجة الأولى لها جميع حقوق الرجل وعليها كافة واجباته . وبناء عليه تقرر أن ترتقى بنفسها الى هذا المستوى الجديد . لذلك تعود الى المدرسة لتعوض ما فاتها ، وتبذل المستحيل فى دراستها حتى تلتحق بالجامعة وتتخرج فيها ، ثم تخوض ميدان العمل لتفيد وتستفيد . تفيد وطنها بجهودها ، وتستفيد باجرها أو مرتبها فى تحقيق استقلالها الاقتصادى والمساهمة مع زوجها فى الارتقاء بمستوى الأسرة . وهى لابد أنها تفعل ذلك لأنها تمثل روح العصر وفلسفته ، قوية الارادة ، صلبة الشخصية ، متطورة الفكر والتنفيذ ، وليست طبلا فارغا هزيلا مثل الصغيرة التى نراها فى المنتديات العامة مجردة من المؤهلات المعنوية ، والتى تدخل الجامعة على غير ايمان بضرورتها ، بل جريا وراء اللقب العلمى الذى تفخر به وتتيه مجاراة للتيار العام . أما فيما بينها وبين نفسها فلا تطمع الا فى الزواج سريعا . وعندما تتحقق هذه الأمنية تزهد فى العلم والكفاح ولا تعير أدنى أهمية لفلسفة العمل التى تقوم على تدعيم الكرامة الاجتماعية واثبات الوجود الوطنى والاستمتاع بعزة المساواة بين الجنسين . هذه الفئة ـ وهى الغالبة ـ لا تستحق لقب المرأة العصرية ، ولا ينبغى أن نمنحها شرف هذا اللقب الرفيع لأنها مجرد واجهة جميلة تخفى فراغا موحشا ، مظهر دون جوهر ، وشكل دون معنى أو أثر . وعجز يختفى وراء قشرة زائفة براقة من القوة والتحرر .

ولا تقصد أمينة السعيد بكلامها أن مطلب الزواج مدعاة للخزى والتأنيب ، فهى ترى فى الزواج تتمة للحياة وانضاج للفكر والشخصية ، انما بشرط أن يكون الزواج الصحيح القائم على معنى المشاركة فى البناء

العائل الذى يمثل لبنة فى البناء الوطنى العام . وهذه المشاركة تفرض الكفاح بين الشريكين للوصول الى مراتب أفضل ، والقدرة على التضحية لبلوغ هذه المرتبة . لكن الفتاة الأنيقة التى تغشى المنتديات العامة لا ترضى بالرجل الذى ينبغى أن تبدأ معه أول خطوات السلم ، والذى يناسبها فى العقل والروح والتصرف ، لأنها لا تريد أن تضحى أو تتعب أو تشارك ، بل تريد أن تركن الى الرخاء والراحة والمظاهر الكاذبة . ولما كان الشاب فى بداية حياته لا يستطيع أن يحقق هذه المطالب ، لذلك نجدها تتزوج بالرجل « الجاهز » ، الذى اشتغل واقتنى ووصل على مر السنين الى المستوى المادى الذى تنشده ، ومعنى ذلك أن تتزوج من رجل أكبر منها سنا بكثير ، واذا لم يكن لدى هذا الكبير ثروة مريحة فلا بأس من أن يكون مشتغلا بالسلك السياسى كى تسافر معه الى أوروبا وأمريكا ، وترى عجائب الدنيا ، وتشترى الملابس الجميلة وتشارك فى الحفلات الأنيقة . انها تشترى أرخص أعراض الحياة بجواهرها . ومثل هذه الفتاة ترفضها أمينة السعيد رفضا تاما لأنها ليست عصرية فى أى شىء . وشتان بين الفتاة العصرية والفتاة المعاصرة .

على هذا النهج التنويرى الرائد سارت أمينة السعيد فى كل كتاباتها وانجازاتها الفكرية ، معمقة نفس المسار الذى سلكه من قبل قاسم أمين وهدى شعراوى واستر فهمى ويصا وغيرهم من رواد ورائدات تحرير المرأة وتنويرها . والعجيب أن مصر كانت فى طليعة الدول التى نادت بتحرير المرأة منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تموج بحركات تحرير المرأة . هذا فى الوقت الذى كانت تعانى فيه من عصر الحريم فكرا وسلوكا نتيجة للحكم العثمانى الطويل . لكن من المؤسف أن تعود هذه الموجات الرجعية لتحاصر المرأة المصرية والعربية من جديد بعد مرور قرن من الكفاح المجيد من أجل حقوق المرأة وكيانها . ولقد كانت أمينة السعيد بالمرصاد لتصيد هذه الموجات قدر امكانها ، ووقفت فى أحيان كثيرة فى الفترة الأخيرة تدافع بقلمها وحيدة فى الميدان غير عابئة بما قد يوجه اليها من سهام التخلف والرجعية ، لايمانها الوطيد بأن نور الحضارة لابد أن يطارد ظلام التخلف حيثما كان .

● عبد الرحمن الشرقاوي

● **عبد الرحمن الشرقاوى**

فلسفة التنوير فى فكر عبد الرحمن الشرقاوى وأدبه هى ثورة شاملة على كل السلبيات التى تعتور حياة الفرد والمجتمع على حد سواء · وهى فلسفة كامنة خلف كل كلمة خطها قلمه سواء أكان هذا فى مقالة أو دراسة أو رواية أو مسرحية ، وذلك منذ بدأ كتابة شعره الثورى ضد المحتل البريطانى عام ١٩٣٥ · وكانت من أهم الأعمال الأدبية المبكرة التى رسخت اسمه فى الفكر والأدب المعاصرين ، قصيدة « من أب مصرى الى الرئيس ترومان » التى أوضح فيها التزامه الفكرى بقضايا الانسان المعاصر ضد كل ما يهدده من عوامل الدمار والخراب · ولذلك كانت السياسة تشكل عنصرا هاما فى فكره وثقافته بصفة عامة ، حتى لو لم يكتب عنها بأسلوب مباشر تقريرى ·

وعلى الرغم من ذلك فان هناك من الناس من يحسب أنه يكتب فى الثقافة هربا من الكتابة فى السياسة وخاصة فى الآونة الأخيرة ، مما دعاه الى تصحيح سوء الفهم هذا بكتابة مقال مسهب عن « الثقافة والسياسة » فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٧ مارس ١٩٨٢ · ذلك أنه لا يوجد هناك ما يدعو أحدا الى الهرب من الكتابة فى السياسة ، ونحن فى عصر يفتح الصدر لكل الآراء · والكتاب والصحفيون يقولون ما يريدون ، وبعضهم يقول ما لا ينبغى ، أو أكثر مما ينبغى ، ومنهم من يمسك بتلابيب كل شىء · ومنهم من يثير بقلمه الغبار على وضاءة الأشياء الناصعة ، ومنهم من يحدث من الضوضاء ، وينفث من الغازات السامة أكثر مما ترهقنا به طرقات القاهرة · كل الكلام يقال ، والمطابع تطالعنا فى كل صباح ومساء بألوان من النقد ، ونقد المجتمع ، والهجوم والهجوم المضاد · وما من أحد

يمنع أحدا ، وما من حق أحد أن يصادر حق الآخر في التعبير ، مهما تكن حدة التعبير ، وحتى أشرطة الكاسيت دخلت أسـواق التعبير • عندئذ يتساءل الشرقاوى :

« ففيم يعـزف مثلى عن الكتابة فى السياسـة وما من محـاذير ؟! وما عزفنـا عنها حين كانت كلهـا محاذير ، وحين كانت طرقاتها تمتلىء بالصخور ، وبالأشواك ، والشراك ؟! » •

ان الذين يتوهمون ان الكتابة عن الثقـافة هروب من السـياسـة ، يخطئون فى فهم السياسة ودورها • وهم مع خطئهم هذا ما قدروا الثقافة حق قدرها • يقارن الشرقاوى بين السياسـة والثقافة فيقول :

« اذا كانت السياسـة هى فن بناء المجتمع ، فان الثقافة هى فن صياغة عقل هذا المجتمع وقيمه ، وهى فن تكوين المواطن الذى يبنى المجتمع الأمثل والأفضل • الثقافة وحدها هى التى تشـكل القيم التى يجب أن تضبط سلوك الأمة ، وترسى قواعد التعامل فيما بين الأفراد ، وتبصر الانسـان بما له من حق وما عليه من واجب ، وتكون الذوق العـام وحسن الآداب •

« الثقافة وحدها هى التى تضىء العقل ، ليحرك الطاقة البناءة فى الانسـان • هى التى تملأ القلب بدفء المودة ، وتعمر النفس بحب العمل ، وتجعل من الوجدان قوة واعية مبدعة ، وهى التى تجعل للانسـان سلطانا على الطبيعة ،اذ يفهم قوانينها ، وحركة التاريخ ، فتمكن قبضته على المصير ليتمكن من صناعة حاضر أجمل ، ومستقبل أروع •

« المجتمع الجاهل لا ينشىء حضارة ولا يخلق تقدما ، بل يتساقط فى مهاوى الجهل حتى يندثر • والذى لا يملك نورا فى القلب يعجز عن اضاءة شمعة • وشمعة واحدة تتحدى بنورها كل ظلمات الليل ، فما تقوى الظلمات على أن تطمس شعاعا مهما يكن ضئيلا ! » •

انها ثورة التنوير التى جسدها الشرقاوى فى كل كتاباته • فمثلا فى مسرحية « الفتى مهران » نجد أن المثقف الذى يتبع طريقا ثوريا يجب أن يلتزم هذا الطريق ويصر عليه والا انهار وتحطم • فمهران كرجل مفكر مثقف مكافح ينوء كاهله تحت ضغوط متزايدة وفى ظروف قاسـية ، يتصور أن تنازلات معينة يمكن أن تخدم القضية التى يدافع عنها ، واذ بهـذه التنازلات نفسها تحطمه وتقضى عليه وعلى الأفكار التى يدافع عنها وعن كل الظروف التى يمثلها • فالفكر لا يتجزأ ولا يقبل أية تنازلات ، ان أى تنازل مهما كان ضئيلا سيقضى تماما على البنيان الفكرى الذى يحـاول اقامته فى عقول الناس وقلوبهم •

والفتى مهران رجل بسيط يتمنى أن يكون أحد مثقفى عصره الرواد . ترك القرية الى الأزهر لكنه عاد اليها فوجد أن أمير الناحية قد اغتصب الارض التى كان يعيش عليها أهلها . ومن خلال هذا الظلم الذى لمسه هو نفسه وادراكه لحقائق حياته فى عصره استطاع أن يلتقى بمظلومين آخرين مثله وكونوا جماعة الفتوة التى تحمى تقاليد جماعات الفتوة القديمة المعروفة فى التاريخ العربى ومبادئها حماية المظلوم والدفاع عن العدل بحد السيف وأنه لا طاعة لحاكم ظالم . ومع مرور الأيام أصبح مهران رئيسا لهذه الجماعة والتقت أحلامه فى العدل بأحلام الفلاحين ، وتحولت الى جماعة من الجيش الذى يملكه الفلاحون فى مواجهة جماعة الأمراء ، واصطدموا بالأمير وكان رجلا داهية استطاع أن يصطنع منهم بعضهم ووجد مهران نفسه مضطرا للدفاع عن وحدة جماعته . وكان الأمير يطمع أن يتولى هو الملك معتمدا على التتار . وفى الوقت نفسه استطاع الأمير أن يوجه ضربته الى جماعة الفتيان وخيل لمهران لبعض الوقت انه يستطيع أن يخدع الأمير وبدأ يتنازل عن بعض أفكاره وقيمه متصورا أن هذا لمصلحة القضية التى يدافع عنها ، لكن الأمير استطاع أن يوقع به ويشوهه أمام الناس . وفى ساعة الخطر لم يجد مهران من يمشىوراءه لأن الأمير كان قد شوهه بأكثر من وسيلة . لذلك عندما استرد مهران ثوريته وعاد الى التزامه القديم وجد نفسه وحيدا ، وكان عليه أن يكافح من أجل الالتصاق بالجماهير من جديد .

والخط الثورى التنويرى فى كتابات الشرقاوى يتمثل فى القدوة السلوكية للقائد حين يدافع بكل امكاناته عن القيم التى التزم بها أمام الجماهير . وهذا الدفاع يأخذ صورا مختلفة ومواقف متعددة وقطاعات متنوعة . انه الدفاع عن حق الانسان فى الحياة العادلة بتأكيد قدرة الانسان على أن يصنع لنفسه الواقع الأفضل ، وأن يوضح مأساته فى خلال صراعه مع هذه الظروف ، معتمدا على ايمان عميق بقدرة الطاقة الانسانية على أن يصنع المعجزة وأن يمتلك المصير مهما كانت الظروف . يقول مهران فى هذا :

« ان هذا الليل .. كل الليل لا يقوى على طمس شعاع خافت من ضوء شمعة » .

وهو نفس التعبير الذى استخدمه الشرقاوى فى مقالته الأخيرة عن «الثقافة والسياسة» والذى استشهدنا به كدليل عملى على الاتساق الفكرى الذى يتمتع به الشرقاوى فى كل كتاباته . وتنتهى المسرحية والفتى مهران يقول :

« نحن الذين يموت أفضلنا ليحيا الآخرون بلا دموع . نحن الذين نخوض معركة المصير بلا دروع ضـــد اللصوص الدارعين . نحن الذين بلا خوذ . نحن الذين صدورهم كظهورهم مكشوفة للطاعنين . نحن الذين لم ينعكس وهج على جباهنا وعروقنا ، بالرغم من هذا يوجهها لهب الشوق للمستقبل . هو ذلك . أن نكن نحن خسرنا جولة اليوم فما زال لدينا كل ما يأتي من الأيام بعد . لا يزال الدهر كله ملكنا » .

وعندما عرضت مسرحية « الفتى مهران » لأول مرة صاحبتها حملة عنيفة بأقلام نقاد عديدين رأوا فيهـا عملا فنيـا معاديا للثورة وللنظام القائم . وكان أهم ما كتبه فيها قول محمود أمين العالم في مجلة « المصور » بتاريخ ٢١ يناير ١٩٦٦ :

« والمسرحية كما نرى ليست مجرد تسجيل تاريخي لما كان من ظلم المماليك ومقاومة الفلاحين ومساومة بعض الثوار في ذلك العصر ، وانما هي كما أشرنا من قبل تعبير رمزي عن أحداث واقعنا الاجتماعي والسياسي . والمسرحية في الحقيقـة تعبر عن مرحلة من حيـاة المجتمع سادت فيهـا الاتجاهات الادارية وانتعشت العنـاصر المتخلفة وعانت الديمقراطية في التطبيق الاجتماعي .

« والمسرحيـة كذلك قد تعرض لبعض القيـم بالنقـد والتجـريح والتشريح ، وقد تحذر من التلاقي والتهاون بين بعض القوى الاجتماعية . وقد تحذر كذلك من التحالف والمساومة مع قوى العدوان الخارجي ، وهي تعبر عن سخط مشروع من عزلة القادة عن الجماهير .. والمسرحية زاخرة بكثير من الايحاءات . والايحاءات التي قد تصلح كنايات عن أشياء محددة .

« وعلى الرغم من أن المسرحية تفرق في أحداثها بين نوعين من الحروب، حـرب الغزو والنهب وحـرب التحرير الوطني . الحرب الأولى هي غزوة السنه والحرب الثانية هي مقاومة التتار ومواجهتهم ، الا أنها في بعض تعابيرها تدين الحرب بشكل عام ومطلق ، بحيث يكاد يختلط المعنيان في وجدان المشاهدين ، فيخرجون بادانة الحرب عامة . فنسمع بين فصـول المسرحية من يتسـاءل : ماذا يعني ؟ ماذا يقصد بحرب السنه ؟!

« والمسرحية تغمز وتلمز بهؤلاء الذين يصنعون جماعات مع جيش الأمير . والمسرحية بهذا قد توحي ببعض الايحاءات التي تبذر بذور التشكك والريبة في أن اللقاء الثوري يتم في بلادنا بين مختلف القوى الاجتماعية المؤمنة بالتقدم والاشتراكية . فعندما يقول عوض وهو الشخصية التي تخون مبادىء الفتـوة : (يا رفاقي) يرد عليه أسامة : (لم نعد بعـد رفاقك) . وحين يشرح له عوض القضـيـة يرد عليه وائل متسائلا في

تشكك وريبة : (وتصفي كل شيء ؟ الجماعات وتاريخ الفتوة ؟ وكفاح الناس من أجل العدالة ، وأماني المساكين ، وأحلام السنين ؟) ٠

« مثل هذه الكلمات التي يقولها وائل تثير هذه الايحاءات التي أشرت اليها وقد تبذر البذور السامة في حقول اللقاء الثوري » ٠

من التحليل السابق لمحمود أمين العالم يتأكد لدينا انه قرأ في مأساة « الفتى مهران » التي جرت حوادثها أيام السلطان الغوري ملامح مصر والمجتمع المصري في عهد الثورة ، ورأى فيها أيضا رموزا وكنايات تدل على ضيق الكاتب بمجرى الحرب التحريرية التي تقوم بها مصر ، وضيقه بحل جماعات « الرفاق » وتشككه في حدوث اللقاء الثوري بين مختلف القوى الاجتماعية المؤمنة بالتقدم والاشتراكية ٠

هذه الضجة السياسية التي أثارتها واحدة من مسرحيات عبد الرحمن الشرقاوي في عقد الستينيات الملتهب ، تثبت بالدليل العملي الى أي مدى كان الشرقاوي منغمسا في الكفاح من أجل الفكر الحضاري والتنوير الشامل على المستوى السياسي على الرغم من أنه لم يكتب في السياسة بأسلوب تقريري مباشر ٠ انه لم يهرب من السياسة الى الثقافة كما يدعي البعض ، ذلك أن السياسة المعاصرة بمفهومها العلمي الحضاري جزء لا يتجزأ من الثقافة الشاملة للأمة ٠ وبالتالي فالثقافة هي الأصل في حين أن السياسة هي الفرع ٠ وقد فضل الشرقاوي أن يتعامل مع الأصل لثباته ودوامه وعدم خضوعه لمتغيرات الفرع الطارئة والمؤقتة ٠ يقول عن الحضارة المصرية القديمة بصفتها أول حضارة ناضجة متبلورة متقدمة عرفها الانسان :

« وما اقامت مصر اول واعظم حضارة في التاريخ القديم ، الا لأن المصريين القدماء كانوا متقدمين ومتقدمين في كل الوان المعرفة ٠ اتقنوا الرياضة والهندسة والطب والفلك والآداب والموسيقى وصناعة التماثيل والرسوم ، وسائر الوان العلوم والفنون ٠

« وقد ازدهرت الحضارة الاسلامية والعربية ، حين استطاع الأوائل من السلف الصالح ــ بهدى من القرآن الكريم ــ أن يقتحموا آفاق المعارف ويستوعبوها ، وأن يتقنوا العلوم والفنون والآداب ، فقهروا المجهول ، وامسكوا بأيديهم أزمة المصير باذن الله ٠

« استطاع الفكر الاسلامي الفتى أن يكشف قوانين الطبيعة والحياة ، وأن ينشىء العالم الفاضل على دعائم من تعاليم الاسلام ، وفي ظل ظليل من قيم الدين القيم ٠ ومن تلك الثقافة الاسلامية والعربية ، تفجرت على

قسوة الحياة ينابيع التراحم والحب والبر والاحسان · ومن جلال التعاليم الاسلامية خرجت مبادىء الفتوة ، والنجدة ، والفروسية ، والاحترام المتبادل · حتى لقد شكلت مبادىء الاسلام فى أوروبا العصور الوسطى أنبل ما فى تقاليد الفروسية الأوروبية من احترام للمرأة ، ومساعدة للضعيف ، واكبار للشيوخ ، ومساعدة للفقراء » ·

ويوضح الشرقاوى أن الثقافة والحضارة هما وجهان لعملة واحدة هى الحياة الانسانية الراقية الكريمة · واذا غابت الثقافة وتوارت فلابد أن تسود الهمجية والتعصب والجهل والتدهور والانحلال ، والأمة التى تسعى الى ازدهار ثقافتها على كل المستويات ، فانها تصبح مهددة بالاندثار · وكان من أهم أسباب ازدهار الحضارة الاسلامية والعربية أن الثقافة كانت زادا يوميا للناس سواء على مستوى الفكر أو مستوى السلوك · وعلى هذا الأساس قامت المجتمعات الفاضلة ، التى يلتزم كل أفرادها مكارم الأخلاق، وتسودها القيم الشريفة ، فاذا كل الأفراد رحماء بينهم ، كلهم يعمل ، وكلهم يساعد أخاه ، وكلهم يضيف الى الأمة عطاء وثراء ، فاذا بالتقوى هى التى تحكم علاقات الناس ، واذ بكل أفراد المجتمع نماذج رائعة من الذوق المصفى ، واذ هم جميعا يتمتعون بزينة الحياة الدنيا ، والطيبات من الرزق التى أحلها الله لعباده ، يأكلون أشهى الطعام ، ويلبسون أنظف الثياب ، ولكل منهم بيت يسكن فيه الى دفء الحب وسكينة الأمن ، ولكل منهم دابة تحمله الى حيث يريد ، حيث طرقات الحياة جميلة لا يفسدها ضجيج ولا زحام ، ولا تختنق الأنفاس فيها غازات سامة بل تعبق بعطر البساتين والحدائق ، وتستلقى عليها ظلال الأشجار ، وتضوع فيها الأنسام يهدهدها شدو الطير · الطير ، والزهر ، والأنغام ، والسكينة ، وجلال المودات ، والمتاع الحلال ·

هذه الصورة المشرقة التى يرسمها عبد الرحمن الشرقاوى بقلم الشاعر ، يجسد بها مفهومه الملموس للحضارة الانسانية · فهى تكشف الروعة التى كانت تنبض بها المجتمعات العربية والاسلامية حين كانت تتألف من أفراد مثقفين · لقد أقامت بنيانها على الثقافة فازدهرت وأترفت، حتى لقد كان بعض حكام المسلمين لا يجدون مصارف للزكاة ، فليس فى الأمة فقراء أو مساكين أو أبناء سبيل يستحقون أموال الزكاة · فكان من أمراء المؤمنين من ينفق هذه الأموال على التعليم والتثقيف حتى لم يعد فى الأمة من لم ينل حظه الوافر من التعليم والثقافة ذكر أو أنثى ، فانفقوا هذه الأموال على تزويج الشباب ، ومنحهم رواتب ومساكن صالحة - وما فرق أمراء المؤمنين فى ذلك بين المسلمين من الشباب وغير المسلمين - يتساءل الشرقاوى :

« أكان يمكن أن تزدهر هذه المجتمعات ، بغير الثقافة ؟! الثقافة هي التي صاغت عقول الأفراد وارتفعت بأذواقهم ، وهذبت أخلاقهم ، فوعوا ما عليهم وما لهم . وهكذا استطاعوا أن يحققوا التقدم والرفاهية . أين الذوق العام في عصرنا من الذوق العام في تلك العصور الباهرة الذاهبة ؟ » .

ويرى الشرقاوي أن الذوق العام من أهم المظاهر الملموسة لثقافة الأمة على مستواها السلوكي اليومي . فاذا كان المظهر فاسدا فلابد أنه يعبر عن جوهر فاسد بالقدر نفسه . يوجه الشرقاوي نظرنا الى ظاهرة اعتدنا على وجودها برغم خطورتها المتزايدة فيقول :

« فلننظر الى فقدان الاحساس بالنظافة على الرغم من أن ديننا يأمرنا بالنظافة . ولقد ورثنا من الماضي صوتا عظيما يعلمنا أن النظافة من الايمان. فلنتأمل أي طريق في أية مدينة عربية أو اسلامية : أهذا هو ما يأمرنا به ديننا ؟! حتى بيوت الله التي كان يضوع فيها من قبل عرف المسك وشذى البخور أصبحت الآن تضج من الروائح الكريهة على الرغم من الأمر الالهي الحاسم الذي ورد في القرآن الكريم : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » .. أيمكن لأفراد شكلت الثقافة عقولهم وأذواقهم أن يسمحوا أن تزحف القذارة على شوارعهم ولا ترحم مكانا حتى بيوت الله ؟! » .

وربما كان هذا السبب في لجوء الشرقاوي الى الشخصيات التاريخية الملحمية في مسرحياته حتى يجسد مفاهيمه الفكرية والحضارية التي لم يجد من الشخصيات المعاصرة من يقوم بهذه المهمة الفنية الدرامية . وهو يتناول المضمون الملحمي بقدر ما يسمح المسرح . انها عملية صب الأفكار في الحروف وتمكين هذه الحروف أن تعبر من سعة الفكر وأبعادها . والمسرح عند الشرقاوي وسيط ممتاز ومؤثر لنقل الأفكار للحياة ، ولذلك لا يهتم بالتسلية بقدر ما يهتم بتوصيل أفكاره الى جمهوره . على أن يتوفر في العمل الفني نوع من الصلة والجاذبية والتفاعل مع أفراد الجمهور مما يحملهم على متابعة المسرحية واستيعابها في الوقت نفسه .

ففي مسرحية « جميلة » يبدو جاسر عاملا جزائريا عاديا ، المسائل أمامه محددة وله نظرة في الثورة غير نظرة المثقفين ولهذا يصطدم أحيانا بأحلام المثقفين . ولذلك فهو لا يشكل البطل الحقيقي القومي في نظر الشرقاوي . انه مجرد عامل ذكي يعرف أن العمل المعين في ظروف معينة يأتي بنتيجة معينة . وهو واقعي حتى في أحلامه وليست له نظرة ثقافية شاملة لعصره ومجتمعه ، ومع ذلك فهو يستطيع أن يحول الضربات والنكبات التي يتلقاها على يد العدو الى انجازات ومكاسب من خلال

مضاعفة مقاومته . هنا كانت الفائدة العملية لواقعيته . فهو يعلم أن ظروف بلده تحتاج الى عمل جديد وهو لهذا يحشد القوى الثقافية الصاعدة كما تتمثل فى الطلبة والطالبات للقيام بمثل هذا العمل . كان هؤلاء على استعداد للتضحية من أجل الثورة لكنهم كانوا فى الوقت نفسه فى حاجة الى توجيه وقيادة جاسر . وبذلك تفاعلت قدرته الادارية مع طاقتهم الثورية الثقافية .

ولم يكن جاسر بمثل هذا الجفاف الذى قد نظنه لأول وهلة من هذا التحليل . فقد كان قلبه متفتحا لحب الحياة والناس ، بدليل أنه يقع فى حب جميلة . لكن ضعفه الحقيقى كان يكمن فى قصور نظرته الفكرية والثقافية الى ظروف عصره ومجتمعه . كان يظن مثلا أنه قادر على انقاذ جميلة فى مواجهة جبروت العدو . اما جميلة الطالبة البسيطة فقد جسد الشرقاوى من خلالها مفهومه للأسلوب الذى يصنع به المثقف الثورى . فالظروف السياسية والاجتماعية التى تمر بها البلاد يمكن أن تصنع من انسان عادى جدا مناضلا ثوريا رائدا . فلا توجد طينة للكفاح وأخرى للحياة العادية ، ولذلك استطاعت جميلة أن تغير الظروف بكشفها عن الطاقة الثورية فى الانسان العادى عندما تواجهه الظروف القاسية التى تريد أن تعلقه على مشنقة واقعه المرير فاذ به ينطلق بطاقته الضخمة متحملا كل أنواع العذاب ،ومحولا أحلامه وأفكاره الى سلوك وواقع .

وفى مسرحية « الحسين ثائرا » يبرز الرجل الثائر الذى يمنعه فكره وثقافته ومنطقه من تقبل المظالم التى تقع أمامه ، ويسعى الى الدفاع عنها بقيمه وأفكاره ومثله العليا دون أن يستعين بسلاح خصمه ، واذ بهذه القيم والمثل العليا ذاتها تؤدى الى تحطيمه وقتله ظلما باسم القضية التى يدافع عنها ، أى أن خصومه ، أعداء هذه القضية ، يقتلونه باسم الدفاع عنها . فهو كأى ثائر حر مؤمن بأفكاره وقيمه يقتله الغاشمون باسم الدفاع عن الحرية فى عصر من عصور التزييف الكبرى . ان اختلاف الرأى بين المثقفين الأصلاء لا يمكن أن يؤدى الى استخدام السلاح واهدار الأرواح ، لكن الذى حدث أن الحسين دافع عن القيم الاسلامية كما استوعبها وأدركها فاذ بأعدائه يقتلونه باسم الاسلام فى احدى مراحل فتوة الاسلام .

أما مسرحية « الأسير » فتجسد معركة الشعب المصرى ضد الغزو الفرنسى بقيادة لويس التاسع . كان الشعب يعانى من حكم الأجنبى ومن الضياع الفكرى ومن التمزق السياسى فى السلطة العليا ، ومن كل الاحتمالات المترتبة على هذا الضياع والاضطهادات التى يعكسها هذا التمزق . هنا تكمن روح الشعب كالنار تحت الرماد ، انها ـ فى نظر الشرقاوى ـ يمكن أن تخبو لكنها لا يمكن أن تنطفىء . ولذلك استطاع

الشعب ـ الذى كان أسيرا لمظالم كثيرة ـ أن يصمد أمام الغزو الأجنبى ، وان يحول جلاده وغازيه الى أســير ، وأن ينتفض بكل طاقاته الفكرية والمادية ليتولى مسئولية مصيره ٠ فاذا بالأمراء المتناحرين على الســلطة يقعون أسرى الخوف لتحرك هذا الشعب ، واذ بالملك القديس لويس التاسع بكل هيلمانه ونفوذه يقع أسيرا لجماعة من الفلاحين البسطاء فى المنصورة ، جماعة تتمكن من وضع نهاية للحرب وفرض السلام على أعداء السلام ٠

وكعادة عبد الرحمن الشرقاوى فى الرجوع الى التاريخ لتجسيد قيمه الفكرية ، فان أحداث مسرحية « سانت كاترين » تقع فى عصر مصر الرومانية ٠ كانت سانت كاترين احدى غانيات الاسكندرية بل واحدى ملكات الغواية فيها ، وانتهت الى قديسة خلال اكتشافها لجوهرها الحقيقى ، ومسئوليتها الأخلاقية أمام المحتلين الذين كانوا يملكون كل شىء ٠ ومن خلال التصاقها بحكم الأصل بفقراء المصريين ، واكتشافها بحكم الوظيفة الجبروت الوحشى الذى تجسد فى وجود غزاة مصر ، راعها ألوان الاضطهاد البشع ضد شعبها الذى هى منه ٠ خبرت أفحش أنواع الترف والاستمتاع مع عشاقها من جلادى أهلها ، لكنها استيقظت يوما بعد يوم لتدرك أبعاد الكابوس الحى الذى يعيشه أهلها ٠ ومع استيعابها لكل حقائق عصرها بدأت تقود المقاومة واستعذبت أن تكون شهيدة كبنى وطنها بدلا من ان يجرفها الضياع الفكرى والتمزق بين حياتها الداعرة فى أحضان أهلهـا والتعذيب الهمجى الذى يلقاه أهلها فى سبيل عقيدة آمنوا بها ومثل وقيم قرروا التضحية من أجلها مهما كان الثمن ٠

هكذا كان تراثنا مرصعا بهذه المواقف المتلألئة الزاخرة بالقيم والمثل العليا ٠ كانت الثقافة والفكر عند هؤلاء الأبطال ســلوكا ومعاناة حتى لو أدى الأمر الى دفع الحياة ثمنا لها ٠ لكننا الآن ونحن فى الربع الأخير من القرن العشرين لم نرتفع الى مســتوى مثل هــذه المواقف الخالدة والشخصيات الملحمية التى سبقتنا بمئات أو آلاف السنين ، ذلك ان الثقافة أصبحت مجرد زخرف خارجى مزيف عند الناس ٠ وهذا ـ فى نظر الشرقاوى ـ موطن الداء ٠ يتساءل :

« لماذا لا تحقق خطط التنمية أهدافها فى بلادنا الاسلامية والعربية وسائر البلاد النامية ؟! ولماذا لا يحدث هذا فى الخطط الاقتصــادية فى البلاد المتقدمة ؟! أنحن أقل ذكاء ؟! لا ٠٠ حتى الأعداء لم يزعموا هــذا ٠ أنحن أكثر رفضا لما تأتى به الحكومات ؟ كلا ٠٠ بل ربما كنا أكثر امتثالا للقوانين والقرارات ٠٠ أو نحن بالقليل مثلهم ! ولكننا مع الأسف أقل حظا من الثقافة والتعليم وهنا تكمن العلة . وهى علة تولد الشقاء الناطح بقرنيه ! ان تلك المجتمعات المتقدمة التى تنجح فيهـا الخطط الاجتماعية

والاقتصادية قد تطهرت من الأمية ، ثم ان الثقافة زاد وغذاء يومي لكل مواطن فيها • فهو يقرأ روائع الأدب ويطلع على منجزات العلم ويتفهمها ويمتع حسه وعقله • يربي ذوقه بالفنون المختلفة من تشكيلية وتعبيرية • لهذا يحرص على نظافة بدنه وبلده وبيته • لهذا يوفر السكينة لغيره ولا يسمم الجو حوله بالضوضاء والغازات السامة التي تنفثها أدوات النقل » •

ثم يؤكد الشرقاوى أن القوانين الصارمة التي نسن لضبط قواعد السلوك وعقاب المنحرفين والشواذ ، لن تكون مؤثرة ـ ناهيك عن كونها صارمة ـ في شعب لم تر عينه نور الثقافة التي تعد الشرط الأساسي للتحضر • ان القوانين عند الشعوب المتحضرة تكمن داخل الأفراد ولا تفرض عليهم من الخارج . ولذلك يسود الذوق العام والسلوك الانساني ، ويتراحم الناس ، ويفسح القوى للضعيف ، ولا يتركون شيخا أو عجوزا يتزاحم في وسائل المواصلات • ولهذا ينتظمون في صفوف ولا يحاول أحد أن يدفع الآخر أو يستولى على مكانه • على هذه الأشياء الصغيرة يعلق الشرقاوى بقوله :

« كل هذه الأشياء الصغيرة التي هي علامة التحضر والتي تنبع من حسن الذوق ، كلها تتوافر حين تشيع الثقافة • ولكن المجتمعات التي يقل نصيب الفرد فيها من الثقافة تفقد هذا جميعا ؟ ثم كيف نبني المجتمع الفاضل أو الأمثل الذى تخطط له السياسة اذا كان الأفراد الذين سيبنون هذا المجتمع قدرا من الوعي يؤهلهم للنهوض بواجبهم في صياغة عالم جدير بأن يحيا فيه الانسان ؟ » •

هنا يكمن السر في عدم قدرة كل النداءات والمواعظ على اقناع الناس بأن موارد الدولة ستعجز عن مواجهة احتياجات الأفراد أن ظلت الزيادة في عدد السكان تطرد على النحو المخيف الذى نشهده • ذلك أن أفراد هذه الأمة لو كانوا يتمتعون بالقدر الواجب واللازم من الثقافة لما عجزت النداءات والمواعظ المتلاحقة عن الاقناع ، ولما احتاج الأمر أصلا الى موعظة أو نداء • ذلك أن العقل المثقف يخطط لصاحبه ولا يزج به في مأزق انجاب أكثر ممن يستطيع أن يعول • ثم ان العقل المثقف يمتاز بالنظرة الشاملة ، فهو يحسب حساب المستقبل ، ويدرك قوانين الحياة ويدرك أن كل زيادة في السكان لا تحتملها الموارد انما تعني قصورا في الخدمات والطعام نفسه ، وتعني الاندفاع الى هاوية بلا قرار •

ويعبر عبد الرحمن الشرقاوى عن دهشته لخطاب جاءه من قارىء يلومه فيه دعوته الى تحديد النسل ، وينكر عليه أن يرجع هذه الزيادة

الى الجهل أو نقص الثقافة ، وفقدان الثقافة الدينية ، ثم ينكر أن الامام الغزالى أفتى بأن تحديد النسل غير منهى عنه · لكن الشرقاوى بمنتهى الموضوعية الهادئة يرد على القارىء فيقول :

« أما أن زيادة السكان على نحو لا تحتمله موارد الدولة وطاقتها ترجع الى شيوع الأمية والى التخلف الثقافى فهذا ثابت بالاستقراء العلمى . فلتنظر دول العالم المتقدم والعالم النامى · فى العالم المتقدم حيث تضىء الثقافة عقول الناس وحيث لا أمية بعد ، لا تنجب الأسرة على الرغم من الغنى أكثر من طفلين · أما فى العالم النامى حيث تشيع الأمية والتخلف والقصور الثقافى فالأسرة تنجب عشرة أطفال أو يزيدون ·

« وحيث يتناسق عدد السكان مع الموارد والدخل يتحقق الرخاء والتقدم · والنسبة تطرد · وهذه حقائق علمية موضوعية لا حيلة ولا مجال للاجتهاد · اما أن ينكر أحد قول الامام الغزالى فانا أحيله الى الجزء الثانى من كتاب « احياء علوم الدين » صفحة ٥٣ · ولعل السيد القارىء قد خلط بين الاجهاض وبين الامتناع عن الحمل · فالاجهاض منهى عنه الا لضرورة كانقاذ حياة الأم · والمحظور تبيحه الضرورة · فالجنين نفس والاجهاض قتل للنفس ! ·

« وأنا ما تحدثت عن الاجهاض ولكنى كنت أتحدث عن الامتناع عن الحمل وهى غير منهى عنه فى حالات ذكرها الامام الغزالى مثل : استبقاء جمال المرأة وسمتها ، أى المحافظة على جمالها وقوامها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق · هذه حالة ذكرها الامام الغزالى · وحتى حرص المرأة على جمالها فى رأى الغزالى وحسن قوامها يبيح الامتناع عن الحمل · أما الحالة الثانية فهى : « الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة على التعب فى الكسب ودخول مداخل السوء » · وهذا كلام واضح لا يحتاج الى تفسير » ·

واذا كان اهتمام الشرقاوى بالثقافة كأساس لكل محاولات التحضر ، يصل الى هذه الدرجة من العناية والتركيز ، فلابد أن نتوقع أن يكون اهتمامه باللغة القومية مماثلا بصفتها الوعاء الطبيعى الذى تتشكل فيه ثقافتنا القومية · وهنا يواكب الشرقاوى أحدث مدارس اللغويات وفقه اللغة فى عالمنا المعاصر ، وهى المدارس التى تجعل من الثقافة واللغة وجهين لعملة واحدة هى الفكر الانسانى الحقيقى · ذلك أن العجز عن حسن استعمال اللغة بصفتها اسمى أدوات التعبير عن الثقافة ، هذا العجز لا ينفصل عن ضعف المعرفة ونقص الثقافة فى بلادنا لأنه نتيجة طبيعية حتمية لهما ·

ويضرب الشرقاوى المثل بالدرك الذى بلغه استخدامنا للغتنا فيقول ان الخطأ فى اللغة العربية أصبح يمس نصوص التشريعات والقوانين · فقد حدثه أستاذ من أساتذة القانون عن اضطراره الى تدريس نصوص قانون تفسده الأخطاء اللغوية وتغير معانيه · وتجر هذه الأخطاء بالضرورة القضاة الذين يطبقون هذا القانون الى الخطأ ، لأن القضاة يلتزمون بتنفيذ نصوص القانون كما أوردها المشرع · ولذلك فالنص القانونى يجب أن يكون صحيح اللغة ، تأتى فيه الألفاظ على قدر المعانى فصيحا مبينا ، فلا يدع مجالا لسوء التأويل ، أو الخطأ فى التطبيق · وقبل أجيال التدهور الثقافى كانت النصوص القانونية والأحكام القضائية وكتابات الأساتذة والشراح والفقهاء والمجتهدين ومرافعات المحامين صورا جميلة من فصاحة البيان العربى ·

ويرى الشرقاوى أن الأمر خطير جلل فيما يتصل بمستقبل الثقافة أو اللغة أو الحضارة على حد سواء · ذلك أنه عندما يصل بنا القصور الثقافى الى اهدار اللغة العربية بحيث يغير الخطأ معانى العبارات ، فالأمر اذن يحتاج الى استنفار لتنقذ اللغة من العابثين بها أيا ما تكن مواقعهم · وهم لسوء الحظ من الذين يخاطبون الجماهير من المنابر أو من أجهزة الاذاعة والتليفزيون وغيرها من أدوات النشر أو من الذين بأيديهم مقاليد الأمور · ويستشهد الشرقاوى بشخصية وموقف من تراثنا الحضارى المجيد كى يدلل على مدى التدهور الذى أصاب ثقافتنا فيقول :

« كان الامام الشافعى رضى الله عنه يشترط فيمن يلى أمرا من الأمور أو فمن يخاطب الناس أن يتقن اللغة العربية وأن يحفظ الأشعار القديمة الى جانب حفظ القرآن والحديث وآثار السلف · وكان يحذر من الخطأ فى اللغة لكيلا تفسد الحياة · وخلال مرضه عاده أحد الزوار فقال له : قوى الله ضعفك ، فابتسم الامام الشافعى فى أسى واشفاق على ما أصاب اللغة العربية وقال لزائره : « تريد أن تدعو لى بالشفاء ولكنك تقول قوى الله ضعفك وهذا دعاء على لا لى · أفلا قلت قوى الله عافيتك أو أذهب الله ضعفك أو أضعف الله ضعفك » ·

لكن المأساة فى عصرنا هذا تبلغ قمتها عندما يجد المفكرون والمثقفون من أمثال عبد الرحمن الشرقاوى أنفسهم مضطرين الى الدفاع عن أهمية الثقافة وضرورتها الحضارية ، فى حين أن وجودها أصبح كالبدهيات التى لا تحتاج الى برهان أو تأكيد · فنحن عندما ندافع عن الثقافة وضرورتها للعقل والروح والوجدان ، فكأننا ندافع عن ضرورة الهواء والماء والطعام لاستمرار حياة الانسان · كلها أمور مفروغ منها ، لكن التخلف الفكرى والثقافى الذى نعيشه ، يضطرنا فى كثير من الأحيان الى التدليل على

البدهيات التي ينظر اليها الكثيرون على أنها مجرد أمور ثانوية يمكن تجاهلها والتغاضي عنها ، وذلك لقناعتهم الراسخة بأنهم يعيشون ليأكلوا وليس العكس ·

من هنا كان احساس الكآبة والاحباط الذى يجتـــــاح الشرقاوى لاضطراره الى تبرير الاهتمام بالثقافة ، فى حين أن الثقافة ليست أثمن حلى العقل فحسب بل قوام الانسان ودعامة التحضر وقوته الدافعة وهى عصب التقدم · انها فن صياغة الفرد الذى يبني المجتمع · وكل بنـــاء سياسي أو اقتصادى على غير أساس وطيد من الثقافة انما هو بناء هش على الرمال · ومن هنا كان اتهـــام الآخرين للشرقاوى بأنه يهرب من الكتابة في السياسة بالكتابة في الثقافة ، اتهاما ساذجا يحمل جهلا فاضحا بكل من السياسة والثقافة ، ذلك أن الفكر الانساني نسيج عضوى متكامل لا يمكن تجزئته وتصنيفه بهذه السذاجة والسطحية · يقول الشرقاوى :

« فلنتأمل ما يدمره فقدان الثقافة الدينية من حياتنا الاقتصـــادية والاجتماعية والسياسية ! أكان من الممكن أن تظهر دعوة للعنف باسم الاسلام لو أن الثقافة الاسلامية كانت هي ما يعمر نفوس الشباب ويضيء عقولهم ؟! أكان من السهل أن تتبدل الدعوة بالحكمة والموعظة الحســـنة الى حوار بالرصاص والخناجر واتهام بالكفر واستباحة للأموال والدماء لو أن الثقافة الاسلامية هي ما يصوغ المشـــاعر والوجدان ويشـــكل الأفهام ·· ؟ ·

« وهذا هو ما تعاني منه كثير من بلادنا العربية والاســلامية · واذن فكفى حديثا عن الفصل بين الثقافة والسياسة والاقتصاد ! كفى !! فلنحتشد جميعا مستنفرين كل طاقاتنا لانقاذ الثقافة واللغة العربية من المحنة ، فبغير هذا تصبح محاولة الاصلاح كالغرس فى أرض ميتة ، وأنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟! هو وحده الذى يستطيع باحدى معجزاته أن يحييها وهو على كل شيء قدير · ولكنه تعالى يخلق الأسلوب وقد أمر الله الناس أن يعمـــلوا ولهم قلوب يفقهون بهـــا · أم على قلوب أقفالها ؟! » ·

هذه هي شهادة عبد الرحمن الشرقاوى على عصره · انه يضع يده على موطن الداء ويوجه كل الأنظار اليه لاستئصاله قبل أن يستشرى ويعز الدواء · ان الداء لا يكمن فى أساليبنا السياسية أو اتجاهاتنا الاقتصادية أو تياراتنا الاجتماعية ، فهى كلها أعراض ظاهرة بل وطارئة مؤقتة لداء عضال كامن فى ثقافة هذه الأمة ، ينخر فيها بأسلوب خبيث لا يلمسه البسطاء من النـــاس بل انهم يتصـــورون ـ بمضى الزمن ـ أنه الوضع

الطبيعى ، ثم يشكون من السلبيات السياسية والمشكلات الاقتصادية والعقبات الاجتماعية ، وهم بذلك يركزون على النتائج غير مدركين للأسباب الحقيقية التى أدت اليها ٠

ان مهمة تنوير عقول الناس تأتى فى الأهمية قبل أية مهمة قومية اخرى ٠ ولسنا فى حاجة الى القول بأن الله قد منح الانسان عقلا حتى يكون بمثابة البوصلة التى تهديه سواء السبيل ، فاذا أصابها الصدأ فلابد أن تضل السبيل ، وعندئذ يمكن أن نتوقع بروز ظواهر وأمراض اجتماعية وفكرية ، ربما لم تكن تخطر لنا على بال ٠ واذا كنا لا نختلف حول مبدأ : « الوقاية خير من العلاج » ، فان الثقافة الانسانية الراقية الشاملة خير تحصين للناس ضد كل الأمراض السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠ أما اذا تركنا الأمور كى تجرى على ما هى عليه فلن نلوم الا أنفسنا ٠

● أحمد بهاء الدين

● احمد بهاء الدين

أحمد بهاء الدين من مفكرينا السياسيين ذوى النظرة الشاملة المتجددة الى متغيرات العصر دون حساسيات أو عقد · فالموضوعية العلمية هى منهجه الحضارى الذى يقيس به المواقف والرجال بصرف النظر عما قد يوجه اليه من تهم باطلة أو ادعاءات كاذبة أو تهديدات مباشرة · ولذلك كان من مميزات فكره السياسى والاجتماعى والاقتصادى والحضارى ، الاتساق والوضوح والعمق نتيجة لمواكبته المستمرة لأحداث عصره ومواقفه، سواء على المستوى المصرى الوطنى أو المستوى العربى القومى أو المستوى العالمى الشامل · ولذلك كانت كتبه ومقالاته بمثابة أضواء مكثفة فى حركة التنوير العربى المعاصر ·

ولعل الاتساق الفكرى عند أحمد بهاء الدين يرجع الى ايمانه العميق بأن حركة التاريخ الحضارى للانسان تشكل سلسلة متتابعة على أساس منطقى حتمى لا تدخل فى نطاقه أية غيبيات أو تهويمات أو صدف عمياء · يقول فى مقدمة كتابه « أيام لها تاريخ » ·

« أيها القارىء ! هل عرفت أحدث تعريف للانسان ؟ لقد قيل مرة : أنه حيوان ناطق ، ثم تبين أن الببغاء تنطق · وقيل : انه حيوان ضاحك ، ثم تبين أن القرود تضحك · وقيل : انه حيوان عاقل ، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل وان كان العقل درجات !

« وحار العلماء طويلا : فالانسان كائن حى ، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات ، ولكن المؤكد أن هناك شيئا ما يميزه عن الحيوان ، شيئا ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذى يحكم الحيوان

والجماد ويقهر الطبيعة · وأخيرا اهتدى العلماء الى التعريف الدقيق : الانسان حيوان ذو تاريخ ! مامعنى ذلك ؟ معناه أن الميزة التى يميز الانسان عن غيره من المخلوقات هى أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذى سبقه ويستفيد منها · وأنه بهذه الميزة ـ وحدها ـ يتطور · وعلى العكس من ذلك الحيوان ، فالأسد أو القط أو الكلب الذى كان يعيش فى الأرض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التى نراها اليوم ، فى الصفات والطباع ونوع الحياة ·

« أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذى تجده فى بيتك بنفس الطريقة التى كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم · مصيدة وقطعة جبن ! ولو كان فى بيتك عشرة فيران لاستطعت أن تتصيدها واحدا بعد آخر ، يوما بعد يوم ، بنفس المصيدة وقطعة الجبن ، ذلك أن الفيران ليس لها تاريخ ، ولا تستفيد من تجربة · هى لا تعرف أن فى اليوم السابق دخل الفار ليأكل الجبن فأغلقت عليه المصيدة ، وهى قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزى ، فلا تتحاشى أبدا قطعة الجبن ·

« وعلى العكس من ذلك ·· الانسان ، انه يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس ، ومنذ مائة سنة ، ومنذ آلاف السنين · فهو قادر على أن يتجنب زلاتهم ، ويستفيد من تجاربهم ، ويضيف الى اكتشافاتهم · وكل جيل لا يبدأ من جديد ولكن يضيف الى ما سبق · وهذا هو التقدم ·

« على أن الانسان لا يولد وعبرة التاريخ فى جوفه ، ولكنه يتعلم · فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ الا اذا قرأ · ان كان رجل قانون قرأ ما سبق اليه فقهاء القانون · وان كان رجل كيمياء تعلم ما وصل اليه المكتشفون السابقون ، ومن حيث انتهوا يستطيع أن يبدأ · وان كان مواطنا فانه يتعلم تاريخ وطنه كله ، ويدرك مغزاه ، وسر تطوره ، واتجاه خطواته · وليس يكفى أن تعرف حوادث التاريخ لكى تحسب أنك قد تعلمت التاريخ · فالأهم أن تستخلص من هذه الحوادث عبرتها : على أى شىء تدل ؟ وفى أى طريق يمضى التاريخ ؟ فان ذلك يجعلك تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود ، فيجنبك أن تكون رجعيا ، ويحميك من السير وراء دعوات براقة فات وقتها · والتاريخ هو الفرق بين الانسان الواعى ، وغير الواعى · الانسان غير الواعى لا يرى الا قطعة الجبن ، ولكن الانسان الواعى يرى قطعة الجبن ، ويرى المصيدة ! » ·

هذا المنظور العلمى لحركة التاريخ كتبه أحمد بهاء الدين فى عام ١٩٥٤ ولا يزال يحكم منهجه الفكرى حتى الآن · ولذلك توضح كل كتاباته أن الفرق الأساسى بين الدول المتقدمة فى ركب الحضارة وبين الدول المتخلفة

عنه يكمن في مدى استيعاب حركة التاريخ والاستفادة من دروسها المتتابعة والمتجددة • أما المثل الشائع الذى يقول بأن التاريخ يكرر نفسه فانه ينطبق على الدول المتخلفة التى تعيش في دوائر مفرغة ومتاهات جانبية • ومن الواضح أن كل المآسى التى حلت بالوطن العربى كانت نتيجة مباشرة لعدم استفادتنا من دروس الماضى ، سواء أكان هذا عجزا أو تخلفا أو جهلا أو غباء أو تعصبا أو خيانة • ولذلك يعجب الذى يقوم بتحليل مشكلاتنا ، ذلك أنه سيكتشف أنها نفس المشكلات ـ تقريبا ـ التى كنا نعانى منها منذ أجيال عديدة مضت • فى حين أن الأحداث من حولنا تجرى بسرعة لا مثيل لها • وما كان يحدث فى قرن صار يحدث فى شهر • وحتى أصحاب أكبر وأكفأ أجهزة التنبوء والبحث والتحليل ، يلهثون وراء الأحداث ، لا يلتقطون أنفاسهم !

ويستشهد أحمد بهاء الدين من تراثنا بحكاية معاوية ابن أبى سفيان، عندما قال له أحدهم مباهيا بذكائه : أنا ما دخلت فى مشكلة ، الا وخرجت منها ! فرد عليه داهية الدهاء قائلا : أما أنا ، فما دخلت فى مشكلة قط • فالذى يشم رائحة المشكلات عن بعد ، ويحلها قبل أن تصل اليه ، خير من الذى تدركه المشكلات ، حتى ولو كان يخرج منها سالما • يقال هذا الكلام فى عهد معاوية فى حين نجد العرب فى العصر الحديث يقحمون أنفسهم فى معارك مفتعلة أو يتورطون فى مشكلات من صنع الآخرين ثم تتحول الى قضايا مصيرية بالنسبة لهم تشغلهم عن مسار مستقبلهم الحقيقى • ولهذا يتساءل أحمد بهاء الدين :

« لست أدرى كيف يترك « كبار » رجال الدين يكتبون فى الصحف أن شهادات الاستثمار حرام ، لأنها نوع من الربا ، دون أن نجد من يرد عليهم ويناقشهم ؟ ان هذه الأمور التى تبدو هينة هى أمور خطيرة جدا ، لأنها تترك فى نفوس الشباب والبسطاء رواسب خطيرة •

« لقد قرأت كل فتاوى الخمينى ـ مثلا ـ ووجدت أنه يحلل طبقا للشريعة الاسلامية كل المعاملات المالية المعروفة حاليا ، ولم يحرم الا اليانصيب على أساس انه قمار • ثم ـ فى حالة ايران أيضا ـ وهى تطالب بآلاف ملايين دولاراتها فى بنوك أمريكا • هل هناك عاقل يقول انه طبقا للشريعة الاسلامية على ايران أن تترك ألفين أو ثلاثة آلاف مليون دولار ، هى قيمة الفوائد ، لبنوك روكفلر ومورجان وغيرها ، وتحرم منها الشعب الايرانى ؟ •

« ومن غير المعقول أن تقاس المعاملات البسيطة البدائية ، التى كان الربا فيها يحمل معنى استغلال المحتاج ، والحصول على مال دون عمل ،

بعالم اليوم الشديد التعقيد فى مؤسساته وعلاقاته الاقتصادية ، والتى يوجد فيها ــ مثلا ــ شهادات الاستثمار التى هى تشجيع للفرد على الادخار· ان تجميع المال هو مفتاح أى تقدم أو انتاج أو رفع لمستوى الناس ، وحتى الآن لا توجد طريقة لتجميع المال سوى الادخار فى البنوك وفى السندات ، وتحديد جائزة لهذا الادخار » ·

وهذا المنهج الفكرى المستنير يمتد ليشمل نظرة أحمد بهاء الدين الاقتصادية الى كل أمور الانتاج والاستهلاك والعمالة · انه يرى مثلا أن ثروة مصر الكبرى ، هى ثروتها البشرية · انها حقيقة لا يختلف عليها اثنان من أهل الاقتصاد ، ومع ذلك فنحن ــ دولة وشعبا ــ لا نناقش الا أرقام الفدادين والمصانع والاعتمادات بالملايين ، فى حين أن العالم يعرف شيئا اسمه « الاستثمار البشرى » ، وهو جعل الانسان أكثر انتاجية · لكننا جعلنا مصر بلدا من غير المنتجين لأننا لم ندرك بعد أن الصراع الاقتصادى العالمى محوره تخفيض نفقات الانتاج ، وأهم وسائله رفع انتاجية الفرد ، وعدم وجود الذى يقبض ولا ينتج · فالفلاح بقليل من الارشاد يمكن أن يضاعف انتاجه بأسرع وأرخص من مضاعفة الأرض نفسها ، والعامل بالتدريب المهنى المكثف يمكن أن يضاعف انتاجه دون شراء آلات جديدة · كذلك فان البحث العلمى فى توفير الماء وتنويع المحاصيل وتجديد الصناعة الموجودة فعلا يحدث نفس الأثر ·

وهذا يقتضى أشياء كثيرة أولها أن نأخذ أنفسنا بالشدة ، أو تأخذنا القيادة بالشدة ، ولا تستطيع القيادة ذلك الا اذا سبقتنا بالقدوة · فالقيادة الحقيقية هى القدوة الحسنة ، أما دولة الكسل والمظاهر والشكليات فانها لا يمكن أن تلهم الناس · لقد نشرنا بين مواطنينا روحا من التواكل، وانتظار الفرج من الخارج سواء على شكل مال أو معونة أو نجدة ، أى أن الحل لابد أن يأتى من الخارج ، ذلك أننا لم نعلم شعبنا أن الحل لن يكون الا اعتمادا على عقولنا وسواعدنا · فى حين أن العامل الكورى ــ مثلا ــ صار مطلوبا فى العالم ، وفى مهنة البناء على وجه التحديد ، حتى وصل الى مصر ، بلد العمالة الزائدة والبنائين ، لأنه ببساطة تدرب على أن ينجز فى يوم ما ينجزه غيره فى أيام · كذلك فان السلع اليابانية اكتسحت أسواق أعرق الدول الصناعية لأن كفاءة العامل اليابانى عالية جدا ، وساعات العمل لا لهو فيها ولا لعب · أما فى الدول الاشتراكية فان السجن هو عقاب غير المنتج ، بينما لا ينتظر غير المنتج فى الدول الرأسمالية سوى الجوع والتشرد · لكننا لا نجد فى بلادنا أى عقاب محدد لغير المنتج ، ونظرا لأننا عاجزون عن عقاب الكبير فان تهديدنا بعقاب الصغير يصير بلا معنى ، وهو لن يصدق مثل هذا التهديد وبالتالى لن يعمل ·

ولا يعنى هذا العقاب سوى محاربة الفساد فى كل صوره المباشرة والمستترة • والدول الديمقراطية لا تخجل من الفساد ولا تتستر عليه ، فالطبيعة البشرية فى كل مكان وفى كل زمان قابلة للفساد والافساد ، ومن هنا كانت مواجهته ومطاردته والقضاء عليه حيثما يوجد مهمة قومية ضرورية لأى تقدم حضارى • وهذه الحقيقة الدامغة تدحض ادعاءات الذين يقولون ان محاربة الفساد وتقديم المتهمين الى القضاء ، سوف يؤثر على الانفتاح ، ويزعزع الثقة فى الاقتصاد المصرى ، ويدفع رءوس المال الخاصة والأجنبية الى الهرب ، ويمنع تدفق أموال المصريين العاملين فى الخارج • فمثل هذه الادعاءات الكاذبة تسعى الى قلب الموقف رأسا على عقب ، لأن العكس تماما هو الصحيح • فلم يكن مقصودا بالانفتاح على الاطلاق أن يكون ترخيصا بالفساد ، وخاصة أن المال الأجنبى الذى نرحب به ليس المال المغامر المستغل الذى هجم علينا من قبل فى انفتاح الخديوى اسماعيل وانتهى بخراب مصر ثم احتلالها •

بل ان الشكوى من الذين جاءوا بأموالهم مع الانفتاح كانت منصبة على القلة المفسدة أو الجاهلة أو الجامحة التى جعلت المصالح الخاصة فوق الاستثمار المفيد ، وفتحت الباب لمن يدفع الثمن ، وعملت على اصدار اللوائح والغائها بسرعة غير مفهومة ، وأعطت هيئة الاستثمارات سلطة تقديرية واسعة حيث تقول القاعدة الشرعية والقانونية : ادرءوا الحدود بالشبهات • وكانت النتيجة فى حالات كثيرة أن المال الأجنبى الجاد الذى جاء مع الانفتاح ذهب مذعورا أو يائسا ولم يعد ولذلك يؤكد أحمد بهاء الدين :

« ان المال المصرى والعربى والأجنبى يتدفق أكثر وأكثر حين يطمئن وحين يشعر أن العدالة تأخذ مجراها ، وأن المنافسة تجرى فى النور لا فى الظلام ، وأمام الناس لا من الأبواب الخلفية ، وأن القوانين واللوائح والقرارات لا تتخذ عن فردية ولا عن هوى ولا عن ارتجال » •

ثم يضرب أحمد بهاء الدين المثل بالأردن وتونس بصفتهما أكثر بلدين فى العالم العربى تأخذان بنظام الاقتصاد الحر والرأسمالى ، وأقل البلاد العربية فى الموارد الطبيعية (أى غير بلاد البترول) • ولكن السجائر الأجنبية ممنوعة فى الأردن ، لأن فيها صناعة سجاير وطنية متقدمة ، وفى أكبر فنادقها لا تجد سيجارة أجنبية تباع • وفى تونس ، أكثر من ذلك : فى المرافق السياحية ذاتها ــ وفى بلد سياحى ــ لا تجد فى الفنادق الكبرى العالمية ولا فى طائراتها الدولية الا علب الزبد المصنوع فى تونس ، والسكر التونسى المعلب ••• الخ • يعلق أحمد بهاء الدين على هذا الاتجاه الوطنى والقومى الأصيل فيقول :

« لم يؤد هذا الى تطفيش السياح من « هلاتن » و « شراتن » تونس او الاردن ، ولم يقلل الاستثمار العربي والأجنبي ، طالما أنه ملزم تحت رقابة الدولة بنظافة الانتاج ، ونظافة الخدمة ، ونظافة البشر · ولم يقل أحد أن هذه سياسة انغلاق ، ولم يتصور احد أن حماية الرأسمالية الوطنية والصناعة الوطنية جناية على المستهلك المحلي · انها وطنية اقتصادية لا تقل شرفا عن الوطنية السياسية ، بل ان الوطنية السياسية تحتاج الى سند من الوطنية الاقتصادية · ليس بمعنى انتاج كل شيء من الابرة الى الصاروخ، فليس كل بلد قادر على ذلك ، ولكنك بقدر ما لديك من انتاج وطني في المجالات التي تستطيعها ، بقدر ما تقايض عليه بانتاج مستورد تحتاج اليه ، وبقدر ما تكون أقوى على مقاومة الضغط السياسي والاقتصادي اذا حدث · فالثلاجة التي تصنع كلها أو حتى بعضها في مصر ، يذهب ثمنها الذي تدفعه الى جيوب مصريين آخرين ، فيزداد الاقتصاد العام قوة ، وتتسع به دائرة العمل الشريف · ولكن الثلاجة ـ الأفخر طبعا ـ المستوردة ، يذهب ثمنها الذي تدفعه الى الشركة الأجنبية ، والدولة الأجنبية ، والعامل الأجنبي · هل هناك أبسط وأعدل وأعقل من هذا المنطق ؟ » ·

لكننا اذا تحدثنا عن حماية صناعتنا الوطنية اكفهرت وجوه وارتعشت صدور من الغضب ، وتحدثوا عن عيوب الانغلاق ومزايا الانفتاح الاستهلاكي، ورددوا نكتة نقل التكنولوجيا باستيراد كل الكماليات التكنولوجية من الثلاجة الى الكافيار ، والصحف « طافحة » بأخبار الانتاج المصري المكدس من المصانع من ثلاجات الى أدوية ، وهجمات على القطاع العام المسكين لأنه لا يكسب ولا ينافس جنرال الكتريك وجنرال موتورز في أناقة انتاجها · ثم يتحدثون عن ضرورة الرقي الى مستوى أهل الاقتصاد الحر في حين أنهم لا يحترمون قوانينه ساعة الجد · فامريكا تحدد نسبة صادرات اليابان من الأقمشة ، وفرنسا ترفض النبيذ الايطالي الأرخص ، واليابان « المسكينة الناشئة تضع آلاف القيود أمام البضائع الأجنبية التي تنافس البضائع التي تنتجها ·

ولا يعني هذا أن أحمد بهاء الدين ضد وجود المليونيرات في مصر ، لكنه يحتم أن تكون هذه الملايين من الحلال لا من الحرام · وهو ليس مع الذين يريدون قفل باب الانفتاح ، لكنه مع الذين يريدون الانفتاح الذي يفيد البلد ، وييسر على الناس ، ويجلب لنا خبرات اقتصادية وخبرات فنية جديدة ، لا مع الانفتاح الذي يجلب طعام القطط والكلاب وقمامة العالم ويبيعها للناس · كذلك لا يساند بهاء الدين من يخافون تدفق المال رأس المال العربي والأجنبي طالما أن هذا المال جاء ليفيد ويستفيد ، استفادة عادلة ومنصفة للطرفين ·

وأحمد بهاء الدين من القائلين دائما وفى كل مكان ، بأن من حق المال العربى ، كأى مال ، أن يحتاط لنفسه بتنويع استثماراته فى شتى بلاد العالم وفى مختلف المجالات . ولكن يبقى مع ذلك أن أكثر مجالات الاستثمار أمنا بالنسبة له فى المستقبل - وان لم يكن أكبرها ربحا فى الحاضر هو استثمارها فى البلاد العربية ، لا فى أوروبا ولا فى أمريكا . ولكن لا يكفى أن نحدث المال العربى بالنظريات ، ولا أن نعامله بالعواطف ، وخاصة أن ما ينقص الانفتاح ، ولا يزال ، أن نعد نحن الدراسات ، ونجهز المشروعات العامة والخاصة على المستوى المطلوب ، وأن نعرف كيف نقوم بتسويق هذه المشروعات المتسقة مع مصالحنا وأولوياتنا الاقتصادية تجاه مجموع شعبنا وبلدنا .

وللحقيقة والتاريخ يجب أن نقر بأن الاستثمار العربى فى مصر لم ينقطع قط ، ويجب أن نعترف أنه جاءت فترة كانت توضع فيها أمامه العقبات ، وربما من الأجهزة البيروقراطية تحت وطأة شعور خاطىء بأن الانفتاح ستصنع معجزته أموال أوروبا وأمريكا . وقد ظهر أن الاستثمار فى فترة الانفتاح كان أكثر من نصفه من المال المصرى ، وحوالى ثلثه فى المال العربى ، وأن كل « هيصة » أمريكا وأوروبا لا تزيد على ١٠ ٪ فقط . برغم أننا فرشنا لهم البساط الأحمر فى كل طريق . وظهر من بيننا من عادت اليهم « عقدة الخواجة » وأخذوا ينفثون سمومها . ونحن لسنا من الخواجات ولكن على أن لا ننسى حقائق المصالح العالمية التى توجه المال قبل أن توجهه العواطف .

وبهذا التحليل القائم على الفكر الاقتصادى وفلسفته دون التوغل فى علومه المتفرعة منه أثبت أحمد بهاء الدين أن القضايا الاقتصادية القومية ليست مجرد مسالة فنية لها خبراؤها وأخصائيوها بحيث يجب ألا يناقشها من هو خارج هذه الدائرة . ذلك أن معالجة أو اصلاح وضع اقتصادى بالذات قضية الجميع ومسئولية الدولة كلها . وعلى كل صاحب خبرة شخصية وفكر مستنير أن يشارك فى الحوار من أجل الصالح العام فى النهاية . وعندما يتم وضع استراتيجية اقتصادية شاملة باشتراك الخبراء والفنيين والاخصائيين وأصحاب الفكر المستنير ، فان دور العلوم الاقتصادية يأتى ليضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ .

فمثلا هناك خطأ شائع يوضحه بهاء الدين بمنتهى الحسم وهو أن البعض يظن أن مقاومة الفساد تكون بكثرة القوانين واللوائح ، وتعدد جهات الاختصاص ، أى بمزيد من البيروقراطية . والعكس تماما هو الصحيح ، لأن الاثنين - بعكس ما يبدو للوهلة الأولى - متلازمان ، وكل منهما يستدعى

وجود الآخر . فحين تتزايد القيود البيروقراطية ، واللوائح ، وتتعدد جهات البت في الموضوع الواحد ، وتحتاج كل ورقة الى عشرات التوقيعات . وحين تصدر القوانين وتعطي جهة البت « حق التقدير » بشكل واسع فيما يعرض عليها ، يصبح هذا كله من جهة عبئا على العمل ، وعلى الاستيراد والتصدير ، وعلى مشاريع الاستثمار ، ومن جهة أخرى ، يستدعي هذا الوضع ذاته ، الحاجة الى البحث عن « أصحاب النفوذ » سواء لاختصار الاجراءات والاسراع بها ، أو للمساعدة في حكاية « حق التقدير » .. الخ.

هذه الصورة المعقدة من مصلحة الذين يريدون استغلال نفوذهم ، في حين أنه عندما تكون القوانين واللوائح قليلة ، حاسمة ، معروفة ، مستقرة ، وحين تكون مراحل البت والموافقة محدودة ، يتحمل فيها صاحب التوقيع المسئولية بشكل واضح دون ايجاد مجال لتوزيع المسئولية بلا مبرر ، وحين يكون حكم القانون مطبقا ، و « السلطة التقديرية » محدودة بدورها ، تبور سوق كل من لديه رغبة في استغلال نفوذه ، وتبور سوق الوساطات والمحسوبيات ، ويعرف المستثمر طريقه دون حاجة الى مساندة صاحب نفوذ ولا الى غير ذلك من وسائل الفساد والافساد . هنا يوجه بهاء الدين حديثه الى أصحاب النفوذ فيقول :

« البساطة يا سادة البساطة . تنازلوا عن بعض سلطاتكم التقديرية للنصوص الواضحة غير التعسفية . تحملوا مسئولية توقيع كل وظيفة دون حاجة الى حمايتها بعشرة توقيعات أخرى . وسيختصر الاستثمار الزمن اختصارا هائلا » .

من هنا كان تركيز بهاء الدين على النتائج السلبية المترتبة على الممارسات البيروقراطية العقيمة والمغرضة . وهو يستشهد بفقرة طريفة وردت في الجزء الثاني من مذكرات هنري كيسنجر يقول فيها :

« ان البيروقراطية تلجأ دائما الى أسلوب معروف في كل مكان : تقدم للمسئول ثلاثة قرارات يختار من بينها ، منها قراران تنفيذهما مستحيل ، وحل ثالث ممكن . وبالتالي يضطر الحاكم الى الأخذ بالحل الوحيد الممكن المطروح عليه . وهكذا تملي البيروقراطية ارادتها على الحاكم » .

وفي أوروبا يسمون البيروقراطية « الحكومة المستمرة » فرئيس الدولة ورئيس الوزراء والوزراء يتغيرون والبيروقراطية لا تتغير . ومذكرات ريتشارد كروسمان العقل المفكر المجدد لحزب العمال الانجليزي ، يدور معظمها حول توليه الوزارة ، وفشله في تطبيق أفكاره ، لتغلب جهاز الوزارة الدائم عليه .

ويعتقد بهاء الدين أن البيروقراطية فى مصر ليست أقل ذكاء من زميلاتها فى أمريكا وانجلترا ، بل هى أطول تجربة وأعمق قوة · ولا شك أنها تلجأ ـ غريزيا ـ الى مثل هذه الحلول · لكن هذا لا يعنى أن بهاء الدين ضد البيروقراطية التى يظن الناس خطأ أنها « شتيمة » · فكل دولة تحتاج الى عنصرى التغيير والاستمرار معـــا · وفى مصر بالذات لعبت البيروقراطية دورا ايجابيا فى حفظ « الدولة » من التقلبات ، وفى استيعاب الصدمات · ولكن المهم أن تكون البيروقراطية محكومة ، لا حاكمة · وهذا لا يكون الا بأن يتوفر للقادة والحكام وقت كاف للتفكير ، والاستعانة بالعقول المستنيرة ، واتخاذ القرارات الكلية التى تحقق التغيير المطلوب ، لا أن تغرق فى التفاصيل ، وتكتفى بالدراسات والاقتراحات الرسمية المقدمة اليهم · ولا شك أن الغلطة التى ترتكبها قيادات العمل عندنا هى ظنها أن ممارسة السلطة هى التدخل فى كل التفاصيل ، وأن ما تحمله التقارير الرسمية هى خلاصة الحكمة وبالتالى التردد فى اتخاذ القرارات التى تناقض رأى البيروقراطية الراكد بطبيعته فى اطار المألوف لديها ·

بل ان هناك شكليات بيروقراطية عندنا تبدو تافهة فى مظهرها ، لكنها خطيرة فى جوهرها · يذكر منها بهاء الدين على سبيل المثال لا الحصر: برقيات التهنئة التى ترسل الى رئيس الدولة فى كل مناسبة · ومناسباتنا والحمد لله كثيرة لا يخلو أسبوع منها · ويقصد بها برقيات المسئولين : الوزراء ، والمحافظين ، والسفراء ، ورؤساء المؤسسات والشركات ، وكبار الموظفين ، أى جهاز الدولة · ثم ما معنى أن يتلقى مسئول برقية تهنئة من مدير مكتبه مثلا الذى يراه كل يوم ؟! كذلك هناك التعازى والتهانى المنشورة فى الصحف والتى يطل النفاق من بين سـطورها على ابشع صورة · فهى مبالغة لا تتفشى الا فى عزاء من يكون فى منصب رسمى ، أى غير عزاء الأصدقاء والأهل · وغالبا ما تكون هذه التهانى والتعازى اعلانات عن أصحابها على حساب الجهة ماليا أو على حساب المسئول الذى يوجـه اليه العزاء أو التهنئة معنـويا · تنهمر وتنقطع مع وجود نفس الشخص فى مقعد الوزارة أو خارجه ·

كذلك هناك « الوزير » وهناك وظيفة مالية وادارية بدرجة وزير · ولكن الوزير فى كل العالم هو عضو مجلس الوزراء فقط ، الا فى بلادنا ، حيث نقرأ : الوزير المحافظ فلان ·· السفير الوزير فلان ·· الوزير رئيس المؤسسة فلان ····· الى آخره ·

كل هذا ميراث بيروقراطى ثقيل ورهيب : فكلمة « وزير » لها وهج وسطوة · فهى رمز « الميرى » ومنها يمتد نفس الخط الى الكلمة الخالدة « ان فاتك الميرى ·· اتمرغ فى ترابه ! » وهذا غير ما نريد أن نربى الناس

عليه . اننا نريد أن نعلم الناس البون الشاسع بين حب الوطن كقيمة دائمة وعبادة السلطة كعادة عابرة . ان حب الوطن صفة غريزية فى الانسان ، ما عدا القلة من الشواذ . وهو حب قديم ولد منذ بدء الخليقة ، مع حب الزوجة والأبناء . ولكن أسلوب حب الوطن كان يختلف من عصر الى عصر . أو هناك « الثابت » فى حب الوطن ، وهناك « المتغير » .

ان حب الوطن بمعنى ان يكون الوطن حرا مستقلا عزيزا ، يحكمه ويملكه أبناؤه ، هو الجزء الثابت والأبدى فى هذا الحب . أما المتغير ، فقد كان حب الوطن يختلف أحيانا « بعبادة » الدولة ، وعبادة الحاكم الفرد ، بل كان الحاكم فى التاريخ القديم من الآلهة التى تقدم لها القرابين . وعلى سبيل المثال قام هنرى الثامن بتحويل بلده الى البروتستانتية لأن البابا الكاثوليكى لم يسمح له بطلاق زوجته . كذلك كان حب الوطن أحيانا يتخذ صورة عدوانية ، أيام الامبراطوريات . فمن يحب انجلترا يحارب فى الهند ، لتصب خيراتها كلها فى بلاده .

أما الآن فحب الوطن يعبر عنه فى الدرجة الأولى حب المواطنين . ان الذى يحب مصر ، يحب أرضها وسماءها ورايتها ، ويحب المصريين ، اى يحب شعبها . هذا هو الانتماء الحقيقى للوطنية ، للعصرية ، لحب الوطن . أما الذى يتغنى بمصر ، وكأنها شىء مجرد ، ويقول مصر ، مصر ، مصر ، دون أن يكون فى باله المصريون ، تعليمهم ، معيشتهم ، مستوى حياتهم ، درجة رقيهم ، فهو ليس وطنيا بالمعنى المعاصر للكلمة ، ولا بمعيار الوطنية فى عالم اليوم . لذلك لابد لهذا الحب من نظرة اجتماعية واقتصادية وسياسية وحضارية تشمل كل أفراد الشعب . انتهى عهد الوطنية بمعنى أن تموت الشعوب فى حروب من أجل مجد ملك أو زعيم . انتهى عهد الوطنية بمعنى السادة والعبيد ، بمعنى الحكم المطلق والخضوع . ان الوطنية هى العمل من أجل مجموع الشعب . وهى جعل كلمة أهل الوطن مواطنين لا رعايا .

هنا نبرز ضرورة الحوار الديمقراطى الذى يشترك فيه جميع المواطنين على قدم المساواة بهدف تدعيم روح الانتماء الوطنى والقومى . فالمواطن الذى لا يؤخذ رأيه ، أو يؤخذ ولايوضع فى الاعتبار لا يمكن أن يشعر بالانتماء الى بلده لأنه لا يؤثر فى مجريات الأمور التى تتحول بالنسبة له كقدر رهيب لا يمكن مجرد الاقتراب منه . ولا شك أن حرية الصحافة الواعية تأتى على قمة هذا الحوار الديمقراطى . ولذلك يتمنى أحمد بهاء الدين لو أننا تعلمنا ـ جميعا ـ أدب الحوار وعدم الاسفاف والابتذال ، وبطبيعة الحال يأتى كتاب الصحف على راس قائمة

الذين يعنيهم . ذلك أن المطالبين بحرية الصحافة يتصورون أحيانا أنها حريتهم فقط دون الآخرين ، ويفزعهم اعطاء حرية الكتابة للجميع . يقول بهاء الدين :

« حين يكتب المرء يجب أن يتوقع التأييد والمعارضة ، ولكن متى نتعلم جميعا الجدل بغير لغة الطوب والحجارة ، خصوصا ممن بيوتهم من زجاج ، ولدينا والحمد لله كميات هائلة من الطوب والحجارة ، للرد عند اللزوم ولكنني أؤمن بحكمة أن يبدأ الانسان بنفسه ، وبالتالي أن لا ينزل عند أول هجوم بقاذفات القاذورات للرد بالمثل .

« ثم انني أؤمن بما قاله الرئيس حسني مبارك من الدعوة الى فتح صفحة جديدة ، وفتح صفحة جديدة ليس معناه ترك المرتكبين بلا عقاب ولا مداراة الفساد . ولكن أن نتحلى بأخلاقيات جديدة . ومنها أخلاقيات الحوار . فالرئيس الجديد والفرصة الجديدة أولى أن ننتهزها بالجدل البناء ، الذي يحمي ولا يهدد ، يصون ولا يبدد ، والذي لا يهدم بل يجدد، ولا يخصم من الماضي بل يضيف . والانصراف الى هذه المهمة الشريفة أولى من الانشغال بالمذعورين من الحوار الحر ، بمعنى الحرية التي تظلل كل المتحاورين . وليس البعض دون البعض » .

ويؤمن أحمد بهاء الدين أيضا أن قواميس الاسفاف والبذاءة لايمكن أن تجذب القراء بعد أن تعلموا احتقارها لطول ما حاولت أن تحتقر عقولهم ذلك أن لغة الكتابة غير لغة الحواري . والكاتب الذي يحترم عقلية قارئه وشعوره لابد أن يكسبه لأنه سيبادله احتراما باحترام . أما الانتقام أو الاسفاف أو البذاءة أو تشويه صورة الآخرين فليس من شأن القارىء الواعي ، ولذلك فان السباب غالبا ما يرتد الى صدر صاحبه . وبالتالي لم يكن أحمد بهاء الدين من حزب الانتقاميين والأخذ بالثار لا من ماض قريب ولا بعيد ، فهو يضيف ولا يخصم . لأن من صفحتهم بيضاء وآراءهم ثابتة لا يخافون تقلب الزمن ، ولا يلهثون وراء المغانم مع تقلب كل زمن .

واذا كان هناك من يريدون نبش ماض قريب أو ماض بعيد أو ماض أبعد ، فان بهاء الدين لا يجاريهم في مطلبهم ، لكنه يعترض على حرية نبش ماض دون ماض ، وأن يكون هذا مباحا وذاك غير مباح . لكن سنة الطبيعة وحتمية التجديد والتطور تحتمان العودة الى التاريخ لتحليله موضوعيا وعلميا واستخراج الدروس والعبر المستفادة منه حتى لا نكرر أخطاءنا ، هذا في الوقت الذي يتحتم علينا فيه أن نهتم بالمستقبل ونركز عليه كسياسيين ووطنيين يهتدون بالدراسات التحليلية التي قام

بهـا المؤرخون • فليست هناك ثمـة ثغرات أو فواصل بين ماضى الأمة وحاضرها ومستقبلها ، فهى سلسلة متصلة تؤدى فيها الأسباب الى نتائج من جنسها ونوعها •

ويتصدى بهاء الدين للذين يطالبون بالحرية حتى آخر مداها ، بما فيها حرية الارهاب الفكرى والارهاب المسلح • فالحرية حق ومسئولية فى الوقت نفسه ، وعلينا حمايتها من طغيان السلطة برفض النفاق ، وحمايتها من الارهاب الفكرى بكشفه على حقيقته البشعة ، وحمايتها من الارهاب المسلح باقناعه أن يلقى سلاحه ومنحه بدل السلاح قلما ليشارك به فى الحرية وفى الرخاء • فالحرية شرط ضرورى لنجاح أية دعوة فكرية • لكنها لا تعنى المساواة العمياء التى لا تفرق بين الخامل والمجتهد • ان للاجتهاد فى العمل جزاء غير جزاء الكسل والاهمال ، أما المساواة فهى المساواة أمام القانون ، والتكافؤ فى الفرص • ولذلك فمجتمع العـدل لا ينهض على المساواة العمياء ، لكنه يهتم أيضا باعطاء الفرصة للضعيف، ورفع المعاناة عن الكادح ، وتأمين حياة ضحايا القرون الطويلة من الظروف الظالمة ، والا انتفت عنه صفة المجتمع أساسا •

ودور الصحافة فى هذا المجال دور رائد ، ولذلك يجب على صحافتنا أن تتحلى بأخلاقيات مهنية جديدة اذا أرادت أن يصدق الناس انها تساهم بجدية فى الاصلاح القومى الشامل • عندئذ ستقف منها السلطة موقف الاحترام والتقدير ، وستستمع بأذن صاغية الى كتابات الصحفيين عن وقائع الانحراف أو الفساد بل وستسألهم فيما نشروه من اتهامات تمهيدا للتحقيق فيها • فالبـلاغ الموجه الى النائب العام أو الى أى جهة تحقيق قضائية أو ادارية ليس بالضرورة بلاغ مكتوب على ورقة دمغة أو مسجل بعلم الوصول • ذلك أن الاتهام المنشور فى الصحف فى صورة مقال أو تحقيق أو خبر ، هو بلاغ الى جهة التحقيق المختصة التى يفترض فى هذا العصر أنها تقرأ وتتصدى لمعالجة ما يدخل فى اختصاصاتها •

وهذا الأسلوب الديمقراطى فى كشف الانحرافات ومكامن الفساد له ميزتان : الميزة الأولى أن الصحافة حين تشعر أن اتهاماتها وما تنشره يؤخذ مأخذ الجد والتحقيق ، ستكون أكثر حرصا ودقة فيما تنشر بحيث لا تتسرع فى الاتهام دون دليل يثبت حسن النية ، وسيدرك القراء حينئذ أن النشر ليس لمجرد التشهير أو الاثارة أو السبق •

والميزة الثانية ان الرأى العام الذى يطالع الصحف ، سيشعر أن الدولة ــ بمعنى كل جهاز من أجهزة الدولة فى نطاقه ــ تعمل جديا على

محاربة الانحراف وتقويم العيوب وتبرئة ساحة المتهم البرىء دون أن تنتظر توجيها رسميا من رئيس الدولة .

وكما يقال فى المبدأ القانونى الشهير ، أنه لا يعذر المرء بجهله للقانون ، أى أنه يفترض أن أى مواطن يعرف القانون ، فانه من حق المواطنين أن يفترضوا أن الأجهزة الرسمية تقرأ الصحف . ولكن من غير المقبول لدى الرأى العام أن تنشر الاتهامات على صفحات الجرائد ولا تجد الدولة نفسها ملزمة بالرد أو بالتصرف وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد ، على أساس أن ما ينشر هو مجرد « كلام جرايد » . ان هذا السلوك اللا مبالى تجاه ما ينشر من شأنه أن يمس السمعة الحسنة للسلطة، وأن يبدد ثقة المواطنين فى جديتها وفعاليتها .

والمسألة ليست مناظرة بين السلطة والصحافة أو بين أية أطراف معنية أخرى . ذلك أن الصحافة فى الدولة الديمقراطية تدرك تماما البون الشاسع بين المناظرة والحوار . فالمناظرة تفترض أن كل صاحب رأى مهمته وشطارته أن يتشبث برأيه ، والا يعدل فيه ، على افتراض أن الحقيقة كلها معه . ولذلك فان الرأى والرأى الآخر يظلان كما هما دون التقاء أو تفاهم ، اى أنه لا يوجد رأى ثالث جديد ينتج عن الفهم والادراك والاستيعاب دون انحيازات مسبقة . أما الحوار فيختلف تماما عن المناظرة فى جوهره الذى يحدده بهاء الدين بقوله :

« انه أن أقول رأيى وتقول رأيك . وأن نتناقش كما نشاء . وبديهى أن افتراض أن يكون رأيى صحيحا وأن يكون عندك نفس الافتراض بالنسبة لرأيك والا فلا داعى للمناقشة أصلا ولكن الحوار معناه أن ندخل فى النقاش ، وكل واحد منا مستعد أن يقبل أنه لا يحتكر الصواب ، والحوار يفترض بالتالى ــ اذا بقينا مختلفين ــ أن يزداد فهم كل منا للآخر على الأقل ، ويفترض ــ كهدف أعلى ــ الوصول الى رأى ثالث فيه خير ما فى الرأيين ، أو مزيج مما فى كل من الرأيين من صواب » .

ويعترف بهاء الدين بأن المناظرة لها أوقاتها حين يكون الفاصل بين الآراء حارا ونهائيا ، ولكن المشكلة أننا لا نعرف الا المناظرة حتى حين نكون فى مرحلة حساسة وحاسمة ، وتكون هناك أرضية مشتركة علينا أن نقف عليها جميعا ــ بقدر الامكان ــ لاجتياز هذه المرحلة . هنا لا تكون المناظرة الا مكابرة ، والمكابرة تضيع المعنى الحقيقى والديمقراطى للحوار ، بل انها تزيد من اتساع الفجوة بين المتناظرين وقد تؤدى الى ترسيخ جذور الكراهية والعداء فيما بينهم . كذلك فان المكابرة ــ وخاصة اذا جاءت من المسئولين الذين بيدهم مقاليد الأمور ــ من شأنها أن تخفى الأخطاء

والعيوب والثغرات التى تتفاقم وتتزايد مع الزمن لعدم وجود من يتصدى لعلاجها بحسم وصراحة ووضوح ، مما قد يجعلها فى النهاية فى حاجة الى قرار سياسى من رئيس الدولة نفسه · ولا يعقل أن يتفرغ رئيس الدولة لكل كبيرة وصغيرة ، فليس هذا مطلوبا ولا فى استطاعته · ولذلك فان الحوار الديمقراطى المفتوح الحر كفيل بتجنب مثل هذه المشكلات والعقبات والسلبيات ·

ولا توجد حياة بلا مشكلات · بل انه من المعروف فى علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد أن حل مشكلة يوجد مشكلة أخرى · وهذا هو تاريخ الانسان بشرط أن تكون المشكلات هى مشكلات التقدم ، لا مشكلات الجمود أو الرجوع الى الوراء · ولذلك فان مشكلات الدول الناهضة هى مشكلات المستقبل ، أما الدول المتخلفة فتظل تتجادل حول مشكلات الماضى ، مهما توغل هذا الماضى فى القدم وانقطعت صلته تماما بالحاضر · كذلك فان عادة نفاق كل حاكم أو زعيم بمحو آثار من سبقه عادة ذميمة · لكن هذا يختلف تماما عن التصحيح والتطهير والنقد والتحليل · فحتى اليوم تصدر كتب تتجادل حول يوليوس قيصر وبروتس ومن كان منهما على حق ، لكن روما والتاريخ يضعان كلا منهما فى مكانه فى متحف الخالدين · أما اتهام كل عهد سابق بأنه كان أكذوبة كبيرة ووهم خادع فمن شأنه اثارة البلبلة والتشكيك فى جدوى الحياة نفسها ··

لكن هذا لا يمنع كشف السلبيات وتحليلها ، سواء تلك التى وقعت فى الماضى ، أو الموجودة فى الحاضر ، أو التى يحتمل حدوثها فى المستقبل · ومن هنا كان اتهام الصحافة بالتركيز على السلبيات اتهاما متجنيا غير موضوعى · ويستشهد أحمد بهاء الدين بالرئيس الأمريكى رونالد ريجان عندما جاء الى الحكم · فقد كان معبود الصحافة والاعلام ، لكن سرعان ما انتهى شهر العسل وبدأت الانتقادات كالعادة تتحول عن الماضى الى الحاضر · عندئذ قال ريجان ان الصحافة والاذاعة والتليفزيون متحيزة ضده · ويقول الصحفيون الأمريكيون انهم تعودوا هذا الاتهام ، كما قال أستاذ فى العلوم السياسية فى لقاء تليفزيونى :

« ان الحكاية المعروفة عن الكاس الملآى الى النصف هى جوهر الموضوع ، وهى بالتالى مشكلة أبدية لا حل لها بين السلطة وأى صحافة حرة : السلطة ترى أن نصف الكاس ملآى · وهذا صحيح ، وبالتالى تحب أن تركز الصحافة على ذلك · لكن الصحافة ترى ان نصف الكاس فارغ · وهذا صحيح أيضا ، وبالتالى فهى ترى أن مهمتها أن تتحدث وتلفت النظر الى النصف الفارغ من الكاس » ·

ويؤمن أحمد بهاء الدين أن أي حاكم منصف وأي كاتب منصف ، يعرف هذه الحقيقة عند التأمل الهادىء · فلا توجد سلطة بلا أخطاء ، ومن ثم لا توجد الكأس الملأى تماما ، انما المسألة ، بين أي سلطة وأي صحافة في بلد فيه درجة من حرية الرأي ، هي أين تكون نقطة التوازن التي تحقق المصلحة العليا للبلاد · فالصحافة عليها أن تذكر ما يستحق التأييد والتقدير ، دون أن تركز فقط على النصف الفارغ من الكأس ، والسلطة عليها أن تقبل النقد ، طالما كان يتحدث عن قضية ، ومن منطلق وجهة نظر حتى لو كانت مخالفة لها · فلا النقد للنقد شطارة ، ولا صحافة التطبيل والتزمير تقدم للسلطة أي خدمة · ولذلك يؤمن أحمد بهاء الدين بقول الفيلسوف والأديب اللاتيني سينيكا بأن الذهب يمتحن بالنار ، والحاكم بالمعارضة ، وقول جيمس كاميرون بأن محنة الصحافة تبدو حين يتعلم القارىء من الاعلانات أكثر مما يتعلم من الافتتاحيات ، وقول بنجامين فرانكلين بأن انعدام العدالة يضعف الشجاع ويقوي الجبان ، وقول فرانكلين آدمز بأن هدف الدولة اسعاد الناس وعمادها قبولهم ، وأخيرا قول لورد تشسترتون بأن القسوة هي أكبر خطيئة ، والقسوة الفكرية أسوأ أنواع القسوة ·

- د. نعمات فؤاد

ينهض مفهوم الثقافة والحضارة عند الدكتورة نعمات أحمد فؤاد على التعدد في الأصول والوحدانية في الهدف · فالتعدد لا يعني التشتت والتناقض وانما يعني الخصوبة والثراء · ولذلك فهي لا تجد أي تعارض بين الثقافة المصرية والثقافة العربية ، بل انها ترى أن الثقافة الانسانية بمفهومها الشامل الواسع العميق لا تحمل أي تعارض بين ملامحها العامة المشكلة لبنيانها · ذلك أن الثقافة ترتبط ارتباطا عضويا بالحرية الانسانية حيثما وأينما كانت · واذا كان المثقف المصرى الأصيل مرتبطا بقضايا عصره على المستوى الانسانى العام ، فلابد أن يكون مرتبطا برباط أوثق بقضايا وطنه العربى · أما افتعال التعارض أو التصادم بين الوطنية المصرية والقومية العربية فمن شأنه دق اسفين الصراعات فى جسد أمتنا العربية الذى أنهكته الجراح ولم يعد فيه موضع لطعنات جديدة ·

وتضع الدكتورة نعمات يدها على مواطن الضعف فى شخصيتنا القومية فتقول اننا فشلنا حتى الآن فى أن نخلق من أنفسنا مجتمعا ناضجا متحضرا يرعى الحق والجمال والخير ، مجتمعا كل شىء فيه محسوب فلا نغرق فى المدح اذا رضينا أو رهبنا ولا نسرف فى الذم اذا عادينا أو غضبنا ، مجتمعا لا يداجى ولا يصانع بل يؤمن فيه كل فرد حاكما او محكوما بأهمية كل فرد ، وحرية الرأى ، والعمل والتسامح ، واتخاذ سبيل الاقناع والحكمة بدلا من القوة والارهاب · وهى الصفات التى يعدها فيلسوف الحضارة المعاصر ألفريد نورث وايتهيد من مستلزمات الانسان المتحضر المثقف ·

وترى نعمات فؤاد فى « الوطنية » مبدأ رئيسيا من مبادىء الحضارة الانسانية · وهى كلمة جامعة تتضاءل عندنا على كثير من الشفاه حتى تغدو هتافا أجوف بلا مضمون · فالهتاف وطنية البسطاء ، وقد شبع وطننا منه حتى أصبح من المظاهر المحجوجة المرتبطة بالتخلف الفكرى والثقافى والحضارى · ولذلك فان الصادقين الذين يحبون وطنهم فعلا ، يعملون فى صمت ويحيلون حبهم الى انجازات · ان حب الوطن هو المدخل الطبيعى والحقيقى والأساسى لأية انطلاقة حضارية · والانتساب الى الوطن لا يكتسب بالولادة ولكن بالعمل ، بالسلوك ، بالوعى ، بادراك القيمة · أما الغوغائية التى ترفع شعارات القومية البراقة ، ولافتات الوطنية المبهرة ، وصرخات الجهاد المتشنجة ، فهى تنتهى بانتهاء المناسبة أو بانفضاض الحشد · ولعل الأثر الوحيد الذى تتركه فى النفوس الواعية المثقفة المتحضرة ، يتمثل فى فقدان الثقة فى القيام بأى عمل ايجابى مثمر فى حين تتحرك الشعوب الأخرى على ايقاع عصر الفضاء ·

ان الوطنية هى أن نعرف عيوبنا ، فمعرفة النقص خطوة كبيرة نحو الكمال ولكن بلا مبالغة · كذلك يجب أن نعيش العصر ونفهم ما جاء به من نظريات فى العلم والفن ولكن دون انبهار يفقدنا أنفسنا · ان الكثير مما يستهوينا قد يكون فى تراثنا ما يعادله أو ما يفوقه لو أننا نعرف ما عندنا ، وخاصة أن الاحساس بالأصالة لا يتعارض مع قدرتنا على المعاصرة · والصعلوك ــ فى نظر نعمات فؤاد ــ ليس فقط المشرد الضائع وانما الصعلوك هو المبتور من جذوره الثقافية · ان من يتعرى من الغطاء الاجتماعى المنسوج من قيم أمته وثقافتها وفكرها وحكمتها وتجاربها ، انسان هش يتيم معنويا وان حسب نفسه متحررا جدا ·

وفى هذا لا تطالب نعمات فؤاد بالمثالية ولكن بالمثال ، فلابد أن ننمو من الجذور ثم نتفرع كما نشاء · والتربية الحقيقية تتمثل فى غرس التاريخ فى النشء حتى يملك الوعى والفكر والأمل والحلم ، وحتى ينقل عن حضارة عصره ما يلائم طبيعته ويطور حضارته دون أن يفسد جوهره ، وخاصة أن أزمة الانسان المعاصر تكمن فى وجدانه الذى لا يضاهى تقدمه التكنولوجى · فقد ملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال · انه انسان سباق مدنيا ، يستضىء بالكهرباء ، ويركب الطائرة ، ويسافر الى القمر ، ومع ذلك فهو معدم لا يعرف كيف يعيش ، وكيف يحب ، وكيف يكره · فقد جعلته دوامة حياته اللاهثة عاجزا عن اجادة فن الحياة ، اللهم الا اذا كان عبقريا · انه انسان محروم من الرعاية المعنوية ، ثقافته متجولة كبضاعة الباعة المتجولين ، فهى ثقافة جرائد وافلام مسطحة ·

وتأسف نعمات فؤاد لأن مفهوم الثقافة الأصيلة الناضجة لم يتأصل

بعد في أرضنا · وتدلل على كلامها بما يجرى لوزارة الثقافة فى مصر من تغييرات لا تحمل أى مغزى فكرى حقيقى · فمثلا يتغير اسمها بين حين وآخر ، فهى تارة وزارة الارشاد وطورا وزارة الاعلام وحينا وزارة الثقافة ، وأخيرا وزارة دولة للثقافة بالاضافة الى المجلس الأعلى للثقافة · كل هذه التغييرات لأننا نحتفل بالأسماء لا بالمضمون · لقد صنع الانسان اللغة كوسيلة يتعامل بها ويطور بها فكره وحياته ، لا أن تتحول الى غاية يقنع بها ويركن اليها · فلو كان لوزارة الثقافة هدف محدد لما غيرت اسمها مرات · فالثقافة هى مزيج عجيب من الحضارة والعقيدة والحرية ، ولو عرفت وزارة الثقافة هذا المضمون لاتخذت منه شعارا وجعلته محورا لها وهدفا ·

والثقافة بلا حرية شكل بلا مضمون · فالحرية انتفاء للآلية ونفى للاضطرار وقبول بالاختيار · فالانسان اذا فكر وفعل فلابد أن يختار · والاختيار يبدأ منه ليصل الى الآخرين · فالحرية نمو على مستوى الفرد والمجموع · ثم تأتى الثقافة لتنجى النفس من الخوف والعقد بحيث يكون لديها من الادراكات والمنجزات والطرح ما يمكن أن يتاح للنفس البشرية الراقية · ومن الحرية بل من الوطنية أن نحب الحرية لغيرنا ، ولذلك تعتبر وطنية المستعمرين أنانية قومية ، لهم الغنى والديمقراطية والحرية وللشعوب المغلوبة الفقر والاستعباد والذل · ولا يستحون بعد هذا أن يتشدقوا بحقوق الفرد وحرية الرأى واحترام انسانية الانسان ، ويدعوا أنهم حملة لواء الثقافة والفكر والوعى الانسانى ـ لكنهم فى واقع الأمر يعنون الانسان الأبيض بالطبع ـ أما احترام انسانية الشعوب فموضوع آخر ·

وتؤكد نعمات فؤاد أن الثقافة المصرية دعم وسند للثقافة العربية بصفة أشمل ، ولا توجد شبهة تعارض بينهما · تقول :

« وما دمنا نحب الحرية للآخرين ونحترم أوطانهم فلا يستكثر علينا أحد ولا ينكر علينا أحد أن نعلن راية (المصرية) دون أن يتعارض هذا مع القومية العربية · فالعرب فى سائر بلادهم ينتمون أولا الى الوطن الأم ثم ينتسبون الى العروبة بحكم الدين واللغة ومسار التاريخ فى الأربعة عشر قرنا الأخيرة ·

« ونحن فى مصر لا نطلب أكثر من هذا لا سيما وأننا نحمل اسما عرفته الدنيا قبل الديانات واللغات والقوميات · فنحن مصريون أولا ونحن مسيحيون ونحن مسلمون ونحن عربيو اللسان والهدف والمصير ·

« ان الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه الكبير عن (القومية العربية)

يسميها « رابطة » ونحن لا ننكر هذه الرابطة ، ولا نستطيع ، وليس في مصلحتنا ان استطعنا ، ولكن « الرابطة » مهما عزت ، لا تبلغ الأصل المرتبط والمربوط بل ان وجودها رهن بوجوده · انها لمأساة أن تحتاج الحقائق الثابتة الى اثبات » ·

فالوطنية وعى بالماضى ومحافظة عليه باتخاذه منطلقا نحو التجديد · ومن هنا تدعو نعمات فؤاد الى اعادة قراءة التاريخ حفاظا على الأصل ، واتخاذه منطلقا للتجديد والخلق حتى تكون لنا شخصية قومية متميزة نتمسك بها · فالانسان يولد فى العصر الحجرى ، لكن عناصر التربية والتوعية والثقافة هى التى تصل به الى العصر الحديث · والثقافة هى ادراك القيمة الفعلية والمعنوية للموجودات وليست ارتداء الموضة ، لأن من يرتدى الموضة فحسب لا يزيد على شماعة خشبية لأزياء أجنبية ومؤقتة ، لكن الثقافة رحلة في أعماق النفس لابد أن تتحللها معاناة حقيقية ، معاناة تؤدى الى تبلور الشخصية بصفتها قمة الوجود الانساني وتكامل الكيان البشرى نحو قيمة جديدة ، وهى بالنسبة للأمم خلق حضارى كالذى فعلته مصر والهند والصين فى العالم القديم ، وهى بهـــذا ولادة ثانية سواء للأفراد أو للأمم ·

ولا ينال من شخص مصر أو شخصيتها أخذها بمنطق الأحداث · لقد تكلمت مصر العربية لأن الاسلام كان ينطلق فى المنطقة من « كلية » معينة · كان (وحدة) تريد أن تأخذ دورها فى المنطقة وفى التـاريخ · ومصر قلب هذه المنطقة بلا ادعاء أو تواضع ، قلب المنطقة في العصور القديمة ، وفى المسيحية ، وما كان للقلب أن يغير مكانه فى الاسـلام · لقد أخذت مصر دورا منذ عهد عثمان · ومن لا يغيب عن المسرح لابد أن يتكلم لغة الرواية التى تدور على خشبته · لقد تمسكت فارس بلغتهـا بعد الاسلام وما ذلك الا لأنها بموقعها بعيدة عن الأحداث وعن العيون الا أن تكون مصدر فتنة أو مؤامرة ·

واهتمام نعمات فؤاد بتنمية شخصيتنا القومية سواء على المستوى المصرى أو العربى لا يعنى الانغلاق على تراثنا وســـد منافذ التجـــديد والانطلاق ، فهى تطالب بالاتجاه الى الغرب باعتباره السابق ونحن نريد اللحاق به · ومن الطبيعى الأخذ بأحسن ما عند الآخرين · ولكن يجب أن نقف وقفة خاصة عند هذا الموضوع · فالشـــباب يرى أوروبا بعين الوهم والانبهار ، لا بعين الفهم والاستيعاب ، حتى اذا أتيح لهم أن يذهبوا اليها ، وأن يعيشوا فيها ، انســـلخ البعض عن قومه ، ومزق الصراع البعض الآخر · ذلك أن المجتمع العربى لا يزال يعـــانى من رواســـب الاستعمار التى تأتى (عقدة الخواجة) على قمتها ، والتى يقابلها عند

رجال الدين المحافظة الشديدة التى تصل عند البعض الى حد التزمت . في هذا تقول نعمات فؤاد :

« في صراع الدعوات والشعارات والآراء يعلو صوت الواقعية المادية والعلمية . ولست أرى من وراء هذا الحديث التهوين من قيمة الصناعة أو العلم الذى غزا الفضاء وترك بصمته على القمر . أبدا ولكننى أريد وسط هذه التيارات الزاخرة ، أن نتفاعل مع الحياة والحضارة الحديثة في تماسك يحفظ علينا شخصيتنا المصرية العربية الشرقية حتى لا يجرفها التيار فتضيع ، ونكون كذلك الغراب الذى تحكى القصة على سبيل الرمز أو الحقيقة ، أنه استهواه مشية العصفور وقفزاته الرشيقة ، فاراد أن يقلده بدون تفكير ، فانتهى أمره الى مشية مضحكة ذهبت مثلا . كما أن المحافظة التى أعنيها لا تتعارض مع رغبتنا المخلصة ، في أن ننمى شخصيتنا ، وأن نطورها ، وأن ننفض عنها غبار القرون والأحداث » .

وترى الدكتورة نعمات أن الحضارة العالمية المعاصرة كانت ثمرة التقاء الشرق بالغرب ، وهى الحضارة التى يعزوها وايتهيد الى : اليونان وفلسطين ومصر . من اليونان الفلسفة ، ومن فلسطين المسيحية ، ومن مصر العلم والصناعة . وقبل أوروبا تجمع هذا كله في مدرسة الاسكندرية التى انتقل اليها مركز الثقافة من أثينا ، فمزجته بتراث مصر الدينى والعلمى والصناعى حتى غدت « الهلينية » أى فلسفات اليونان ، « هلنستية » ، بعد أن احتوتها الاسكندرية ، وأضافت اليها ، لتؤثر بعد هذا في الفلسفة الاسلامية ثم في الحضارة الأوروبية .

وكان تأثير مصر الثقافى على العرب على أشده منذ مطلع النهضة العربية ، وان كان العرب قد استفادوا أيضا من ايران والهند واليونان . وتستشهد نعمات فؤاد بسيجريد هونكه حين تقول في كتابها « شمس الله تشرق على الغرب » .

« ان التعصب الدينى وعدم التسامح كانا دائما من أعدى أعداء الشعوب . فالعزلة عدو الحياة والنمو والتطور . ثم ان تبادل الثقافة بين الشرق والغرب الى جانب الاحترام المتبادل الى التعاون والتصافى أدى جميع هذا الى تفتق العبقريات . واذا تغاضينا عن بعض حالات التشاحن والبغضاء التى وقعت بين العرب والأوروبيين أحيانا ، فان تعاون الشرق والغرب سيكون خيرا وبركة للعالم أجمع » .

ولا تميل نعمات فؤاد الى تقسيم الأمم الذى ذهب اليه من الغرب ليون جوتييه في كتابه « تمهيد لدراسة الفلسفة الاسلامية » ودنكان ماكدونالد في كتابه « تطور الفقه ونظرية الحكم عند المسلمين » ، ومن

الشرق الشهرستاني فالطبيعة البشرية واحدة فى عمومها على الأقل . واذا كان الشرق بحكم حضاراته القديمة ، يتعامل مع القدم والقيم بطبعه وطبيعته ، فان الغرب بعقليته التي تحوى التحليل والتعليل يتعامل مع المحسوسات ليصل عن طريق المقدمات الى النتائج . لكن لا تعنى المحافظة التي نحرص عليها أن الغرب شر كله ، فنحن أصدقاء الانسان فى كل مكان ، الانسان المعطاء الذى يعلن الخير والحق والجمال .

ومن الطبيعى أن تنظر نعمات فؤاد الى الدين كقاعدة راسخة نهضت عليها الثقافة المصرية والعربية . ومن الطبيعى أيضا أن تكون نظرتها متحررة منطلقة ترى فى الدين جوهرا لا شكلا ، روحا لا مظهرا . تقول :

« ان الدين حسن الخلق وان الأعمال بالنيات وان أنفع الناس أنفعهم للناس ، وان العمل عبادة ، وان التفكير فريضة اسلامية لأنها فريضة انسانية ، وان الانسان أكرم المخلوقات وان احترام العقل الانسانى واجب دينى . فهل ندرك هذه المفاهيم ونقدرها حق قدرها ؟ هل نطبقها فى حياتنا على المستوى الفردى والمستوى العام ؟ .

« اننا نبسمل كثيرا ونحوقل ونشيع العبارات الدينية فى حديثنا حتى ليخيل الى من يرانا أن أطرافنا تقطر تقوى ولكننا فى بلاد القبلتين والمسجدين والأنبياء والرسالات نجد أن الأعم الأكثر من المستشفيات والملاجىء والمدارس من عمل الحكومات لا الأفراد الخيرين . ان أعظم عمل يقوم به الفرد الغنى منا فى نظر نفسه اذا هزته أريحية أن يبنى مسجدا والمساجد كثيرة والاسلام لم يحصر العبادة بين جدران أربعة .

« ولو فتشت فى التاريخ لوجدت أن عصر بناء المساجد الكثيرة هو أشد عصور التاريخ الاسلامى ظلما وعسفا واستبدادا . فأكثر مخلفات المماليك فى مصر كانت المساجد ، والمماليك هم من هم ، كما نعرف ، فى الجور والنهب ، والسلب ، واستباحة الأنفس والأموال . فبناؤهم المساجد ما هو الا تغطية أو تكفير عن الذنب » .

وتوضح نعمات فؤاد أن العقل العربى المعاصر يفتقر الى الموضوعية ، ولذلك يجب ألا نعمم الآراء بغير استثناء وألا نطلقها اطلاقا مسطحا يحجب الأعماق ويحجب معها حقائق كثيرة ، وذلك حتى نستطيع الاحتفاظ بالنظرة الموضوعية وتوازن الشخصية الفكرية . فقد تعودنا أن نستريح الى الأفكار الجاهزة المسبقة دون أن نعمل فيها فكرنا فى ضوء متغيرات عصرنا . وهذا السلوك لابد أن يقع تحت بند أمية العقل ، لكن المأساة تبدو أفدح لأن هناك أمية أخرى لا تقل عنها خطرا وهى أمية الشعور

التى نغفل عنها دائما فى عصرنا المحموم ، على الرغم من أن تاريخنا القريب والبعيد يزخر بروح المحبة والتعاطف والمشاركة الوجدانية مع الآخرين • ان أوراقنا بالأمس القريب والبعيد تعمر بلفتات انسانية مضيئة ، فهناك وقف على الخدم الذين يكسرون بدون عمد آنية مخدومهم ، وهناك وقف على الحيوان لأنه أعجم لا يبين ، وكثير غير هذا مما ينم على رهافة الشعور وشفافية النفس •

تقول نعمات فؤاد هذا حتى لا نستنيم الى القول بأن الشرق روح والغرب مادة • ففى ذلك الغرب أمثال اللورد نافيلد الذى أنفق الملايين حقيقة لا مجازا على اقامة المستشفيات والملاجىء ووجوه البر الايجابية ، والعالم الفرنسى جان روستان الذى أثبت فى أبحاثه وجود عالم الروح واعلن عن وجود قوة خفية تسير الكون ، والمتصوف سويدنبرج الذى لا يفترق فى كثير عن الحلاج ورابعة العدوية ، والشاعر الانجليزى وليم بليك الذى جعل من شعره الروحى غذاء للنفوس الحائرة المنهكة ، مما يذكرنا بزهد أبى العتاهية • كذلك هناك فى الغرب المادى أسس كبيرة وكثيرة تحافظ على أداء الفرائض الدينية محافظة دقيقة ، وأسر تنذر أحد أبنائها لله فتجد قسسا ورهبانا ينحدرون من آباء ذوى مراكز مدنية مرموقة • كذلك هناك القيم الروحية والأخلاقية الحضارية التى تحكم معاملات الناس وسلوكياتهم فى بلاد الحضارة الغربية •

لكننا ننسى هذا كله او نتناساه ولا نذكر للمجتمع الغربى الا الخلاعة المحصورة هناك فى مناطق معينة ، ونحاول أن نلصق به الانحلال والدعارة والفسق وكل مظاهر التلوث الاجتماعى والأخلاقى لمجرد وجود هذه الملامح العابرة والسطحية التى لا تمس جوهر المجتمع فى صميمه • مما جعل نعمات فؤاد تتساءل :

« اليست النظافة فى ديننا مقرونة بالايمان بل هى منه حتى ليخيل الى من يقرأ النصوص والتعاليم أن الدين سداه ولحمته النظافة والحياء • فهل نحن حريصون على مظاهر النظافة حتى فى انفسنا ؟ هل من الحياء فضولنا غير النافع الذى يدس أنفه فى ثقب كل باب وينفق من وقته فى جمع الأخبار الصغيرة ما لو أنفقه فى تحصيل علم أو جنى معرفة لأثرى شخصياتنا فتغير الكثير من اساليبها فى الحياة وتعدل تبعا لهذا التغيير الكثير من مفاهيم مجتمعاتنا واختفى الكثير من أمراضنا الاجتماعية وتقدمنا خطوات نحو حياة أفضل ؟ •

« ان تقديس العمل واجب ، كما ان تقدير العاملين واجب أيضا • فهل نحن وذوو المرتبات منا خاصة يلتزمون الأمانة الواجبة فى تأدية

أعمالهم ؟ وهل عندنا نظام الحوافز الذى يكافيء الجهود المخلصة ويستحث الجهود التى على الطريق ؟ ·

« ان الذين رأوا منا الغرب على الطبيعة وتعمقوا الأشياء والدلالات عرفوا كيف يميزون الحدود الفاصلة بين الخير فيه والشر · وعرفوا كيف يأخذون أحسن ما عنده ويضيفونه الى أحسن ما عند الشرق لينصلح أمره ويبصر طريقه فى غير تثبيط أو تضليل من دعاوى استعلاء أو غرور ·

« ومن هنا قامت نهضة الشرق على أكتاف رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ثم على أكتاف تلاميذهم من بعدهم · بل ان الشيخ محمد عبده كان يقول بعد أن عايش الغرب حين كان يحرر (العروة الوثقى) فى باريس : ان أهل أوربا هم مسلمو هذا العصر ·· أما نحن فكفرته » ·

لكن نعمات فؤاد تلتمس العذر لمن ينظرون الى الغرب بمنظار أسود لأن الاستعمار ـ الذى تسميه استخرابا ـ قد لوث فكرته عن الغرب وأورثنا البغض الشديد لكل ما هو غربى ، وان كان بعضنا يقف فى الطرف الآخر متحمسا لكل ما هو غربى ، كلون من الجمع بين الشيء ونقيضه ، أو لاعتبارات شتى من نوعية الثقافة أو النشأة · قد نكون معذورين لكننا فى مقام تقديم أنفسنا وتمييز ذاتيتنا يجب أن نحرر ارادتنا وعقلنا من أسر النظريات الشائعة والأقوال السائدة ونعيد النظر فى كل شيء فى موضوعية وتجريد علمى نزيه · من هنا يتحدد موقفنا من حضارة الغرب · بمعنى أننا نستطيع أن نستعين بعلوم الغرب وفلسفاته وبالوسائل الحضارية دون أن نفقد ذاتيتنا · وفى هذا يقول يونج : « لا يمكن للانسان أن يصير غنيا بالاستجداء » ·

ان التعارض بين الشرق والغرب ، فات وقته كما يقول مريت غالى ، لأن تعارضا أخطر قد برز فى مقدمة المشاكل العالمية ، هو الناتج عن مسافة التخلف بين البلاد الشمالية المتقدمة والثرية ، والبلاد الجنوبية المتخلفة والفقيرة ، وما التعارض بين شرقنا وغربنا فى حوض المتوسط سوى جزء من ذلك التعارض العالمى بين الشمال والجنوب ، الذى يتوقف على حله مستقبل الجنس البشرى · ولذلك فات أوان ثنائية الشرق والغرب بعد أن أصبحنا على أبواب القرن الحادى والعشرين ·

ان داخل كل انسان مبدأ للحياة ، قد يولد انسان ويموت دون أن يكتشفه ، ولكن هذا لا يعنى أنه غير موجود · ولذلك تطالب نعمات فؤاد بأن نعين النشء على الانبعاث السلوكى على مستوى الأفراد ، ونعين الأمة على الانبعاث السلوكى على مستوى الجماعة ، وعلى النظر الى الحياة

نظرة مستقبلية لا تجذبها الى الخلف والتخلف سلاسل الأوهام ، وذلك من أجل مصلحتنا نحن قبل الآخرين . فهذا هو الطريق المؤدى الى تصحيح دول المدنية الحديثة . من أجل هذا لابد من تصحيح كثير من الأوضاع العقيمة ، واعادة تقويم كثير من المفاهيم والعادات والتصرفات فى حياتنا .

واذا كان التطور الحضارى لأى مجتمع يبدأ بالفرد ، فان الفرد فى وضعنا السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وتثبيت وجودنا الحضارى بين بلادنا طاقة معطلة . ولذلك تؤكد نعمات فؤاد أننا لا نحيا حياتنا كما يحيا الناس . ان كثيرين منا لا يعرفون معالم بلادنا كأنها خلقت للسياح وحدهم . فالفرد العادى يتبع عقله عينه فلا يفكر الى أبعد مما تنظره تلك العين . انه يؤدى عمله الماثل أمامه فى رتابة مملة لا تجديد فيها ولا ابتكار ولا فن ، فاذا فرغ منه عاد الى بيته مكدودا من الخمول لا من التعب ، أو انحط على كرسى فى مقهى يحتسى الشاى ويلعب الورق . ولو انتشرت فى مدننا الحدائق العامة والنوادى الخاصة والمسابقات الرياضية والفنية ، والندوات الأدبية واللقاءات العلمية لتغيرت نظرتنا الى أوقات الفراغ وتغير أسلوبنا فى العمل أيضا . ان الأصحاء فى البدن والعقل يجدون ويلعبون ويضحكون ويتمتعون باطايب الحياة التى أحلها الله .

واذا بدأنا بالفرد ، فلابد أن نبدأ بالطفل . فواضح أنهم فى دول الحضارة يعطون للطفل الكتاب المصور ، والصور الملونة ، واللعبة المركبة التى يجد متعته كلها فى فكها واعادة تركيبها . يعطونه الطعام الصحى لا الدسم ، يعطونه الحنان الرشيد لا الضار الذى يفسد شخصيته ويجعلها اتكالية وشديدة الحساسية من فرط ما ألف من التدليل والاستجابة العمياء التى لا يمكن أن يعثر عليها فى الحياة العامة عندما يصبح رجلا أو امرأة . يربونه على الثقافة كمتعة وتسلية منذ بداية وعيه بالحياة ، يعطونه البرامج الجميلة والأفلام الخاصة القواميس ودوائر المعارف الملونة الخاصة بالأطفال والمتخصصة فى الزهور والنباتات والحيوانات والأسماك والوحوش ... الخ . فكل شىء هناك مدروس من أجل الطفولة .

وتستشهد نعمات فؤاد بمنهج المحفوظات الانجليزية الموضوعة لأطفال السنة الثالثة بالمرحلة الابتدائية من خلال قطعة عن (عبور الطريق) وترجمتها :

قف وأنظر واسمع
قبل أن تعبر الطريق
استعمل عينيك وأذنيك

ثم استعمل قدمك

انظر يسارا يمينا

عندما يكون الضوء أحمر قف

عندما يكون الضو أصفر استعد

عندما يكون الضوء أخضر سر آمنا

وتستشهد نعمات فؤاد بقطعة أخرى بعنوان (بذرة البرتقال) :

لا ترم أبدا بذرة البرتقالة

على الأرض أرجوك

ان قطعة منها تحت كعب

قد تكسر قدما ٠

هكذا يعلمونهم الحياة بدون تعقيد والسلوك بدون خطابية ٠ كذلك فانهم يعلمونهم اللغة باسلوب ذكي لطيف يحببها اليهم ٠ فمثلا يتعلم الأطفال الكلمات الانجليزية بالشعر الخفيف مثل : ضع حرف كذا مع كذا فيصبح عندك قطا ، وضع حرف كذا مع كذا فيصبح عنده كرة وهكذا ٠ ومع هذه المسميات صورها ملونة وفى أوضاع مضحكة تسر الطفل وتسليه ٠ فى حين نبدأ نحن تعليم لغتنا لأطفالنا بالنحو ونلقنهم فى جدية صارمة أن الكلمة تنقسم الى اسم وفعل وحرف فاذا وصلنا الى « الجملة » فلا نجد فى لغتنا التى نطنطن بغناها ووفرة مفرداتها الا هذه الجملة التى لا تتغير كأنها تحفة : (ضرب زيد عمرا) وهى سيئة لفظا ومدلولا وأثرا فى نفوس طفلة سهلة الالتقاط والانطباع ٠ ثم نلوم أولادنا ، كبارا ، على تصرفاتهم ثم على نفورهم من دروس اللغة العربية ٠

والغريب المذهل أن عيوب التعليم التى لخصها سامح الخالدى فى مؤتمر الدراسات العربية سنة ١٩٥١ ، لا تزال ملموسة اليوم ، أى بعد أكثر من ثلاثين سنة ٠ فقد قال عن مدارسنا فى الأقطار العربية بعامة أن :

« التدريس فيها ميكانيكي يعتمد على ذاكرة الطالب فى الدرجة الأولى ٠ والاعتماد على الحفظ هذا من ميرات عصور الانحطاط خاصة ٠ كما أن الفرد فيها مهمل ، فشخصية الطلاب مضغوط عليها ، ولهذا تؤلف وحدات مكبوتة ، وقد شل فيها ابتكار الطالب وتفكيره الحر الطليق وخياله ٠ والروح الرياضية الحقة معدومة فيها ، فالألعاب تلعب للغلبة ، ومازال الفرد فيها هو المهم ، ومازال الجمهور يصفق للفرد اللاعب فيها لا للمجموع ٠ كما أن التربية الدينية الحقة الممثلة فى المثل العليا لا وجود

« ان الانسان صغيرا أو كبيرا فى حاجة الى « السيادة » ، أن يكون سيد نفسه ، أى قادرا على العطاء محققا لذاته . حتى القرآن والانجيل يجب حين نقرؤهما أن نسمعهما من « الداخل » ، فى عملية تجديد الفكر الدينى كما يقول « اقبال » ، فان توكيد الروح الذى سعت اليه المسيحية يتحقق لا باستبعاد القوى الخارجية التى تخترقها أنوار الروح بالفعل ، وانما يتحقق بتنظيم علاقة الانسان بهذه القوى الخارجية ، على هدى النور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه . بمثل هذا الأسلوب تربى المدرسة ، شخصية الطفل حين تبث فيه وعيا خلاقا للقيمة والا أخرجت منه فردا مكررا ضائعا فى الزحام . وفرق بين الفردية والشخصية » .

فالشخصية ـ فى نظر نعمات فؤاد ـ تولد طفلة ثم تنمو ، غذاؤها العلم والتجربة والحياة ، وهى قابلة للنمو الى حد كبير ، أما أسلوب التلقين المتبع فى مدارسنا فانه يصنع قوالب لا شخصيات . واذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فان ناقل العلم ليس بعالم ، وانما العالم هو الخلاق المبتكر . وفى هذا يقول الدكتور أحمد زكى فى مؤتمر الدراسات العربية الذى عقد ببيروت سنة ١٩٥١ والذى نشرت أبحاثه فى كتاب « العرب والحضارة الحديثة » :

« ان التعليم عندى مفتاح كل مغلق من مغالق الحياة ، فى شرقنا هذا العربى ، ولو أنى خيرت بين أشياء كثيرة يعطاها العرب ، ما اخترت المال ، ولا اخترت الاستقلال ، ولكن أختار التعليم يشمل ويعم ، فهو الوسيلة الى المال ، وهو الوسيلة الى الاستقلال ، وهو الوسيلة الى فتح كل باب مغلق يتدفق منه الخير كثيرا وفيرا » ..

وتتساءل نعمات فؤاد فى حيرة عن نوعية التعليم الذى تتلقاه البنت فى مدارسنا على سبيل المثال فتقول :

« هل تعلم المدرسة البنت كيف تلبس وكيف تجلس وكيف تتحدث وكيف تتزين وكيف تتصرف ومتى تتكلم ومتى تصمت ؟ هل تعلمها أن الجمال الغالى (تركيبة) صعبة من هذه السمات جميعا ؟ هل تعلمها أن الحب ليس الفارس والحصان الأبيض ... الخ من تهويمات القصص والأساطير التى يكتبها أصحابها لتزجية الوقت ، أو تسلية الفراغ عند الحالمين والحالمات ؟ وأن ألف ليلة وليلة قد يكون فيها الكثير من حياة عصرها ولكن عصرنا لا .

« هل تعلم المدرسة ، البنت ، أن مجنون ليلى أو قيس ولبنى ، أو جميل بثينة أو كثير عزة ، أو العباس بن الأحنف و « فوز » أو ولادة

وابن زيدون قصص شعرية ، شاعرة وأنها مع هذا صحيحة ، وفيها لمسات انسانية الا أن عصرنا له طبيعة أخرى ؟ .

« هل تعلم المدرسة البنت أن عصرها قطع أشواطا بعيدة بعد « آلام فرتر » و « رفائيل » و « حياة لامرتين » و « روميو وجولييت » و « كليوباطرة » ؟ » .

فالحب لا يصلح للاقتباس كفنون الأدب ، أو التقليد كالأزياء . كذلك فان المدرسة في العالم العربي تتجاهل الجنس كما لو كان شيئا ثانويا أو غير موجود . وبدلا من أن تطرحه في موضوعية علمية مصقولة مثل كل مدارس العالم المتحضر التي تعتبر الثقافة الجنسية جزءا لا يتجزأ من الثقافة العامة ، يدور الهمس بين رفاق العمر وتتخافت الأصوات ، ويعلو الضحك المكتوم ، وتتقارب الرءوس ، ويطل الفضول كله من العيون ، وتدمى الشفاه من العض عليها من الخجل المصطنع أو الحقيقي ، مما يلقي في الروع أن الجنس على اطلاقه عيب وفاضح وفادح ، في حين أن العيب هو امتهان الجنس والاباحية . ان المدرسة العربية لا تعلم البنت والولد على السواء كيف يختار شريك الحياة على أساس من التقاء الشعور والفكر معا .

ان أخطر آفات الحياة الزوجية في عالمنا العربي تفاوت المستوى الفكري بين زوجين يكون أحدهما في واد ، والآخر في واد آخر . انها الوحدة القاتلة وان رآهما الناس معا تحت سقف واحد . فلا يكفي أن يعيش الانسان بل لابد أن يحيا . وعندما يتحول الزواج مع الشيخوخة الى ألفة قوية ، وصداقة عميقة تكون مواهب الروح والفكر والثقافة خير بديل عن متعة الجسد التي يكون الزمن قد فرغ من التهامها ، ولكن الزمن نفسه لا يستطيع ممارسة هوايته المفتونة بحفر التجاعيد ، مع العقل المستنير والفكر الناضج والثقافة المتجددة .

ولا تعني نعمات فؤاد بهذا عبادة العقل وحده فهو أحيانا عند بعض الناس يتسيد على حساب جمود العاطفة أو نضوبها ، في حين أن رحلة العمر تحتاج الى القلب والعقل معا ، الى الجسم والروح معا ، وافتقاد عنصر من هذه العناصر يسلم الى الشقاء الذى يستعصى على العيادات النفسية . وكل هذا يمكن تداركه في المدرسة من بداية الأمر . وبالتالى لابد من هزة عنيفة للمدرسة في بلادنا ، ففيها بعد البيت ، يعاد بناء الانسان العربي .

ولم تنس نعمات فؤاد أن تعبر عن آرائها الثورية في الزواج والبيت

المعاصر بصفته القاعدة التي تنطلق منها أجيال المستقبل ، فتوجه كلامها الى المرأة العربية حيثما كانت فتقول :

« حقا أن الزواج قديم جرت عليه سنة الحياة منذ الازل ، ولـــكن الجديد فيه معناه ، لأنه يتغير بتغير العصـــور ، وباختـــلاف البيئات والثقافات . فالزوجة اليوم ارتفع معناها عن المتعة والأنوثة حتى غدت تشغل مكان الصديق والسمير والشريك والرفيق .

« الزوجة المثالية فى مفهوم العصر الذى تعيش فيه نبع حنان تروى عذوبته ظمأ القلوب والأرواح ، فاذا اشتدت الأيام ، كانت الساعد الذى يتكأ عليه ، والصدر الذى يغيب الوجه فيه . ان عطف الزوج يا ابنتى فى الأحداث خير بلسم يشفى الجراح . واذ تقبل الأيام ، تنهض الزوجة وتعمر وتنصر وتبنى وترفع وتبعث الحياة فى كل خامد ، وتشيع الاحياء فى زوجها ، فى بيتها ، فى نفسها ، احيـــاء ماديا ومعنـــويا ذلك الذى أعنيه . وهى فى الادبار والاقبال تعويض وتوجيـــه وخلق . والزوجة الطموح لا تنطفىء روحها مهما اشتدت الريح أو أغطش الليل .

« ان الربان الماهر هو الذى يتغلب على الأنواء والعواصف وهوج الموج . أعرف أن الغلبة هـــذه تكلف الربان كثيرا من المكابدة والمجالدة والصراع ولكن النصر ما جاء يوما بلا ثمن ، ثمن غال . بل لعل لذة الحياة فى هذا الكفاح ، فى هذا الكبد الذى يزيد صاحبه كل يوم جديدا ، فى ماله ونفسه وتفكيره وتجاربه ورصيده من معرفة الحياة والناس .

« وثقى يا صغيرتى بأن العيش اذا بلغ حد الرخاوة والطراوة قتل صاحبه ، أعنى وأد طموحه ، تحفزه ، تحمسه ، نشاطه ، فيورثه بلادة الحس والخمول وقصور الآمال . وما أتعس الحياة بلا أمل ، بلا عمـــل ، بلا غاية ، بلا هدف نحلم به . ثم نصحو لنسعى اليه ، ثم نفرح أن ندنو منه ، ثم ننتشى من الراحة اذ نظفر به . ثم نحلم بهدف جديد . » هـــذه هى الحياة يا ابنتى قوة دافعة ، روح متأججة ، نفس لاهية ، رغبة جادة فى التجدد والنماء والاستعلاء » .

وتعلل نعمات فؤاد زواج المصرى أو العربى من أجنبية بأن الرجل المثقف ينشد صنوا لعقله وتفكيره ومشاعره ، ينشد رضى لنفسه وقلبه معا . واذا لم يتوفر له هذا فى المصرية أو العربية تطـــلع الى غيرها فى الأوطان الأخرى . فلابد للبيت السعيد أن تسوده روح الفهم والتقـــدير والمشاركة الوجدانية والتجاوب العقلى والروحى والتعاون الصادق الصامت المخلص الذى ينكر كل فيه نفسه .

وهذا يعنى أن نعمات لا تجد أى أقل فى أى تطور حضارى لنا سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع الا من خلال نشر الوعى الثقافى فى البيت والمدرسة والشارع والمجتمع ، بحيث تصبح الثقافة زادا يوميا وسلوكا طبيعيا لا يحتاج منا الى جهد أو افتعال · جيد فى أن ثمرة الثقافة الحقيقية هى أن نعرف كيف تستخدم الكتب · والقراءة الايجابية لا العارضة هى التى تبنى الانسان وتشد أزره حين ندعم ثقته بنفسه وتمكنه من الاختيار · فالقراءة الحقيقية حضارة بما تشكل الانسان الذى يبنى بدوره الحضارة ·

هنا تقع مهمة تاريخية على كاهل الادب والأدباء من أجل البعث الحضارى للأمة العربية · ولذلك تتفق نعمات فؤاد أيضا مع جورج ديهامل فى أن الأدب ممارسة دائمة لكرم النفس ، وعمل من أعمال التحرير ، تحرير النفس من ربقة القهر ، وتحرير الأمة من قبضة الاستبداد والتعويق ، تحرير الانسان · واذ يحرر الأدب الانسان ويكون الأب الشرعى لمولد شعب ، يغدو حضارة · والكاتب كاتب لأن السماء اختصته بهذه الهبة وليست لبشر فضل عليه فى هذا · والكاتب هو الضمير والموقف ، بالحرية المطلقة فى الرفض والقبول ، انه أكبر كثيرا من حاكم ولو كان امبراطورا · تزول الحكام والأحكام ، ويبقى ما خلق الأدب وأبدع الأديب ! ·

أما السمار والندماء وحملة القماقم من الموتى الطاعمين فليسوا أدباء ، انهم أغوات السلطان وأدبهم فىء معدة لاعطاء روح · لقد اغتالوا أنفسهم · أما الأصلاء أصحاب الضمير والموقف ، فهم حملة مشاعل الفكر والثقافة والوعى مهما تكاثف الظلام من حولهم ·

● نعمان عاشور

● نعمان عاشور

نعمان عاشور من كتابنا ومفكرينا الذين يؤمنون ايمانا لا يتزعزع بان الثقافة هى أساس أى تطور حضارى فى كل المجالات السـياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية ··· الخ · كذلك فان النتاج الخلاق للأدب والفن والفكر ـ فى نظره ـ هو الجوهر الحقيقى للثقافة ، ولذلك فهو لا يخضع أبدا لنفس المقاييس التى تخضع لها الآراء والمبادىء والأفكار السياسية · وهذا النتاج لا يتحقق وجوده الا اذا اكتسب حق التعبير فضلا عن حرية التعبير خصوصا فى البلاد النامية التى تلعب فيها الدولة دورا رئيسيا لدعم الثقافة ونشرها كخدمة يتحتم ايصالها الى القاعدة الواسعة العريضة من المواطنين ·

هذا هو الاساس الذى يطالب نعمان عاشور بايجاده كى تنهض عليه محاولتنا الراهنة من أجل بعث الحياة الثقافية وانهاضها · فما من شك أن الاقتصار على لون واحد من ألوان الثقافة تقدمه مجموعة معينة من الكتاب والمفكرين الذين دفعت بهم الأوضاع السياسية المتغيرة لشغل وسائل التعبير ، وذلك بعد استبعاد كافة الاتجاهات والمدارس الأدبية والفنية والفكرية التى لا تنسجم نظرتها مع الحزب أو الجماعة السياسية الحاكمة · هذا التحول لابد أن يؤدى الى الهزال الثقافى ·

ولقد جاء ذلك نتيجة حتمية لما تعرضت له الحياة الثقافية من مزاعم لا أقلها ما أسموه الآراء المستوردة والفكر المستورد الخ ··· هذه الدعوة وأمثالها هى التى أصابت حياتنا الثقافية فى الصميم لأنها أخضعتها للمقاييس السياسية المحدودة القيمة والموقوتة الأثر · فما من أديب أو

فنان أو مفكر مصرى أو عربى أصيل يرضى أو يقبل اخضاع انتاجه لأى رأى أو فكر أو منهج غير نابع من جذوره الأصيلة الثابتة · وهى جذور راسخة الامتداد عميقة الغور فى تراثه الضخم الممتد عبر القرون والاجيال، ويستحيل أن تجتاحه أى تيارات ثقافية يمكن أن تؤثر على كيانه أو تبعده عن أصالته · أى أديب أو فنان أو مفكر مصرى عربى ، هو وريث للثقافة العربية والاسلامية ، وربيب وابن بار للبيئة المصرية ، وهى بالضرورة وحكم الواقع ، بيئة عصرية حية لا يمكن أن تنأى بنفسها عن مقومات العصر الثقافية أو تقطع جذورها من أصولها ومنابتها الغائرة فى أعمق أعماق التراث الذى نبعت وتطورت منه ·

تلك حقيقة تنطبق على كافة الأدباء والفنانين والمفكرين فى كل امة وهى حقيقة تتجاوز بانتاجهم حدود الأوضاع السياسية التى ينتجون فى ظلها لانهم أصحاب رؤية واسعة تشمل الكون والانسان والحضارة بينما لا يعدو الاطار السياسى أن يكون مجرد اطار مرحلى · ولذلك يستحيل أن يكون هناك أدب أو فن أو فكر حقيقى مؤسس على دعوة سياسية أو حتى مذهب اجتماعى ، وانما الصحيح أن النتاج الأدبى والفنى والفكرى نتاج قومى خالص المضمون والشكل ، انسانى فى منهجه ، حضارى الطابع والقيمة · ويستشهد نعمان عاشور فى هذا الصدد بنتاج بن خلدون كمفكر وشكسبير كأديب وبيكاسو كفنان وبيتهوفن كموسيقى وهكذا ·· ثم يؤكد أنه :

« من منطلق تحرير الادب والفن والفكر من الخضوع لدواعى السياسة ومعايير القيم السياسى يجب أن يتجه مسارنا فى كفالة حق التعبير مع حرية التعبير لكل الألوان والاتجاهات والمدارس · والواقع أن منبت المحنة يكمن فى السادة الذين مكنوا من التحكم فى وسائل التعبير بحكم صلاتهم ومسايرتهم وولائهم الزائف · فهم الذين أوصلونا بنتاجهم الهش الى كل ما هو ماثل من هزال ثقافى فى كافة المعبرات ، من السينما الى المسرح الى التليفزيون الى الكلمة المطبوعة فى مجلة أو كتاب ، بل وحتى الى الرسم والموسيقى والغناء أيضا » ·

ولذلك عند بداية التجربة الحزبية الاخيرة فى مصر نادى نعمان عاشور فى أكثر من جولة مناشدا هذه الأحزاب أن يكون من بين أهدافها الاستراتيجية وضع برنامج لسياسة ثقافية يلتزم بها كل حزب ، وتعادل فى قيمتها بالنسبة لمبادئه المعلنة ما يضعه فى برامجه من سياسات أخرى اقتصادية واجتماعية ، بل وسياسية أيضا · ولا يزال نعمان عاشور يصر على دعوته بأن يكون لكل حزب برنامجه الثقافى مثلما له برنامجه

الاقتصادى · ولا يهم أن تلغى وزارة الثقافة ثم يستعاد وجودها كما حدث · فوزارة الثقافة أو أى شكل تنفيذى آخر يحل محلها ليس هو الثقافة ، وانما احدى وسائل تحقيقها · انما يقصد نعمان عاشور بالسياسة الثقافية أن يكون لكل حزب اتجاهه أو موقفه المتمثل فى برنامج عملى لتحقيق أهم ما ينقص حياتنا اليوم من صروح البناء وهو الصرح الثقافى ·

فلا يصح فى وطن له تراثه الثقافى الشامخ ومقوماته الثقافية البارزه ودوره الثقافى الرائد فى المنطقة كلها ان لم يكن فى العالم بأسره ، لا يصح أن تخضع حياة أبنائه الثقافية لمتطلبات الحاكم أو رغباته أو نزواته الثقافية . فاذا نحن أمام جماعة من المصفقين والمطبلين يحملون النياشين والأوسمة ويمنحون الهبات فى زفة السلطان متجاهلين ان الثقافة فى حياتنا أسبق من زراعة القطن وأرسخ من صناعة النسيج وأنفع من بوتيكات الملابس المستوردة وأجدى من المعلبات وأدهنة وعطور التجميل وكافة مناهج الانفتاح الاستهلاكى · يقول نعمان عاشور :

« والأمر لا يحتاج الى دليل أو برهان . فلو كانت هناك سياسة ثقافية مستقرة ومتطورة ترسمها وتنادى بها الأحزاب فى برامجها ــ متى كانت هناك أحزاب طبعا ، لما أحرقت دار الأوبرا ، ولما انطفأت جذوة الباليه والكورال والأوركسترا السيمفونى ، ولما نهبت وخربت مؤسسة السينما ، ولما طمس القطاع العام فى المسرح ، ولما خلت الاذاعة والتليفزيون من الثقافة المهدرة لصالح التسلية ، ولما أقفرت دور النشر من الكتب ذات القيمة ، ولما كسدت الكلمة المكتوبة وابتذلت فى كل مجال ·

« لقد كانت هناك سياسة ثقافية ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص وانما ترسخ وتثبت بثبات برامجها لما اختلت القيم والمثل والتطلعات التى نادى بها رفاعة الطهطاوى وتلاميذه وبشر بها الأفغانى وحاولت أن تحققها ثورة عرابى ، وجاءت لتضع بذورها الأولى حركة مصطفى كامل ومحمد فريد لتمتد بأصولها ثورة ١٩١٩ وروادها الكبار لطفى السيد وهيكل وطه حسين والعقاد ، وانتفاضة منتصف الأربعينيات الثقافية التى مهدت لثورة يوليو ١٩٥٢ وظلت تواكبها حتى بداية الارتداد بعد الستينات . وما ساقنا اليه الانفتاح بطبيعته الاستهلاكية لبحيل الثقافة الى سلعة تجارية لا تزيد فى قيمتها ومقوماتها وأهدافها عن أن تكون بمثابة قطع غيار السيارات التالفة ·

« أو ليس هذا ما يكشف عنه نتاجنا الثقافى الراهن فى الأفلام

لا يتاتي الا اذا حظيت هذه الأجهزة بداية بما يحفظ للكلمة المكتوبة قيمتها وفاعليتها الثقافية • ذلك أن هذه الكلمة الرقيقة هي الغذاء الصحي لعقول الجماهير ووجدانها ، ولابد أن تصل اليها سواء عن طريق الكتاب أو طريق الأجهزة الصوتية أو المرئية • فالكتاب مجرد وسيلة وليس هدفا ، لما الهدف فيتمثل في التثقيف الراقي الشامل ، الذي يجب أن يصل الى الجماهير من خلال كل القنوات الممكنة •

الأصل اذن في الدعوة الى القراءة والعودة الى الكتاب يتمثل فيما يمكن أن تقدمه وسائل التعبير السمعية والبصرية من الحروف المطبوعة داخل الورق ، رواية أو شعرا أو قصة أو دراسة أو بحثا أو حتى رسما ، اذ يستحيل الارتفاع بالمستوى الثقافي فيما تقدمه هذه المعبرات بدون العودة الى الكتاب بما يحويه من كلمة مطبوعة ثابتة القيمة• وعلى هذا الأساس تتركز القضية فيما يجب أن تحمله وسائل التعبير الحديثة للشباب من زاد ثقافي لا يزهد في القراءة بقدر ما يدفعه الى الحرص عليها والشغف بها • ولذلك يرى نعمان عاشور أن دعوة الشباب الى القراءة ومحاولة تشجيعه على اقتناء الكتاب تكون فعالة وعملية اذا نأت عن مجرد النصيحة أو الزجر واذا سلكت الطريق الواقعي داخل المعبرات العصرية الحديثة التي تنزوى فيها الثقافة الجادة بقدر ما تتضاعف خلالها التسلية الفجة • وهذا هو سر المحنة ومبعث التخبط في محاولاتنا البائسة لازدهار الكلمة المطبوعة ، فنحن نستطيع تقديمها الى الجمهور من خلال الأجهزة السمعة والبصرية لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع فرضها على الجمهور من خلال الكتب • ذلك أن الذي لم يتعود القراءة في الصغر فانه من المستحيل أن يقبل عليها في الكبر • كذلك اذا وضعنا نسبة الأمية الضخمة في اعتبارنا فان محنة الكتاب تبدو أخطر وأفدح ومن هنا كان التثقيف من خلال الأجهزة الحديثة الواسعة الانتشار حتمية لا مفر منها •

ويجب أن نضع في اعتبارنا أيضا استحالة اعتبار الثقافة سلعة بيع وشراء في أي مجتمع مهما كان قائما على دوافع الربح ، لأن الثقافة بالضرورة خدمة من الخدمات الأساسية للدولة ، وفي الوقت نفسه يصعب اعتبارها فرضا اجباريا يمكن تلقينه للناس بلا قابلية من جانبهم • ان بعض المتزمتين يريدون الزام الرجل العادي بأن يتابع تحصيل الثقافة التي يريدونها لا الثقافة التي يرتاح الى تذوقها ، كأن يذهب الى المسرح بدلا من مشاهدة مثيرات التليفزيون ، أو يقرأ الكتب بدلا من أن يرفه عن نفسه بمشاهدة أفلام السينما • وهذا خطأ كبير لأن الثقافة لا يمكن

فرضها بالاجبـــار . ولا رســمها وتخطيطها عن طريق الفرض والالزام الرســمي .

ولا أحد ينكر قيمة واهميــة الفنــون الجادة في تكوين وتشكيل الشخصية الانسانية . ولكن في مجتمع مركب ومعقد يحتاج المواطن العادي الى القراءة الخفيفة والتسلية المرحة ، بل والروايات البوليسية أكثر من حاجته الى ما نطلق عليه الأعمال الجادة . ولا مناص من التسليم بهذه الحقيقة كاساس ، ثم البـدء منها لرسم خطة بغيــة التدرج من الخفة والتسلية المثيرة التي تمدنا بها فنون التسلية والاثارة بالفعل . وبعدها يكون الاتجاه الى ما يرقى لمستوى فن الفائدة والمتعة .

التدرج ـ في نظـر نعمـان عاشور ـ حتمي ويجب أن يتم حتى لا ننفصل بالثقافة عن مجريات الواقع ، وبالتالي نزيد من اتساع الرقعة أو الفجوة القائمة بين الثقافة السطحية المستخفة بعقول الجماهير وبين الثقــافة الجادة العميقة . كذلك ليس من الصــواب أبدا محاربة الهزل والعبث ، لكن من المفيد أن نهذبهما ليرقيا الى مستوى الجـدية اللازمة لتذوق الفن الحقيقي والثقــافة الجادة . وهــذا يعني بالضرورة وجود أصحاب مواهب نفاذة وفكر متقد ثاقب يمكنهم استخدام مواهبهم الفذة في تطوير الثقافة الجادة وبالتالي نشرها على قاعدة جماهيرية واسعة .

ولا يقصد نعمان عاشور بذلك التبسيط ، لأن الثقــافة لا يمكن تبسيطها ، لكنه يقصد ألا يحرم الجيل الجديد ، كما هو حادث الآن ، من الجمع بين التسلية الصارخة والثقافة القويمة ، بل يهضمهما معا حتى لا يفقد جديته ، ولا يغرق في عبثه . فكلا التيارين : الجاد والعابث يجب أن يسيرا جنبا الى جنب لنضمن خلو حياة الشباب من الملل بقدر خلوها من التفاهة . ان الحياة اليومية لجموع الشباب على المدى البعيد تجنح دائما الى الجدية الثقافية ، لأنها تستهلك الهزل والتفاهة بسرعة ، فمن طبيعة السطحية ألا تترسب سريعا أو طويلا في وجدان الناس . وهذا يجعلنا نقبل التسلية الصارخة ونندفع بها لكي نجتذب الشباب الى الجدية المفيدة والصارخة أيضا .

والجدية لا تعني التجهم والغلظة والجمود والصرامة ، وانما تعني أساسا الاحساس بالمسئولية . والانسان المتهكم الساخر قد يكون في سخريته وتهكمه أكثر جدية من أي انسان متجهم صارم ، ولهذا يجب ألا نأخذ الدعوة الى الجدية على أنها تعني العبوس ، بل علينا دائما أن نفهم الجدية على أنها التمكن من ضبط النفس والقدرة على التحكم فيما قد يساق اليه الانســان من شطط في القول وانحراف في السلوك . وفي هــذا يستشهد نعمان عاشور بقول برنارد شو :

« اننى أرثى لكل من ينظـرون الى الحيـاة على أنها مأساة مفجعة نعيشها قسرا لأننا وجدنا فيها · فالحياة فى حقيقتها بهجة ومتعة لا يقومها العبوس بقدر ما يقومها الابتسام والضحك ، بشرط أن يحمل هذا الابتسام فى طياته كل ما يلزم الحياة من الاعتزاز بقيمتها ، لأنهـا أرحب مجال لنشاط الانسان وأصلح مستقر لتحقيق أنبل الغايات بأشرف السبل ··· ان الحياة ليست عبئا ثقيلا نحمله على أكتافنا بقدر ما هى مسئولية شائقة ممتعة تدفعنا الى أوسع الآمال وأبعدها » ·

كذلك يجب ألا نأخذ الضحك دائما على أنه عبث أو ابتذال ، او اهدار واستهتار ، وانما هو انطلاق واضح الى ما تحتاجه الحياة دائما من تفتح ، وما تتطلبه من حرص · ولهذا تستغرقنا التسلية العابرة أكثر مما تشوقنا اللحظات الجادة ، لأننا لا نعرف كيف نمزج بين الجـدية وما يجب أن تقوم عليه من تقبل باسم للحياة · ولذلك يحلل نعمـان عاشور نظرتنا التى لم تنضج بعد الى الحياة فيقول :

« ترى الواحـد منا يغرق فى الضحك الى حد البكاء ، ثم سرعان ما يفيق الى نفسه وهو يردد « اللهم اجعله خـيرا » وكأنه بذلك يعتبر الضحك تمهيدا أكيدا لاقبال الحزن · ولا شك أن هذا الانسياب فى الضحك وما يقابله من انسياب فى الحزن هو الذى يفتت شخصيتنا ، وبالتالى يجعل نظرتنا الى الأمور دائما ـ جادة أو غير جادة ـ نظرة انفعالية وسطحية ووقتية ، فيها من الاستغراق فى الحزن ، وفيها من المغالاة فى الضحك ما يلغى ارتباطها بالمسار الدائب للحياة ، لأن الحياة حياة بكل ماضيها الذى سبق أحزاننا وأفراحنا المؤقتة ، وكل حاضرها الذى تسبب فى أحزاننا وأفراحنا الحادثة ، ثم ما سيتلوها بعد ذلك من مستقبل قادم، وقدومه محتم لا فكاك منه · والجدية التى نحتاجها فعلا هى جدية الوعى بالماضى والحاضر والمستقبل ، وليست جدية الاستغراق فى أحزان اللحظة الحاضرة وأفراحها ، وكأن لم يكن هناك أمس ، وكأن لن يكون هناك غـــد » ·

هذه الجدية أيضا يجب أن تكون السمة المميزة للمفكر أو الكاتب أو الفنان بصفته رائدا فى مجال تثقيف الناس وتعليمهم السلوك الناضج الواعى الموضوعى · وهى الجدية التى تتجسد فى نوعية الموقف الذى يتخذه من مجتمعه وعصره · فهو لا يتميز عن أى انسان غيره من الناحية الطبيعيـة ، اللهم الا كونه صاحب موهبـة معينة ، لكنه ينفرد عن كافة الآخرين بما تلزمه موهبته من أن يكون أولا وقبل أى شىء آخر · انسانا له موقفه الجاد المحدد المتبلور ، ذلك أن موقف الكاتب من المجتمع ، بل

من الكون باسره ، هو الذى يجعل لكتاباته وزنها وقيمتها وتأثيرها على حياة الناس ، ولهذا ينحدر القلم بكل كاتب مهما كانت مواهبه حين يفقد موقفه وتتنــاقض آراؤه ، وتتلون كتاباته وتتضــارب أفكاره فيتهــاوى انتــاجه ٠

وليس من السهل على كل من يمسك القلم أن يكون ثابتا في مواقفه لكن هذا الثبات هو بالفعل ما يميز الفنان والكاتب والمفكر ٠ أما ما يلحق عادة بالفنانين والكتاب من تصرفات او مظاهر سلوك غير طبيعية أو غير عادية ، وبالتالى تحمل طابع الشذوذ الواضح بالخروج على العرف السائد أو ما شابه ذلك ، فانها محض افتعال من جانبهم ، ووهم مختلق من جانب الآخرين الذين لا يحلو لهم أن ينظروا اليهم الا بهذه النظرية ٠ ان الفنان أو الكاتب شاذ بما يحمله من آراء ومثل وأفكار وقيم مفجرة للجمود ، وباعثة على التطور ، ودافعة الى التقدم ٠ وفيما عدا ذلك فالفنان انسان عادى سوى ، مثله مثل كافة البشر الآخرين ٠

ويركز نعمان عاشور على دور المفكر والفنان والمثقف لأنه يعتقد أنه كان وراء كل التغييرات الكبرى فى حياة الشعوب والتى نسميها عادة الثورات ٠ فهى تنطلق من انبعاثات ثقافية وفكرية تسبق وقودها وتصاحبها في أغلب الأحيان ٠ مثال ذلك الثورة الفرنسية وما سبقها من حركة بعث ثقافى عارم مهدت له أو على الأصح عبرت وكشفت عنه ، كتابات فولتير ومنتسكيو وجان جاك روســـو وغيرهم ٠ وكانت النتيجــة أن استمدت الثورة مبادئها واقامت دعائمها على أساس ما بشروا به ودعوا اليه من حرية واخاء ومســـاواة ، لا كشعارات وانما كوقود يشعل نار الثـــورة ويؤججها ويديم توهجها ٠

وعندما يطبق نعمان عاشور هذا المفهوم الحضـــارى التاريخى على منطقتنا العربية ، فانه يرى أن ثورة عرابى المصرية مثلا ٠ قامت فى أثر حركة ثقافية واسعة مهد لها رفاعة الطهطاوى وتلاميذه ، وأشعل وقودها جموع المثقفين من رجالات الحزب الوطنى ، ثم كانت حركة عرابى وأصحابه ومواكبة المثقفين لها من أمثال عبد الله النديم وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأديب اسحاق وغيرهم من المفكرين الأحرار ٠ ونفس المفهوم ينطبق على ثورة ١٩١٩ المصرية ، فقد كانت الطفرة اللاحقة على حـركة المثقفين الوطنيين التى قادها مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد ثم جاء فأذكاها النهوض الثقافى والفكرى الذى صاحب انشاء الجامعة الأهلية فى العشر سنوات الأولى من القرن العشرين ، وما انفرط عن هذه الانبعاثة من رواد فى كافة مجالات الأدب والفن والفكر : لطفى السيد وطه حسين والمنفلوطى وشوقى وحافظ ابراهيم والعقاد وسيد درويش وغيرهم ٠

وعندما يطبق نعمان عاشور هذا المفهوم على ثورة يوليو سنه ١٩٥٢ فان القياس لا يختل على الاطلاق • فقد سبقتها أيضا اندفاعة ثقافية كبرى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ومع وقوع الاحتلال الصهيوني على فلسطين • وكانت اندفاعة ظل أثرها في امتداده الثقافي متواصلا يواكب أحداثها حتى وقوع النكسة في يونيو ١٩٦٧ وما بعدها بسنوات • ولذلك فانه من السهل تتبع الجذور الثقافية لثورة ٢٣ يوليو في الالتحام الذى حدث بين الحركة الثقافية واليقظة القومية في أعقاب الحرب العالمية الثانية مما دعم النضال السياسى وأيقظ الوعى الاجتماعى • فلم يعد للمصريين طلب ذلك الوقت سوى جلاء الجيوش الانجليزية عن أرض مصر وانهاء النفوذ السياسى للاستعمار وما يرتبط به من قوى سياسية داخلية تمثلت في تحكم الملك في الحياة السياسية وسيطرة الاقطاع على الحياة الاقتصادية للبلاد مما أدى الى تردى العلاقات الاجتماعية •

هذا في الوقت الذى بدأت الحياة الثقافية تنشط فيه بعد أن زالت ظروف الحرب وخفت حدة ما كان يصاحبها من قيود نتيجة لفرض الاحكام العرفية على البلاد والرقابة القائمة على الصحف والمجلات ووسائل النشر كافة . والاظلام الذى خيم على الحياة الفنية ، في كل جوانبها وبالذات في مجال المسرح • فما كادت الحرب تنتهى حتى تفتحت جميع النوافذ المغلقة فعادت الحياة الثقافية لتصل ما انقطع من خيوط كانت تربطها بعهدها الزاهر السابق • وتميزت الفترة التى تلت الحرب بامتدادات ثقافية عديدة كان أبرزها وجود الجماعات والروابط والندوات والأندية الثقافية على صورة غير مسبوقة خاصة في القاهرة مركز الاشعاع الثقافى •

وهذه الأشكال الجديدة من أشكال النشاط الثقافى هى التى ميزت المكونات الثقافية لهذه الفترة التى أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية حتى بلغ عددها ما يزيد على ثلاثين جمعية ورابطة وندوة • وعادت الصحافة الى سابق اهتمامها بالنشاط الأدبى فظهرت على صورة ناضجة مجلتنا الرسالة والثقافة • كما أخذت الجامعات والمعاهد الفنية المتخصصة في امداد الحياة الثقافية بالعديد من المثقفين والأدباء والشعراء بحيث شكل هذا النشاط القوام الفكرى والتنويرى للتحرك السياسى والاجتماعى الذى صاحبه ، والدعوات التحريرية التى جاءت لتحققها ثورة يوليو ١٩٥٢ •

ويرى نعمان عاشور أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة تحول في مسار الثقافة المصرية المعاصرة • فما كادت تنتهى الحرب وتتجدد المناداة بالتحرر من سيطرة الاستعمار حتى بدأت التيارات والمفاهيم الاجتماعية التى يحملها عادة الفكر الليبرالى والاجتماعى في كافة مذاهبه

لتاخذ طريقها الى الفكر المصرى ، ولم تعد الديمقراطية بمفهومها وثقافتها المعتادة فى العالم الغربى ، خصوصا بعد العنت الذى أخذ يتبدى فى مقاومة الاحتلال للحركة الوطنية المصرية ، لم تعد تمثل بقيمها ما يقنع او يزود الحياة الثقافية المصرية بما كانت تفتقر اليه من مقومات ٠ ولذا تراجعت جميع الدعوات والمنطلقات الفكرية السابقة والتى تأرجحت بها ثقافة الثلاثينيات من عودة الى التراث أو السير فى موكب الثقافة الأوروبية أو استلهام للحضارة الفرعونية ، تراجعت جميعها أمام التيار الساحق للأصل الذى تقوم عليه الدعوة الاجتماعية وهو استلهام الواقع الموضوعى للحياة التى يعيشها الناس ٠

هنا يتتبع نعمان عاشور بداية الواقعية كتيار رئيسى غمر الثقافة فى كافة جوانبها ٠ وأخذت تتطور فى مصر الوان جديدة من الأدب والفن وجدت لها ما يدعمها من أساليب التنظير والدراسة فيما حفلت به البلاد من تكوينات جديدة فى الساحة الثقافية الواسعة ٠ وهى تلك الجمعيات والروابط والندوات وغيرها من التكوينات الثقافية التى أثرت تأثيرا مباشرا على المسار السياسى نفسه الذى سرعان ما داخلته الدعوات الاجتماعية كالمناداة بالاصلاح الاجتماعى وتحديد الملكية الزراعية ومجانية التعليم وسرعة ادخال الصناعات وغير ذلك من الدعوات التى جاءت ثورة ٢٣ يوليو لتضعها فى قوانين وتشريعات ٠

وكان طبيعيا فى تلك الفترة أن تظهر الكتابات الواقعية الجديدة فى الرواية على يد نجيب محفوظ فى كافة انتاجه وخاصة الثلاثية المشهورة ٠ وتحول توفيق الحكيم من المطلقات الذهنية الى تقديم مسرح المجتمع ٠ وكتب طه حسين « الوعد الحق » وبعض مجموعات القصص التى تحفل بالحياة البسيطة للعاديين من الناس « المعذبون فى الأرض » ٠ وبرزت القصة القصيرة بواقعيتها المتطورة ممثلة فى بواكير يوسف ادريس وغيره من شباب القصصيين فى تلك الفترة ٠ ثم تأثر الشعر نفسه بهذه الموجة الواقعية العارمة التى ربطت النشاط الثقافى بالسياسة ، فأخذت تتوالى على الشعر اتجاهات متلاحقة فيما عرف أيامها بالشعر المهموس ثم الشعر الجديد الذى كان عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور أسبق المنادين به ، حتى نجيب الريحانى تشبع بالمناخ السائد وطور مسرحه بنضج واضح نحو معالجة المشكلات الاجتماعية ٠

وهكذا بدأت تظهر وتختفى المجلات الأدبية والثقافية التى تحمل بواكير الدعوة الى ثقافة عصرية مؤسسة فى كثير من جوانبها على المفهوم التقدمى والأخذ بأسباب العلم وربط الثقافة بالسياسة والتركيز على

الجانب الاقتصادى والاجتماعى مثل « المجلة الجديدة » لسلامة موسى ، و « الكاتب المصرى » التى كان يشرف عليها طه حسين ثم مجلة « الفجر الجديد » ، و « الأديب المصرى » وغيرها من المجلات التى توجتها مجلتنا « الثقافة » و « الرسالة » . كذلك ازدهر الفن التشكيلى بمفهومه العالمى لأول مرة فى مصر مما جعلها فترة غنية بكل جديد فى الرواية والقصة القصيرة والشعر والفن التشكيلى ، مشحونة بالاهتمامات المرتبطة بمصير الثقافة ومستقبلها ، مركزة على الفكر العلمى والنهج الموضوعى الواقعى .

وكان أهم ما يميزها الانصراف عن محاولة بحث الأصول فى التراث القديم أو الثقافة الأوروبية أو الحضارة الفرعونية ، والانكباب على واقع البيئة المحلية ذاتها بما كانت تعج به من قضايا ومشكلات وأمراض ونواقص وعلل . كل ذلك كان نتيجة للتيارات الواقعية الاجتماعية الجديدة التى أفرزتها سنوات الحرب وما تلاها . وبذلك ارتبطت الحياة العامة للثقافة والفكر والانتاج الأدبى بكثير من المفاهيم والتصورات التى كشفت عنها مختلف الاتجاهات الجديدة التى كانت تحمل فى صلبها العديد من المنطلقات الاشتراكية ، بل لقد تحولت الأحزاب السياسية ذاتها وحتى أحزاب الأقلية التابعة للسراى الى محاولة تغليب الجانب الاجتماعى على برامجها ومجلاتها وصحفها .

فى هذا المناخ قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولذلك فهى لم تكن هبة مباغتة أو حركة مباركة أو انقلاب عسكرى وانما قامت فى أعقاب حركة ثقافية مهدت لها . مثلها فى ذلك مثل الثورات السابقة عليها . صحيح أنها كانت ذات طابع خاص تمثل فى قيامها على أكتاف مجموعة من الضباط فى الجيش بزعامة جمال عبد الناصر ، لكن أهدافها كانت امتدادا طبيعيا للدعوات التى أثبتتها الفورة الثقافية الممهدة لها ، وذلك بعد الخلاص من الملك وتأسيس الجمهورية ثم انهاء الاحتلال والقضاء على الاقطاع بقوانين الاصلاح الزراعى وتأميم قناة السويس وبناء السد العالى وتأميم الصناعة وانشاء القطاع العام . كانت هذه الانجازات الثورية تجسيدا ملموسا للمبادىء والاتجاهات الفكرية والثقافية التى تبنتها الفورة الثقافية السابقة على الثورة التى لم تكتف بهذا بل أبدت اهتماما شاملا ومباشرا بالثقافة القومية بهدف تحقيق ثباتها وتدعيم مسارها وتطورها . وتمثل هذا الاهتمام فى انشاء وزارة للثقافة لأول مرة فى تاريخ الوزارات. وهو ما يعتبره نعمان عاشور بمثابة ثورة ثقافية متجددة ، تساندها الدولة بكل طاقاتها .

من اللحظة الأولى احتضنت الوزارة الجديدة النشاط الثقافى بجميع

أشكاله · فبعثت في مجال المسرح باعادة تركيز وتجميع الحركة المسرحية الخابية وانهاضها عن طريق المسرح القومي · ذلك أن المسرح مع قيام الثورة كان قد بدأ يأخذ دوره ويحقق بعض مقومات وجوده كلون من ألوان التعبير الأدبي والفني الذي لم يستكمل نماءه وتطوره كالرواية أو القصة التي أنبتتها فترة الأربعينيات ، لكنه كان العبير الجديد الذي تحتاجه الثورة كتجسيد جماهيري مباشر لما يمكن أن تسعى الى تحقيقه · وهكذا وضعت اللبنات الأولى للحركة المسرحية المزدهرة التي صاحبت وجود الثورة وعرفت بمسرح الستينيات ، واندفع الكتاب بكافة ألوانهم وجهودهم الأدبية نحو المسرح ·

وتضاعفت عناية الثورة بالثقافة فأنشأت الدار القومية للنشر ، وأممت صناعة السينما ، وأقامت أكاديمية الفنون وغير ذلك من المؤسسات والهيئات التي تكون في مجموعها القطاع العام للثقافة الموجهة لخدمة جماهير الشعب والارتفاع بالمستوى العام للأدب والفن والفكر في مختلف ميادينه بما في ذلك انشاء المجلات الثقافية العديدة مثل « المجلة » و « الكاتب » و « تراث الانسانية » و « الشعر » و « القصة » و « المسرح » و « الفكر المعاصر » وغيرها من المجلات التي كانت الدولة تمولها وتشرف على اصدارها · وكان من الطبيعي أن تضم كل هذه التكوينات الجديدة جموع المثقفين الذين تمخضت عنهم الحركة الثقافية المزدهرة في مرحلة الأربعينيات · ولذلك يقول نعمان عاشور :

« كانت الثقافة اذن تشكل دعامة رئيسية من دعائم الثورة · ولهذا توجهت كل قوة الثورة المضادة من البداية وخاصة بعد وقوع نكسة ٦٧ الى محاولة تخريب ثم الاجهاز على كل المؤسسات والمنجزات الثقافية التي أوجدتها · وجاء احراق دار الأوبرا ليشكل الرمز الحقيقي لما سبقها ولحقها من ألوان التخريب في كافة ميادين النشاط الثقافي · وبدا ذلك واضحا في ترجيح كفة القطاع التجاري في المسرح ومساندة مسارح التسلية والاضحاك على حساب القطاع العام لمسارح الدولة ، ثم الغاء مؤسسة السينما واعادة تسليم النشاط السينمائي لأيدي المنتجين والموزعين تجار الأفلام بزعم اطلاق حرية التنافس الى جانب ما تعرضت له الهيئات الثقافية الأخرى والفنون التعبيرية جميعها من اهمال واغفال وصل بها الى حد الموات : كالأوبرا والباليه والأوركسترا السيمفوني في مجال الموسيقى، وهيئة الكتاب في مجال النشر وكافة الهيئات والمؤسسات الثقافية الأخرى، كالثقافة الجماهيرية وتصور الثقافة وغيرها مما سعت ثورة يوليو الى محاولة تحقيقه في احتضانها للنشاط الثقافي كمعصب لبناء الحياة الاجتماعية ودعم مستقبل نماء الوطن والتطور بجماهيره · كذلك تم تجريد التليفزيون

من كل مقومات ثقافية لتطغى عليه التسلية المحضة ولحقت به الاذاعة فى هذا المجال » ٠

وعلى هذا كان الصرح الثقافى للثورة من أكثر صروح البناء التى تعرضت للهدم ومحاولات التخريب والاهدار من جانب مختلف العناصر المضادة لها والتى هبت لمقاومة منجزاتها بعد وفاة عبد الناصر ٠ وأخذت القوى المعادية للثورة تمد معاول الهدم لكافة القطاعات ٠ فمن تصفية للقطاع العام للسينما تحت ستار تضاعف خسائره بدلا من تطويره وانهاضه ، الى تخريب الجهود القائمة فى قطاع النشر والاقلال من نشر المطبوعات الجادة والسعى الى اغلاق المجلات الثقافية تحت نفس المزاعم وهى أنها لا تدر ربحا ، مع استبدال مجلات أخرى بها ، أقل قيمة فى مستواها وأثرها ليتولى الكتابة فيها كتيبة أعداء التقدم تحت ستار مقاومة الأفكار المستوردة ٠ ونفس الحرب أعلنت على المسرح وعلى كافة المجالات الأخرى ٠

وهكذا تلاحقت محاولات تصفية الحياة الثقافية وحصر النشاط الثقافى وافراغه من كل مقوماته الفكرية والفنية والحضارية التى سعت الثورة الى ترسيخها من البداية ٠ وأصبحت ظاهرة ضعف الثقافة وهبوط المستوى الثقافى العام من أبرز الظواهر التى تسعى اليوم الى تخطيها لمعاودة انهاض الحياة الثقافية الخابية ومعاودة النشاط الثقافى المتعثر منذ نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات ٠ يقول نعمان عاشور :

« مع نهاية الستينيات كانت القوى المعادية للثورة قد أفلحت فى تجريدها من درعها الواقى وهو درع الثقافة ٠ وجاء ذلك نتيجة طبيعية لما أعقبها من تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية تسترت خلف تصحيح مسار الثورة ، سياسيا باتهام نظامها بأنه كان نظاما شموليا يدفع بالبلاد الى أحضان الشيوعية وسيادة الأفكار المستوردة ، وهى دعوة قامت لاستبعاد كافة طوائف المثقفين المساندين للثورة واخلاء الساحة من وجودهم ٠ وبالمثل جرت اعادة النظر فى كافة الركائز التى قامت عليها الثورة وأهم منجزاتها بمحاولة التشكيك فى قيمة وأهمية بل وجدوى بناء السد العالى ، ثم باعادة النظر فى قوانين الاصلاح الزراعى وما سمى بالغاء الحراسات وما زعم عن اطلاق الحريات وتحطيم الأغلال والسلاسل ٠

« ثم جرت محاولات الاتجاه نحو تصفية القطاع العام وفى المجالات الثقافية خاصة الى حد الغاء وزارة الثقافة ذاتها بحجة تحرير المثقفين من الخضوع لسيطرة الدولة ٠ وتم اقرار سياسة الانفتاح الاستهلاكى والاقلاع عن الصناعة والتحول نحو الزراعة ، الأمر الذى أدى فى سنوات معدودة

الى ظهور طوائف وفئات طفيلية جديدة لا حاجة بها الى الثورة ومنجزاتها الاجتماعية بل ولا حاجة بها اطلاقا الى أدنى المقومات الثقافية . وقد أدى ذلك الى القضاء على ما تبقى من امتدادات ثقافية مما ترك الحياة الثقافية في حالة ادقاع وأفرغها من مضمونها الاجتماعي والفكري ودلالتها الحضارية لتتحول على يد المختارين من الأصفياء الى خدمة مصالح الجماعات الطفيلية الجديدة وتسليتها ، وتغطية الساحة الثقافية بكافة العناصر الانتهازية التي يمكن كسبها لمعاداة الحرية والتقدم بالمراكز والوظائف والمنح والعطايا والهبات والجوائز بل والنياشين . وهكذا دمرت ركائز الحركة الثقافية التي أنبتت ثم واكبت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . وأصبح لا سبيل الى احياء الثقافة وازدهار الحياة الثقافية الا بحركة ثقافية جديدة تستمد أصولها من ثقافة الثورة الخابية لمتابعة التطور بمستقبلنا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفي ظل ظروف متغيرة تماما عما كانت عليه بالأمس » .

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة التي يقدمها نعمان عاشور لوضعنا الثقافي العام في عقد السبعينيات ، فان الأمل الوطيد في انبعاثة ثقافية كبرى لا يزال موجودا ، والدليل على ذلك أن رفاعة رافع الطهطاوى أثبت منذ ما يزيد على قرن ونصف أن أرضنا لديها مناعة مدهشة ضد الجدب الفكرى والثقافي مهما طالت عهود الظلم والظلام . فقد رزحت مصر تحت وطأة الحكم العثماني الغاشم حوالى أربعة قرون متصلة كانت كفيلة بقتل أية تطلعات فكرية أو طمس أية اشعاعات حضارية . ومع ذلك انطلق رفاعة رافع الطهطاوى من ظلمات الحكم العثماني الى نور الحضارة الحديثة كي يستوعبها دون حساسيات أو عقد . لم ينبهر بها بحيث تعمى بصره وفي الوقت نفسه لم يغمض عينيه لرفضه اياها . وكان اعجاب نعمان عاشور بالطهطاوى عميقا شاملا بحيث لم يقتصر على الاستلهام الفكرى لريادته ، بل تعداه الى مجال التأليف الدرامي بحيث نشر في عام ١٩٧٤ مسرحية « رفاعة الطهطاوى » أو « بشير التقدم » أى في منتصف عقد السبعينيات على سبيل تقديم عمل درامي يجسد بطله تطلعات وأشواقا ثقافية مضادة تماما للتخلف الثقافي الذى أصابنا في هذا العقد . يقول نعمان عاشور :

« لا أبالغ اذا قلت ان انتاجنا الثقافي المعاصر يرجع في أصله ويرتد في كافة منابته الى البدايات التي خطها رفاعة الطهطاوى بكتاباته وترجماته وآرائه وأفكاره وجهوده العلمية ومواقفه النضالية ، فطبع منطلق المسيرة لثقافتنا المصرية المعاصرة في كافة جوانبها . ورفاعة الطهطاوى وهو الصورة البارزة الحية للمثقف المصرى الأصيل الذى أوجدته ظروف عصره

فى مفترق العديد من الطرق ، والذى استطاع بفضل وطنيته الخالصة وشخصيته الصلبة أن يشق للثقافة المصرية أسلم وأصح وأقوم المسالك . وأن يجعل من هذه الثقافة مقوما حضاريا صحيحا وأكيدا لتأسيس ودعم قوائم بناء الحياة المصرية الجديدة التى انبعثت مع انبثاق القومية المصرية الوليدة على بداية القرن التاسع عشر » .

ولذلك لم يكن رفاعة ـ فى نظر نعمان عاشور ـ مجرد قنطرة انتقلت عبرها حضارة الغرب وفكره الى مصر والعالم العربى ، فقد كان أصدق وأسطع مثال له دلالته فى الكشف عن المؤرقات الثقافية التى لا تزال تترسب فى باطن البيئة كنقيض مباشر لدعواه الصارخة الى الحرية والتقدم . فاذا كان الطهطاوى قد قام بهذه الريادة الثقافية فى أعقاب حوالى أربعة قرون من الجهل والظلم والتخلف ، فهل من الصعب أن نتتبع خطاه فى الربع الأخير من القرن العشرين بعد مجرد عقد واحد من التخلف الثقافى والضمور الفكرى ؟!

● د . فؤاد زكريا

● د · فؤاد زكريا

الدكتور فؤاد زكريا من مفكرينا الكبار الذين يتأملون الأمور بنظرة عقلية وبمنهج نقدى · ان هاتين السمتين هما اللتان تميزان طريقته فى التفكير وأسلوبه فى النظر الى الأمور · وهو يتمنى فى الوقت نفسه أن يتحلى أكبر عدد ممكن من المثقفين بهاتين السمتين حتى لا يدخلوا فى دوائر مفرغة وطرق مسدودة ومتاهات جانبية من الجدل العقيم والسفسطة الفارغة ·

أما السمة الأولى ، وهى النظرة العقلية ـ أو العقلانية بمعنى أدق ـ فلا يعنى بها الدكتور فؤاد زكريا السير وراء ذلك العقل الجاف ، المتعالى عن أمور الحياة ومشكلات الناس الواقعية ، ذلك النوع من العقل الذى دأب الفلاسفة على تمجيده عصورا طويلة ، والذى ازدهرت فى ظله مذاهب فكرية شاملة كان معظمها يتطلع الى عالم الانسان بترفع وشموخ · كذلك لا يعنى فؤاد زكريا ذلك العقل الذى يدعى الثبات ويتهم كل شىء عداه بالتغير والزوال والفناء ، أو ذلك العقل الذى يزدرى المشاعر والأحاسيس الانسانية ويتجاهل الانفعالات والعواطف على زعم أنها ترتبط بالتقلب والتحول وعدم الاستقرار · وانما يعنى العقل الذى ينسجم فى الحياة ويسخر نفسه لخدمتها ويحقق ذاته على أكمل نحو بالتغلغل فى مشكلاتها ، العقل الذى يعترف بالتطور والنمو فى كل ظواهر الكون والحياة والمجتمع ، ويكرس جهده من أجل كشف مسارات هذا التطور والنمو ، والاهتداء الى دروبه ومسالكه المعقدة ، جامعا بين الثبات والتغير فى مركب يعلو على كل تناقض · كذلك يعنى فؤاد زكريا العقل الذى لا يحول بين الانسان وبين الاستغراق فى حب الفن والانفعال الخصب بالحياة ، لأن أحاسيس

الفن وانفعالات الحياة هى فى العقل السليم جزء لا يتجزأ من واقع البشر ، وعنصر جوهرى تكتمل به مقومات الانسانية ، ومن المحال أن يكتفى العقل بانسان مبتور أو بانسانية احادية الجانب ·

اما السمة الثانية ، وهى المنهج النقدى ، فانها ترتبط بالسمة الأولى أوثق الارتباط ، بل تنبثق عنها انبثاقا عضويا · فالعقل ــ بالمعنى الذى حدده فؤاد زكريا ــ لابد ان يكون ناقدا · ذلك أن العقل الذى يتأمل مشكلات الفكر وأوضاع المجتمع والناس بنظرة غير نقدية انما يتنكر لطبيعته ويأبى أن يمارس وظيفته ، ذلك لأن سمة العقل المميزة هى قدرته على تخطى ما هو شائع وتجاوز الأمر الواقع من خلال مقارنته بصورة يرسمها الفكر المتطلع الى أوسع الآفاق · ولو لم تكن لدى العقل القدرة على التخطى والتجاوز لكان ملكة عاطلة ، لا تمتاز بشىء عن تلك الحواس التى يقتصر ادراكها على ما يقع فى نطاق محيطها المباشر · وفؤاد زكريا ــ لا يستطيع تصور التفكير الا مصحوبا بالنقد ، ويؤمن بأن النقد هو أعلى مظاهر تحقيق الفكر لذاته ·

ومن هنا كانت كل أفكار فؤاد زكريا ودراساته نقدية فى صميمها ، وهى فى نقدها هذا انما تعتبر عن وجهة نظره الخاصة الى المشكلات التى يعالجها ، وان كان يأمل أن تتجاوز وجهة النظر هذه النطاق الفردى لصاحبها ، اذ أنه يرجو أن يكون فى الوقت ذاته قادرا على اقناع الآخرين ، ما داموا بدورهم يحتكمون الى العقل · لكنه لا يتوقع ولا يتمنى أن يوافقه الجميع على ما يقول ، فهو يتمنى حقا أن يناقشه الموافقون والرافضون على نفس المستوى العقلى والنقدى الذى سجل به أفكاره ، ذلك لأن أسعد لحظات المفكر هى تلك التى يحس فيها بأن ما كتبه قد حفز الآخرين الى التفكير معه ، وأتعس لحظاته هى تلك التى يشعر فيها بأن آراءه لم تثر فى الناس الا استجابات انفعالية متسرعة لا ترتكز على أساس من التعمق والتحليل ·

ان حياة الانسان ذاتها أصبحت تنظم على أساس يستحيل تصوره بدون العقل ، سواء كنا نعنى حياة الانسان الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية ، أو حتى حياته اليومية ، ولذلك لا يحق لأحد ــ وخاصة فى عالمنا العربى ــ أن يتحدث عن أزمة العقل · فهو اصطلاح لا وجود له فى حياتنا · واذا كان الكلام عن هذه الأزمة غير ممكن ، فانه فى الوقت نفسه ، غير واجب · فقد نبه الدكتور فؤاد زكريا على صفحات مجلة « الفكر المعاصر » عدد سبتمبر ١٩٧١ الى أن مثل هذا الكلام موجه الى مجتمع يحتاج الى من يحثه ، فى كل لحظة ، على الثقة بالعقل والاعتماد عليه فى

فكره وفى فعله · وحتى لو كانت أزمة العقل ، من الوجهة الموضوعية ، حقيقة واقعة فى المجتمعات الغربية ، فمن الواجب أن يكون ما نعرضه على مجتمعنا الشرقى حافزا له على السير فى طريق العقل الذى هو أحوج ما يكون اليه ، لا أن يكون مشجعا للعناصر الضيقة الأفق فيه على الدعوة الى الابتعاد عنه والاستعاضة عنه ببدائل أخرى طالما اقترحت علينا ، وطالما جربناها ولم نفز منها الا بالتخلف ·

لكن أحدا لم يستمع الى تحذير فؤاد زكريا فى مطلع السبعينيات ، وكانت النتيجة أن تجلت مظاهر التخلف الفكرى والحضارى بصورة لم يسبق لها مثيل فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ ، وذلك نتيجة لغياب الدور الحيوى الذى كان من الممكن أن يلعبه العقل فى حياتنا على كل المستويات· واذا كان موقف الفكر العالمى من العقل قد طرأ عليه ، منذ مطلع القرن العشرين ، تغير أساسى يستحق أن يوصف بأنه أزمة ، وذلك اذا ما قورن بموقف الثقة من العقل الذى كان سائدا فى القرون السابقة ، فان الاشارة الصريحة الى أزمة العقل فى مجتمع كمجتمعنا ليست على الاطلاق دعوة الى الهروب من العقل أو تشجيع الاتجاهات المعادية له ، وانما هى جهد يبذل من أجل التنبيه الى الدور الحيوى الذى يمكن أن تلعبه فى حياتنا ملكة كدنا أن ننساها ، والى الثمن الباهظ الذى كلفنا اياه هذا النسيان ·

ويؤكد فؤاد زكريا بوضوح قاطع أن أزمة العقل فى مجتمعنا تعنى شيئا مختلفا كل الاختلاف عنها فى المجتمعات الغربية · والمقارنة بين مظاهر هذه الأزمة فى نوعى المجتمع هذين لابد أن تلقى ضوءا ساطعا على المشكلة بأكملها · ولو شئنا أن نلخص فى عبارة واحدة طبيعة الأزمة العقلية التى تمر بها المجتمعات الغربية ، ونحدد وجه الاختلاف الأساسى بينها وبين أزمة العقل فى مجتمعاتنا الشرقية ، لقلنا ان الأزمة عندهم هى أزمة ما بعد العقل ، على حين أننا لا زلنا نمر بأزمة ما قبل العقل ، انهم قد تجاوزوا نطاق التفكير العقلى التقليدى بعد أن تشبعوا بالعلم والمنطق والفلسفة وأصبحوا يتطلعون الى عقل يتجاوز نطاق العقل الذى ألفوه ، أما عندنا فلا زال العقل يعمل جاهدا من أجل استكشاف ذاته وتحقيق أبسط مطالبه الضرورية ·

ويضرب فؤاد زكريا لذلك مثلا واحدا : ففى نقد الفكر الغربى لفكرة السببية ، يرتكز هذا الفكر على التعقد الذى لا يسمح لنا باخضاع كل نتيجة لسبب واحد بعينه ، على النحو الذى كان سائدا فى ظل الفهم الميكانيكى التقليدى لفكرة السببية · ان العقل هنا ، بعد أن ظل يطبق فكرة السببية طويلا ، وبنجاح ، يكتشف من المجالات ما يدعوه الى تجاوزها ، فهو يبحث عما بعد السببية ، وما بعد الضرورة ، دون أن

يتخلى عن مبدأ السببية أو مبدأ الضرورة · وفى مقابل ذلك حارب العقل فى حضارتنا مبدأ السببية (فى أحوال معينة) دفاعا عن الفهم الغائى ، واللاهوتى ، للظواهر ، ومع ذلك ترتفع أصوات باحثينا فخورة بأن نقد الغزالى لفكرة السببية ، مثلا ، قد استبق نقد هيوم ، وربما استبق الاتجاهات المعاصرة ذاتها ، دون أن ينتبهوا الى أن الغزالى كان ينقد السببية كى يدعم الغائية ، على حين أن هيوم والمعاصرين ينقدون السببية كى يوسعوا من نطاق العقل العلمى ويضموا الى مملكته مجالات أرحب · ان الفرق هنا واضح بين أزمة العقل الناجمة عن رغبة العقل فى تجاوز ذاته ، وبين أزمته الناجمة عن هروب العقل من ذاته وعجزه عن تحقيق مطالبه وارتمائه فى أحضان القوى التى تحكم عليه بالقصور الأبدى ·

والباعث الى ظهور أزمة العقل الغربى ـ فى نظر فؤاد زكريا ـ هو الرغبة فى اعطاء العقل مزيدا من الحرية حتى يرفض القديم من جهة ويخلق الجديد من جهة أخرى · فالعقل يسعى الى أن تكون له حرية حتى ازاء مبادئه الأساسية وبديهياته المطلقة ، وازاء كل نوع من الالزام والضرورة العقلية ، وهو يحارب كل محاولة لرد الانسان الى مجرد جزء من الطبيعة ، ويهدف الى تأكيد طابع الحرية فيه بوصفه مقابلا للضرورة السارية على الطبيعة · وهو يود التحرر من كل ما هو مطلق ، أو تقليدى ، أو مألوف، حتى لو كان هذا المألوف هو الشكل الطبيعى للأشياء · وليس أدل على أن مطلب الحرية هو الذى خلق أزمة العقل ، وهو الذى يحل هذه الأزمة ، من أن طريقة الخروج من هذه الأزمة كانت فى معظم الأحيان وضع أنساق أرحب من الأنساق القديمة يستطيع العقل أن يتحرك خلالها بمزيد من الحرية ، بعد أن كاد يختنق داخل الأنساق القديمة الضيقة ·

وفى مقابل ذلك يمر العقل فى عالمنا العربى بأزمة ليس لها من سبب سوى الرغبة فى تبديد حرية العقل وتضييق الخناق عليه · فالعقل يعانى من اتجاهات تريد تعطيله أو الغاءه ، زاعمة أنها تفعل ذلك لحساب سلطة دينيـة تعرف كل شيء ، أو لحساب سلطة سياسية قادرة على أن تدبر للناس أمورهم وعلى أن تفكر بدلا منهم · وحين يستمر تعطيل العقل زمنا طويلا ، يعتاد الناس الغاء عقولهم ، ولا يجدون أية غرابة فى أن تطلب اليهم اليوم أن يتخذوا موقفا مناقضا لما كان يطلب اليهم بالأمس · وحين يقترن هذا الصدأ العقلى بعامل الخوف من التفكير الحر ، فان العقول تفقد القدرة على ممارسة فاعليتها حتى عندما تزول الأسباب التى تؤدى الى الخوف · ومجمل القول أن الفارق بين الأزمتين هو الفارق بين عقل يسعى دوما الى توسيع نطاق حريته ، وبالتالى احكام سيطرته على العالم ، وعقل

تكبله الأغلال ويشغله الكفاح من أجل تحقيق الحد الأدنى من مطالبه الضرورية ·

ويرى فؤاد زكريا أن مستوى المناقشات التي تدور في العالم العربي بصفة خاصة والمجتمعات الشرقية بصفة عامة حول مشكلة العقل كفيل بأن يكشف لنا عن نوع الأزمة التي نعانيها ، أزمة « ما قبل العقل » ، أو أزمة العقل الذي يكافح كي يخرج الى النور · فما زالت مشكلة التوفيق بين العقل والايمان تشغلنا وتستغرق من جهودنا الفكرية قدرا غير قليل · وما زلنا نجد علماء يحاولون أن يثبتوا أن أحدث الكشوف العلمية لها أساس في النصوص الدينيــة ، ورجال دين يسعون الى أنهم مستنيرون لأنهم يسمحون للعقل بالتحرك في الحدود التي يسمح بها الايمان فقط ·

ان تفضـيل الايمان على العقل معنـاه تفضـيل الخصـوصية على العمومية · فالايمان خصوصي بطبيعته ، والعقيدة بطبيعتها تسرى على فئة محددة من الناس ، هي فئة المؤمنين ، وتصطدم بعقائد أخرى تؤمن بها فئات أخرى ايمانا مماثلا في قوته وحماسته · ولا جدال في أن لدى كل عقيدة ميلا الى أن تضفى على نفسها طابع العمومية والشمول والوجدانية، غير أنها لابد أن تجد في مواجهتها عقائد أخرى تدعى لنفسها هذا الطابع ذاته . ومن هنا لا يكون ثمة مفر من أن يظل الايمان خصوصيا ، مهما كانت قوة سعيه الى العمومية · أما العقل فهو القوة الوحيدة التي لا يملك البشر غيرها حكما مشتركا بينهم · انه عام وشامل بحكم ماهيته ذاتها · ومن هنا كان تغليب الايمان على العقل يعنى ضمنا انطواء ثقافة معينة على نفسها وتجاهلها للثقافات الأخرى ولحقيقة الاتصال التاريخي والاجتماعي بين البشر · وبطبيعة الحال لم تكن لمشكلة الاتصال هذه أهمية كبيرة في العصور الوسطى ، حين لم تكن انجازات العقل من الضخامة بحيث تستدعى مشاركة الجميع في الجهد العقلي وفي الانتفاع بثمار هذه الانجازات · أما في عصرنا الحاضر ، فان الحد الفاصل بين الحياة الخصبة والحياة العقيمة يتوقف على الاختيار بين التقوقع وبين المشاركة في ركب الحضارة العالمية· فعناصر النضال المشترك بين فئات هائلة من البشر أصبحت أقوى من ان يمكن تجاهلها بتأكيد خصـوصية العقيدة في مقـابل عمومية العقل · والأهداف العليا التي يسعى اليها الانسان المعاصر ، كتحقيق العـدالة الاجتماعية والسيطرة على الطبيعة وغزو آفاق جديدة في الكون ، تحتاج الى استخدام المعايير العقلية المشتركة ، لا الى انطواء الحضارة على ذاتها بتغليب معاييرها الايمانية الخاصة ·

وقد يجد البعض منا فيما قاله الدكتور فؤاد زكريا عن استمرار

مشكلة التقابل بين العقل والايمان قدرا من المبالغة ، ويستشهدون على ذلك بأن الاتجاه السائد الآن هو التوفيق بين العقل والايمان ، لا تأكيد التقابل بينهما . ولكن الاهتمام بالتوفيق بين أى طرفين يعكس تأكيدا ضمنيا لتقابلهما . ومن المؤكد أننا لم نكن لنبذل كل هذا الجهد فى التوفيق لو لم نكن نؤمن بأن كلا من الطرفين يتجه الى أن يكون مضادا للآخر . ولا يقتصر فؤاد زكريا على التعميم النظرى بل يلجأ الى التدليل العملى لاثبات وجهة نظره فيقول :

« ان القاء نظرة سريعة عابرة الى المشاكل التى تشغلنا يكفى لاقناع كل متشكك بأن مشكلة العقل والايمان ، التى تخلص منها الفكر الأوروبى منذ زمن بعيد ، ما زالت تشكل جوهر أزمة العقل فى مجتمعاتنا الشرقية . فالمجتمع يلمس بنفسه ، وبصورة واقعية تغنى عن كل تبرير ، أضرار الاباحة غير المقيدة لتعدد الزوجات وللطلاق ، ويدرك أن حقوق المرأة الأساسية ، وكذلك حقوق الطفل ، تحتاج الى قدر كبير من الدعم والحماية ، ويعرف الأخطار الفعلية ، التى تشهد بها تجربته اليومية ، لزيادة النسل ، ولكنه لا يزال يتخذ من هذه المشكلات كلها موقفا سلبيا يرجع فى حقيقته الى تغليبه لوجهة نظر الايمان على وجهة نظر العقل فى هذه الأمور . ولابد أن يؤدى مثل هذا الموقف الى توتر حاد ، ربما وصل الى حد التمزق الصامت ، حين يجد الفرد العادى أن تجربته الفعلية (وبالتالى أحكام العقل) تثبت له أن نظام تعدد الزوجات ، فى صورته الراهنة ، يجلب أضرارا اجتماعية لا حصر لها ، ويجد من جهة أخرى أن حكم الشرع (أى حكم النص الدينى) صريح فى هذا الصدد ، كما يقول له الفقهاء » .

وقد يعترض معترض على رأى فؤاد زكريا ويقول بأن الفئات التى تمثل هذه الأمور فى نظرها مشكلات جدية لاتمثل المجتمع كله ، وبأن هناك الى جانب هؤلاء من يكرسون حياتهم للعمل العلمى المرتكز على مبادىء العقل وحده . ولكن الواقع أن وجود هذه الفئة ذاتها يزيد من حدة المشكلة ولا يلغيها ، اذ أنه يمثل تجسيدا حيا للتوتر العام بين العقل والايمان فى المجتمع الواحد ، هذا فضلا عن التوتر الخاص بينهما فى نفوس كثير فمن كرسوا حياتهم كلها للبحث العلمى الصرف . ونتيجة ذلك كله هى أننا نقيم نظما تعليمية كاملة ، تقدم خلاصة العلم الحديث (فى حدود الامكانيات المتاحة بالطبع) فوق أرضية من العقلية الغيبية الأسطورية تتنافس مع تعاليم العلم تنافسا صارخا حينا ، وتنافسا صامتا رهيبا فى معظم الأحيان . وفى هذا التنافس الذى لا يزال العقل فيه يحتل مركزا

ضعيفا تكمن أخطر مظاهر أزمة العقل في مجتمعنا · من هنا كانت مناداة فؤاد زكريا :

« فلنعرف اذن حدود أزمتنا العقلية ، ولنعمل على الخروج منها بمنح العقل حقوقه كاملة ، بدلا من أن نقفز ـ دون تبصر ـ من مرحلة التفكير الأسطورى الى مرحلة ما بعد العقل ، متخطين المرحلة الوسطى ، مرحلة ممارسة التفكير العقلانى ، التى هى أملنا الوحيد فى أن نصبح مجتمعا مسايرا للعصر » ·

وهذا يستدعي منا أن ننظر الى عالمنا المعاصر نظرة موضوعية تحليلية دون افتراضات مسبقة أو انحيازات ضيقة · ذلك أن فى العالم اليوم حضارة متفوقة تفوقا لا شك فيه ، هى الحضارة الغربية ، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة · وفيه أيضا حضارات لم تبلغ هذا القدر من التفوق ، ولكن كلا منها يعتز بماض مجيد ويفخر بتراث أسهم بنصيب هام فى بلوغ المدنية مستواها الحالى · ولما كانت الحضارة الغربية متفوقة ولكنها حديثة العهد نسبيا ، والحضارات الأخرى ، مع عدم تفوقها الحالى ، لها جذور ممتدة الى أقدم العهود ، فقد ترتب على ذلك انقسام بين المثقفين من أبناء الحضارات غير الغربية حول الهدف الذى ينبغى أن تتجه اليه ثقافتهم : أهو مسايرة الحضارة الغربية الجديدة ، أم احياء الحضارة القومية الأصيلة ؟ ·

ولعل احتدام الاختلاف بين هذين الطرفين يرجع الى أن الحجج التى يستند اليها كل منهما قوية مقنعة لدرجة تبدو فيها استحالة التوفيق بينهما · ذلك لأن أنصار التمسك بالتراث يستندون فى دعوتهم الى أساس متين ، هو ضرورة المحافظة على وحدة الأمة · عن طريق التعلق بماضيها والاعتزاز به ، وهو هدف لا يستطيع أحد أن ينكر أهميته ، حتى من كان له رأى مخالف فى الوسائل المؤدية اليه · ومن جهة أخرى فان أنصار مسايرة الحضارة الغربية الحديثة يرتكزون بدورهم على حجة لا مفر من الاعتراف بقوتها : هى عظمة حضارة الغرب فى القرون الأخيرة وتفوقها الساحق فى جميع المجالات ، من علمية وفكرية وفنية واجتماعية · وهم يؤكدون أن من العبث اتخاذ موقف العناد فى هذا الصدد ، اذ أن الحضارة المتقدمة هى التى تسود دائما ، ومن المحال أن تستطيع أمة أن توصد أبوابها فى وجه التفوق الحضارى الذى يأتيها من مصدر خارجى ، لأن هذا التفوق سيفرض نفسه سواء شاءت هذه الأمة أم أبت ، وكل ما سنجنيه من العناد هو استمرارها فى التخلف واستمرار الآخرين فى السبق ·

هذه الأزمة تواجه المثقفين في جميع أرجاء العالم غير الغربي ، وضمنه بطبيعة الحال العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط بوجه عام . لكن الدكتور فؤاد زكريا يعتقد أن لهذه المنطقة الأخيرة على وجه التحديد وضعا خاصا ، ينبغي أن يخفف بل ويزيل الخلاف بين وجهتي النظر المتعارضتين . فقد كان الاتصال وثيقا الى أبعد حد بين حضارات الشرق - ومنها الحضارة العربية - وبين الحضارة الغربية ، على مر العصور . واذا كان ادراك هذه الرابطة القوية بين الشرق الأوسط وبين جذور الحضارة الغربية حقيقة لا يصعب اثباتها ، فان الكثيرين يعجزون عن استخلاص النتيجة الضرورية التي تترتب على هذه الحقيقة : وهي أن من الواجب ألا يجد المثقفون في هذه المنطقة من العالم - على وجه التخصيص - حرجا في مسايرتهم للحضارة الغربية لأن هذه الحضارة ذاتها لم تتحرج في الماضي من استخلاص دعاماتها الأساسية من حضارات الشرق الأوسط . وبعبارة أخرى فان العلاقة بين منطقة الشرق الأوسط بالذات ، وبين الغرب ، أعقد من أن تكون مجرد ازدواج حضاري ، وانما هي علاقة تداخل وتشابك وثيق ، لا ينبغي معه أن يقوم بين المثقفين مثل هذا الخلاف الحاد حول الرجوع الى التراث أو الاقتداء بالغرب . ويلخص فؤاد زكريا النمط الذي جرى عليه الاتصال بين الشرق الأوسط وبين الغرب ، من الوجهة الحضارية فيقول بأنه :

« أخذ وعطاء متناوبان ومتكرران : أي أن الشرق الأوسط بدأ باعطاء الغرب مقومات أساسية لحضارته ، ثم أخذ منه عناصر دفعت بثقافته الى الأمام ، ثم عاد فأعطاه عناصر أخرى ، وهكذا على التوالي . وعندما يكون الاتصال بين حضارتين على هذا النمط ، فمن الصعب أن نتحدث في هذه الحالة عن حضارة غربية خالصة وحضارة شرقية خالصة ، لأن كلتا الحضارتين تضم في تكوينها الداخلي عناصر أساسية من الحضارة الأخرى » .

هذا النمط المتكرر من الاتصال الحضاري بين الشرق الأوسط وبين الغرب ، بما فيه من أخذ وعطاء متعاقبين ، يثبت لنا أن للعلاقة بين هذين الاقليمين طابعا خاصا فريدا يندر أن نجد له نظيرا في حالات الاتصال الحضاري الأخرى ذلك لأن هناك أدلة لا شك فيها على أن ما وصل اليه الغرب في مرحلته الراهنة من تقدم ، انما كان نتيجة لتضافر حضارات الشرق الأوسط معه في العصور القديمة والوسطى وأوائل العصور الحديثة . ففي مراحل متعددة كان الشرق يقدم الى الغرب المادة الخام لحضارته ، فيصوغها في أشكال محددة منظمة : قدم اليه معلومات عملية تطبيقية مستمدة من خبرته الحرفية والزراعية القديمة ، فصاغها الغرب

فى اليونان على شكل نظريات هندسية ورياضية أيام فيثاغورس واقليدس . وقدم اليه مبادىء روحية فى العقيدة المسيحية جعلها الغرب لاهوتا منظما فى العصور الوسطى ، وحورها تبعا لمقتضيات حياته الخاصة فى حركات الاصلاح الدينى فى عصر النهضة . وقدم اليه ترجمات للفلسفة اليونانية وشروحا لها ، ومناهج تجريبية للبحث العلمى الذى ازدهر فى العصر الذهبى للحضارة الاسلامية ، فاتخذ الغرب من هذا كله أساسا لنهضة علمية وفكرية ضخمة تتسع آفاقها حتى اليوم على نحو متزايد . ولذلك عندما يأخذ اليوم المثقفون العرب عن الغرب فهم انما يهتدون من جديد الى كثير من العناصر التى سبق لبلادهم أن قدمتها للغرب وان تكن مصوغة فى شكل جديد . ويستشهد فؤاد زكريا بكل من طه حسين وحسين فوزى ليدلل على أن بعض المفكرين الذين هم من أشد الناس تحمسا للحضارة الغربية ، هم فى الوقت ذاته من أقدر الناس على تعمق روح أمتهم . فكيف اجتمعت لهذين المفكرين صفتا الاعجاب المفرط بالغرب ، والاخلاص الكامل للثقافة القومية ؟ يجيب فؤاد زكريا بأن هذا لم يكن ليحدث لولا أن هناك جذورا مشتركة بين الحضارتين .

ومن العبث أن نعزى أنفسنا بأن تقدم الغرب تكنولوجى فحسب ، وبأننا نستطيع أن نتفوق عليه فى ميدان الثقافة . ذلك لأن التكنولوجيا تخلق لنفسها ثقافتها الخاصة ، وهى ثقافة مازلنا بعيدين عنها بعدا كبيرا . ومن الخطأ الفادح أن نتصور أن النهضة التكنولوجية لا ترتبط بنهضة ثقافية ، بل ان كل الظواهر تدل على أن النجاح التكنولوجى قد أسدى الى الثقافة خدمات هائلة ، وأن هناك ازدهارا ثقافيا ، وتنوعا وتعددا وتخصصا وتعمقا ، لا يقل فى أهميته عما نجده ، مثلا ، فى تكنولوجيا الفضاء . أما العزاء الآخر الذى نقدمه الى أنفسنا بين الحين والحين ، وهو أن الغرب سائر الى الانهيار لتحل حضارات أخرى محله ، فهو عزاء واهم اذا صدر عن أناس لم يبذلوا أدنى جهد لمغالبة الغرب والتفوق عليه ، ولن يكون له ما يبرره الا عند الشعوب التى أثبتت بالفعل قدرتها على الكفاح والصمود والبناء فى ميادين التنظيم الاجتماعى كما فى ميادين التقدم العلمى والتكنولوجى والثقافى . هنا يبدى فؤاد زكريا قلقه على مستقبل العالم العربى فيقول :

« انه لمما يبعث على القلق حقا أن ترى مدى اتساع الهوة بيننا وبين الثقافات العالمية المتقدمة ثم نكتفى بالقول اننا أخذنا ما فيه الكفاية ، وأن دور النقل انتهى وحان وقت اتخاذ المواقف المستقلة . فبأى مقياس يقال أننا نقلنا عن ثقافة الغرب ما فيه الكفاية ؟ هل نحن حقا قد استوعبنا

هذه الثقافة حتى نستطيع أن نقف منها موقف الند للنـد ؟ ان الاجابة بالايجاب ترضى كبرياءنا وتشعرنا بالاطمئنان ، ولـكن هـــذا لن يكون الا رضاء أجوف واطمئنانا زائفا ٠ وأن نظرة واحدة الى الأجيال الجديدة من دارسينا لتقنعنا بأن قدرة هذه الأجيال على استيعاب الثقافات العالمية الجادة تتضاءل دواما (وذلك لأســـباب قد يكون معظمهـــا خارجا عن ارادتها) ٠ ويزداد كل يوم الاتجاه الى الاكتفـــاء من هذه الثقـــافات بالقشور ، والاعتماد على ترجمات ركيكة معيبة غير علمية ، تعد هي الزاد الأكبر لدى نسبة كبيرة مما نعتمـــد عليهم فى النهوض بثقافتنـــا فى المستقبل ٠ ومازالت أمهات الكتب الثقافية العالمية غير معروفة لدى جماهير القراء لأننا لم ننقلها بعد الى لغتنا نقلا أمينا ولم نعمل على وضعها فى متناول أيدى طالبى الثقافة بشروط ميسرة ٠ فكيف يقال بعد ذلك أننـا نقلنا وشبعنا ، وحان وقت الهضم والاستيعاب والتمثل والبناء الجديد ؟ ٠

« ان رأيا كهذا يلقى استجابة وترحيبا بمجرد أن يصدر ، ولكن هذه الاستجابة الفورية يمكن أن تكون عائقا فى وجه الادراك الصـحيح للحقائق ، وهى أننا لم نصل بعد الى مرحلة الاستيعاب الكامل للثقافة العالمية ، وأن هناك أوضاعا قد تؤدى الى زيادة الاقلال من قدرتنا على فهم هذه الثقافة ٠ فاذا اقترن هذا العجز المتزايد بشعور بالرضا عن الذات ، كانت حصيلة الجمع بينهما وضعا خطيرا بحق ، نكون فيه بعيدين على نحو متزايد عن المستوى العالمى ، ونتصور أننا وصلنا اليه وتجاوزناه ٠ ومن هنا فان الواجب الأكبر الذى يقع على عاتق المثقفين فى بلادنا فى الوقت الراهن ليس ، فى رأيى ، أن يبعثوا فى الناس أحاسيس الرضا عن الذات ، بل أن يثيروا فيهم القلق والرغبة فى عبـــور الهوة بينهم وبين المجتمعات المتقدمة ثقافيا وعلميا وتكنولوجيا ٠ وانى لأعتقد اعتقادا راسخا بأن أول خطوة فى سبيل عبور هذه الهوة ، وتضييق شقة التخلف ، أن نكون فى البداية على وعى بمدى اتساعها ، وأن نعمـــل جادين على فهم أسباب تقدم الآخرين لكى نتمكن من اللحاق بهم ثم التفوق عليهم » ٠

يقول فؤاد زكريا هذا الكلام لأن الكثير من مفكرينا يعتقدون أن الوسيلة الوحيدة لاثراء تجربتنا ، مع تخليصـــــها من تأثير الثقافات الوافدة ، هى اتخاذ التراث الماضى بديلا عن المؤثرات الحضارية الدخيلة ، ويرون أن هذه الوسيلة هى الكفيلة بالقضاء على الاغتراب الثقافى الناشىء عن اندماجنا فى حضارة غريبة عنا ٠ هنا يطرح فؤاد زكريا سؤالا ، لا يهدف منه الى التعبير عن رأيه الخاص ، بقدر ما يهدف الى اثارة مشكلة قد تجد من يبحثها فيما بعد بمزيد من التفصيل :

« أليس من المحتمل أن يكون هناك اغتراب عن الماضي ، يعادل الاغتراب عن العنصر الوافد الدخيل أو يزيد عليه ؟ وبعبارة أخرى هل يشعر المرء نحو ماضيه ، اذا كان ذلك الماضي بعيدا ، واذا كانت ظروفه قد تغيرت على نحو جذري ، بمزيد من الألفة بالقياس الى ما يأتي اليه من مؤثرات ، هي حتما خارجية ، ولكنها تعيش معه في عصر واحد ، وفي ظروف متقاربة ؟ أليس بعد الشقة في الماضي ، بدوره ، عاملا من عوامل الاغتراب ؟ وهل نستطيع أن نطمئن ، حين ننادي ببعث حضارة ماضية تفصلنا عنها فترات زمانية واختلافات هائلة ، الى أننا قد تخلصنا حقا من الاغتراب عن أنفسنا ؟ .

« ان عصرنا الحاضر يسير في تطور يؤدي ، على نحو متزايد ، الى اختصار المسافات المكانية وتضييق شقة الاختلافات الموضعية ، ويؤدي من ناحية أخرى الى تأكيد الفوارق الزمنية ومضاعفة تأثيرها . وفي كلتا الحالتين يظهر التأثير الحاسم للتفاعل بين التكنولوجيا والثقافة . فالتكنولوجيا كما هو معروف ، تتجه بفضل عدد كبير من المخترعات الحديثة الى صبغ العالم بصبغة ثقافية تزداد تقاربا وتشابها ، وبذلك تلغي بالتدريج تأثير الفوارق بين الحضارات . أو تتيح وضع الحضارات المختلفة في اطار معاصر موحد . هذه حقيقة معروفة ، طالما نبه اليها الكتاب . ولكن الذي لم يتنبه اليه من كتبوا في هذا الموضوع ، هو أن نفس العملية التي تؤدي الى ازالة الحواجز المكانية ، وتقريب الشقة بين الثقافات ، تؤدي من ناحية أخرى الى زيادة الاحساس بتأثير الفوارق الزمنية . ذلك لأن التكنولوجيا الحديثة بدورها هي التي جعلت الانسانية تمر خلال عشر سنوات من عصرنا الحالي بتجارب تزيد على ما كانت تمر به في العصور السابقة خلال قرن كامل ، وهي التي ستجعل معدل التغير هذا يزداد سرعة على الدوام . والمعنى الواضح لازدياد سرعة معدل التغيير ، في فترات زمنية تزداد قصرا على الدوام ، هو أن الشقة بين الماضي والحاضر تزداد اتساعا بلا انقطاع . أي أن الانسان المعاصر يشعر بأنه أبعد عن انسان القرن الماضي الى حد يزيد كثيرا عن احساس انسان القرن الثاني عشر بابتعاده عن انسان القرن الثاني مثلا . وهكذا فان المكان ، والطابع المحلي ، يتجه الى التقارب والتوحد ، على حين أن الفواصل الزمنية بين الحاضر والماضي تزداد حدة على الدوام . واذا لم نكن على ثقة من ذلك ، فان حركات الشباب ، وشعور الأجيال الجديدة بأنها عاجزة عن الالتقاء على أرض مشتركة مع الأجيال الأقدم التي لا تزال تعيش معها في عصر واحد ، انما هو الدليل الملموس الصارخ على ازدياد حدة الفوارق الزمنية في عصرنا الحاضر على نحو لم يكن له نظير في أي عصر سابق » .

والتعصب الأعمى لتراثنا يعد من أبشع مظاهر تخلفنا . فالشخص المتعصب هو ، قبل كل شيء ، ذلك الذى يحتقر فئة معينة أو يتحامل عليها . صحيح أن هذا التحامل ينطوى ضمنا على اعتقاد بأنه أرفع من تلك الفئة التى يتحامل عليها ، أو أنه برىء من نقائصها ، ولكن هـذا لا يعدو أن يكون اعتقادا مضمرا فحسب . وفضلا عن ذلك فكثيرا ما يكون سبب التحامل على الآخرين هو نوع من الحســد الخفى الدفين لهم ، أو الاعتقاد بأنهم يتمتعون بمزايا يعجز المرء عن بلوغها . وعلى أية حال فان كراهية الآخرين هى الصفة الغالبة على المتعصـــب ، أما استعلاؤه بنفسه فهو صفة ثانوية ، على الرغم من كونها نتيجة لازمة ، فى معظم الأحيان ، عن كراهية الآخرين . ولذلك يتجه المتعصب بتفكيره أساسا الى الآخرين فى حقد أو حسد أو احتقار ، ويميل الى الحاق الضرر بالغير أكثر مما يميل الى تأكيد مزاياه الشخصية أو كسب منفعة لنفسه . فالتعصب يختلف تماما عن تأكيد المرء لذاته ، أو اعتقاده بسمو الفئة التى ينتمى اليهـــا .

والتعصب لاتجاه معين ، أو العجز عن الالتقاء على أرض مشـــتركة بين الجيل القديم والجيل الجديد ، أدى - فى نظر فؤاد زكريا - الى اصرار جيل الكبار فى بلادنا على اتهام الشباب بالتقصير فى التزود بالعـــلم والثقافة ، وربما كان قدر كبير من هذا الاتهام راجعا الى رغبة الكبار فى تمجيد جيلهم والاشادة بفضله ، لا بدافع الاستعلاء فحسب ، بل بدافع التشبث بالماضى الذى يعنى بالنسبة اليهم أكثر مما يعنى الحاضر ، ورغبة فى الدفاع عن النفس والتمسك بأهداب الزمن الذى ينقضى رغما عنهم .

يقول فؤاد زكريا هذا الكلام لأنه من المؤمنين بأن الشباب فى كل بلد هو على ما يريده الكبار أن يكون . فهم أبناء جيل الكبار ، والآباء - فى معظم الأحيان - هم المسئولون عما يلحق بأبنائهم ، وكما أن من الأمور المثيرة للسخرية أن يعيب الأب على طفله الصغير ، الذى لم تتح له بعد فرصة الاندماج فى أى عالم سوى عالم أسرته المباشر ، تفوهه بألفاظ غير لائقة ، أو اكتساب عادات سلوكية قبيحة ، لأن هذه العادات وتلك الألفاظ لم تستمد ، فى واقع الأمر ، الا من الآباء أنفسهم ، فكذلك يكون من قبيل الظلم والعجز عن فهم الأمور أن يعيب الجيل الأقدم على الجيل الأحدث أمورا لا يمكن أن يكون الجيل الأحدث قد اختارها لنفسه ، بل لابد أن تلقاها على هذا النحو ممن فى يدهم مقاليد أموره . ولذلك يحتم فؤاد زكريا علينا - نحن الكبار - أن نسائل أنفسنا قبل أن نصدر أى حكم على موقف الشباب من العلم ومن الثقافة الجادة :

« هل وفرنا لأبنائنا الجو الذى يكفل اقبالهم على المعرفة وسعيهم الى توسيع آفاق عقولهم ؟ هل أنشأنا لهم المدارس الكافية ؟ هل قدمنا اليهم برامج تعليمية تساعد على اثارة حب العلم فى النفوس ؟ هل عهدنا بهذه البرامج الى معلمين أكفاء يفهمون التعليم على أنه زيادة قدرة العقول على فهم الأمور ، لا حشوها بمعلومات فجة ؟ هل زودنا مدارسهم بمكتبات كافية ، ونمينا فيهم حب القراءة والاطلاع ؟ هل استطعنا أن نفصل بين الرغبة فى التعلم والرغبة فى التخلص من ذلك الشبح المخيف ، شبح الامتحان ؟ هل تقوم وسائل الاعلام لدينا بدورها فى نشر الثقافة وتشجيع الأجيال الجديدة على أخذ أمور حياتها مأخذ الجد ؟ وربما كان الأهم من ذلك كله : هل استطعنا – نحن الكبار – أن نخلص أنفسنا من السطحية والجرى وراء المصالح . وأن نضرب لأبنائنا مثلا صالحا فى احترام العلم والثقافة ؟ » ٠

ومع ذلك فالشباب – من الوجهة النظرية – يملك القدرة على التحرر من القيود التى فرضتها عليهم أخطاء الكبار ، أو على تجاوز الوضع الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وذلك فى حدود معينة على الأقل ٠ هذا القدر من التلقائية هو الذى يتحقق به التقدم ، وهو الذى يجعل كل جيل يضيف جديدا الى الجيل الذى سبقه على الرغم من تحكم هذا الجيل السابق فى مصيره ٠ وباسم هذه التلقائية ينبغى أن يتحمل الشباب نصيبهم من المسئولية عن تكوين أنفسهم ، مع اعترافنا الكامل بأن الكبار لم يتحملوا القدر الخاص بهم من هذه المسئولية تحملا كاملا ٠ وفى ضوء هذه التلقائية وهذه المسئولية التى هى مطلب أساسى للشباب أنفسهم ، يمكن محاسبة شبابنا على ما يبذلون من جهود فى الميدان الثقافى ، بهدف مساعدة الشباب أنفسهم على كشف أخطائهم وتلافيها بعد مواجهتها بموضوعية أمينة ٠

فالأجيال الجديدة من المثقفين تتعجل – بصفة عامة – نشر انتاجها بصرف النظر عن بلوغه مرحلة النضج الفكرى ، ومن الطبيعى أن تترتب على هذا التعجل الشديد آفات كل منها أخطر وأفدح من الأخرى ٠ كذلك هناك فئة كاملة من المثقفين تكاد صلتها الوحيدة بالثقافة العالمية أن تقتصر على قراءة تلك الترجمات الشوهاء المبتورة المتخلفة التى يغرق بها الأسواق ناشرون لا يعبأون فى عملهم بشىء سوى الربح ، والربح وحده فى عواصم عربية معروفة ٠ وكثير من أفراد هذه الفئة يتسابقون الى النشر وهم لا يملكون من حطام الدنيا الا فتات من المعلومات صيغت بأسلوب عجيب كاد أن يصبح ، فى أيامنا هذه ، لغة قائمة بذاتها ، لها مصطلحاتها وتركيباتها وتعبيراتها المحفوظة المتداولة ٠ وأصبح من الشائع فى الجو

الثقافى أن يتكلم الناس بجرأة شديدة عن أهم الشخصيات وأخطر المشكلات دون أن يكون لديهم أى المام بها الا عن طريق مصادر ذات أسلوب مشوه وفهم مبتور • والأخطر من ذلك أن أحدا لم يعد يرى فى ذلك أمرا مستغربا ، بل أصبح شيئا مقبولا يكاد يرقى الى مرتبة المسلمات •

ومن الطبيعى أن تؤدى سطحية الثقافة من ناحية ، والرغبة الملحة فى النشر من ناحية أخرى ، الى انتشار صفات مذمومة كان المفروض أن يترفع عنها الشباب وهم فى مرحلة المثاليات والمبادىء الرفيعة • فأمثلة الاقتباس المفرط غير المشروع من أعمال الغير ، مالوفة وشائعة • وأمثلة التحزب والتكتل وتبادل المصالح أصبحت لا تقل انتشارا فى عالم الشباب عنها فى عالم الكبار • ووجه الخطورة فى هذا أن الكبار الذين تشيع بينهم هذه الآفات بدأ الكثير منهم حياته بداية تتسم بقدر غير قليل من التمسك بالمبادىء ثم انزلقوا تدريجيا ، وبفعل ظروف معقدة ، حتى وصلوا الى ما هم عليه • أما اذا كانت نقطة البداية عند الشباب الناشىء هى ذاتها نقطة النهاية عند الشيخ اليائس المستسلم ، عندئذ يحق للمرء أن ينظر الى المستقبل نظرة قاتمة •

ان أى مجتمع لا يستطيع أن يأمل فى مستقبل مزدهر الا اذا كانت أجياله الشابة تؤدى رسالتها كاملة فى التزود بالثقافة قبل أن تفكر فى تزويد الآخرين بها • وهذا التزود لابد أن ينهض على المنهج أو التفكير العلمى • فالتفكير العلمى ليس بالضرورة تفكير العلماء • وحين يفكر العالم فى مشكلة متخصصة فانها فى الأغلب تنتمى الى ميدان لا يستطيع غير المتخصص أن يخوضه ، وهو يستخدم فى التعبير عن تفكيره لغة واصطلاحات ورموزا متعارفا عليها بين العلماء • أما التفكير العلمى لغير العلماء فلا ينصب على مشكلة بعينها أو حتى مجموعة من المشكلات المحددة التى يعالجها العلماء ، ولا يفترض معرفة بلغة علمية أو رموز رياضية خاصة ، ولا يقتضى أن يكون ذهن المرء محتشدا بالمعلومات العلمية أو مدربا على البحث المؤدى الى حل مشكلات العالم الطبيعى أو الانسانى ، انما هو ذلك النوع من التفكير المنظم ، الذى يمكن أن نستخدمه فى شئون حياتنا اليومية أو النشاط الفكرى أو الثقافى الذى نزاوله حين نمارس أعمالنا المهنية أو الابداعية ، وكل ما يشترط فى هذا التفكير أن ينهض على مجموعة من المبادىء التى نطبقها فى كل لحظة دون أن نشعر بها ، مثل مبدأ استحالة تأكيد الشىء أو نقيضه فى آن واحد ، والمبدأ القائل أن لكل حادث سببا ، وأنه من المحال أن يحدث شىء من لا شىء وهكذا •

فاذا كنا نقول أن هذه هى البداية الطبيعية للانسان ذى الفكر السوى المتسق ، فمن باب أولى تنطبق على المفكر المثقف الذى يعد نفسه لمسئوليات القيادة الفكرية والريادة الثقافية · ونحن للأسف فى عالمنا العربى ، لا تزال عبارة « التفكير العلمى » غريبة على الكثيرين منا ، وهذا يؤكد لنا مدى تخلفنا الفكرى والثقافى · ومع ذلك فالأمل معقود على نهضة فكرية وثقافية وحضارية طالما أن المفكرين والمثقفين العرب ـ من أمثال الدكتور فؤاد زكريا ـ يعرفون مواطن الداء وسبل العلاج · ولم يتبق سوى أن تتضافر جهودهم حتى تتحول الى شحنة دافقة من الفكر المتجدد والثقافة الرفيعة ، بدلا من أن تظل هذه الجهود مجرد طفرات متناثرة هنا وهناك ، لا تلبث أن تفرقها أمواج العزلة والتخلف المحيطة بها من كل جانب ·

محتويات العدد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٤٧٢٢

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢١٨٠ ـ ٠

** هذا الكتاب :

يحاول أن يلمس بقع الضوء المتناثرة الآن فى حياتنا الثقافية والفكرية حتى نستخلص منه درسا قد يساعدنا على تجنب الطرق المسدودة المظلمة ، التى بلغت قمتها المأساوية فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ ، وانتهت بحادث المنصة الدموى فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ ذلك أن الاستسلام لقوى التخلف والظلام لا يعنى سوى ترك الساحة خاوية خالية لها ، بحيث تصول وتجول حتى تصبح لها السيادة المطلقة على مقدرات امتنا .

وبرغم كل ذلك لم يغمر احساس اليأس والاحباط رواد الفكر المستنير بل واصلوا السباحة ضد التيار الجارف . يحاول هذا الكتاب التنظير للكتاب والمفكرين الأصلاء من خلال رصد وتحليل المثل والقيم والمبادىء التى تمسكوا بها ، والدوافع والأسباب التى ساعدتهم على ذلك . والكتاب سياحة فكرية وثقافية ممتعة ومثيرة مع توفيق الحكيم ، وحسين فوزى . وزكى نجيب محمود ، ولويس عوض ، وأمينة السعيد وعبد الرحمن الشرقاوى وأحمد بهاء الدين ونعمان عاشور ، وفؤاد زكريا ، ونعمات فؤاد .

د . نبيل راغب

مطابع الهيئة المصرية العامة

٤٢٥ قرشا